النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



السَّرْوُ الحزين

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

٣٥

Agatha Christie

أغاثا كريستي

السَّرْو الحَزين

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

السَّرْو الحَزين

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٠

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٤٠ بعنوان

Sad Cypress

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

التوزيع في دول الخليج العربي
Pioneer House

دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٦٦٩٤٢ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤
قطر ٤٨٦٢١٢١ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

تعالَ وأسْرِعْ أيها الموت، تعالَ وأسرعْ،
ولُفَّني بأغصان السَّرْوِ الحَزين.
جهِّزوا كَفَني الأبيضَ ورَصِّعوه بأعواد الطُّقْسوس،
واذهبي بعيداً أيتها الأنفاس، بعيداً اذهبي.
إنه حظّي من الموت، ولن يشاركَني فيه أحد.

«وليم شيكسبير»

استهلال

- إلينور كاثرين كارليسل، أنت متهمة بقتل ماري جيرارد في السابع والعشرين من تموز الماضي. هل أنت مذنبة أم غير مذنبة؟

وقفت إلينور كارليسل منتصبة القامة تماماً مرفوعة الرأس. كان رأسها مَهيباً وشعرها أسود وتقاطيع عظام وجهها حادة واضحة، أما عيناها فكانتا عميقتَي الزرقة مليئتين بالحياة.

ساد صمت طويل، صمت ثقيل ملحوظ تماماً. وشعر السير إدوين بولمر وكيل الدفاع ببعض الهلع، وفكر مع نفسه قائلاً: يا إلهي، سوف تقول إنها مذنبة! لقد فقدت أعصابها.

انفرجت شفتا إلينور كارليسل وقالت: غير مذنبة.

ارتخى وكيل الدفاع في مقعده، ومرّر منديلاً على جبينه مدركاً أن القضية كانت على حافة الهاوية.

كان السير صاموئيل أتينبري واقفاً يلخص القضية أمام المحكمة: السادة أعضاء هيئة المحلفين، في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر السابع والعشرين من تموز (يوليو) ماتت ماري جيرارد في منزل «هَنْتَرْبيري» في ميدِنْزفورد...

ومضى صوته جهورياً عذباً على الأسماع، مهدهِداً إلينور حتى كاد يوصلها إلى مرحلة من فقدان الشعور. ومن سرده البسيط الموجز

لم تصل إلى عقلها الواعي سوى عبارة عَرَضية من هنا وأخرى من هناك: ... يجعل القضية قضية بسيطة وواضحة إلى أبعد الحدود... إن من واجب المحكمة إثبات توفر الدافع والفرصة... لا يوجد لأحد -كما هو واضح- أي دافع لقتل تلك الفتاة المسكينة باستثناء المتهمة... فتاة شابة ذات شخصية جميلة يحبها الجميع، ومن شأن المرء أن يقول إنها لا تملك عدواً واحداً في هذا العالم...

ماري، ماري جيرارد! كم يبدو ذلك كله بعيداً الآن!

- ... ولتنتبهوا بشكل خاص إلى الاعتبارين التاليين: ما هي الفرص والوسائل التي توفرت للمتهمة لدس السم؟ وما هو الدافع الذي جعلها تفعل ذلك؟ إن من واجبي أن أستدعي أمامكم شهوداً يمكنهم مساعدتكم في الوصول إلى نتيجة صحيحة بشأن هذه المسائل. وفيما يخص تسميم ماري جيرارد فسوف أسعى لكي أريكم أن أحداً لم تتوفر له الفرصة لارتكاب هذه الجريمة باستثناء المتهَمة...

شعرت إلينور أنها حبيسة وسط ضباب كثيف، وجاءتها من خلال الضباب كلمات منفصلة عائمة: الشطائر (السندويتشات)، صلصة السمك، البيت فارغ... راحت الكلمات تطعن الستار السميك من الأفكار التي تحيط بإلينور وكأنها وخزات دبابيس تنفذ عبر ستار ثقيل خانق. محكمة، ووجوه، صفوف وصفوف من الوجوه! وجه واحد محدَّد خُيِّل إليها أنه يراقبها بتمعّن، وجه ذو شاربين سوداوين ضخمين وعينين ذكيتين.

كان هيركيول بوارو يراقبها ورأسه مائل إلى الجانب وعيناه تتأملان، وفكّرت قائلة لنفسها: إنه يحاول أن يفهم لماذا فعلتها. إنه يحاول أن يدخل داخل رأسي ليرى بماذا فكرت وبماذا شعرت...

بماذا شعرت؟ إنه انقطاعٌ وجيز للذكرى، إحساسٌ بسيط

بالصدمة... وجه رودي، وجهه العزيز بأنفه الطويل وفمه الحساس. رودي، دائماً رودي! دائماً، من بداية ما تسعفها الذاكرة، منذ تلك الأيام في «هنتَرْبيري» بين أشجار العلّيق، وفي أراضي الصيد، وعند الجدول. رودي، رودي، رودي!

وجوه أخرى... الممرضة أوبرايان بفمها المفتوح قليلاً ووجهها النضر المنمَّش وقد مال إلى الأمام. والممرضة هوبكنز التي تبدو راضية بنفسها، راضية وعنيدة. ووجه بيتر لورد، بيتر لورد اللطيف جداً، العاقل جداً، المُريح جداً! ولكنه يبدو الآن... كيف يبدو؟ ضائعاً؟ نعم، ضائع! إنه يهتمّ، يهتم لهذا كله بشكل فظيع، بينما هي نفسها -صاحبة الشأن- لا تهتم إطلاقاً!

ها هي الآن هادئة وباردة تماماً، تقف خلف القضبان في المحكمة متّهَمة بجريمة قتل.

تململ في داخلها شيء ما، وخفَّت ثنايا الستارات التي تلفّ عقلها، أصبحت مجرد أشباح. في المحكمة؟ الناس... أناس يميلون بأجسامهم إلى الأمام وقد انفرجت شفاههم واتّقدت أعينهم لهفةً، يحدّقون إليها باستمتاع فظيع، استمتاع بمآسي الآخرين، يُصغون بشيء من اللذة البطيئة القاسية إلى ما يقوله عنها ذلك الرجل الطويل: إن من السهل تماماً متابعة الحقائق في هذه القضية، وهي حقائق منسجمة بعضها مع بعض، وسوف أضعها بين أيديكم بشكل بسيط تماماً. منذ نقطة البداية...

فكرت إلينور: البداية... البداية؟ في ذلك اليوم الذي وصلت فيه تلك الرسالة الفظيعة المُغفَلة من التوقيع. تلك كانت بداية القصة!

* * *

الجزء الأول

الفصل الأول

-١-

وقفت إلينور كارليسل تنظر إلى الرسالة المفتوحة بين يديها. لم تكن قد استلمت مثل هذه الرسائل من قبل، وهي رسائل تثير في المرء إحساساً كريهاً. كانت مكتوبة بخط سيء وتهجئة سيئة وعلى ورق وردي رخيص. وقد جاء فيها:

هذه الرسالة لتحذيرك. لن أسمّي أسماء، ولكن أحداهن تتذلل لكسب ودّ عمتك، وإن لم تكوني حريصة فسوف تُحرَمين من كل شيء. إن الفتيات ماكرات جداً، والنساء العجائز رقيقات عندما تتذلل لهن الفتيات الصغيرات ويتملقونهن. أرى أن تأتي وتشاهدي بنفسك ما يجري، فليس من الحق أن تُحرَمي أنت والسيد الشاب مما هو حقكما. إنها ماكرة جداً، والسيدة العجوز قد تموت في أية لحظة.

فاعل خير.

كانت إلينور ما تزال تنظر إلى هذه الرسالة وقد قطّبت حاجبيها المنمَّقين تقززاً عندما فُتح الباب وأعلنت الخادمة قائلة: "السيد ويلمان". ودخل رودي.

رودي! كعادتها كلما رأت رودي، أحست إلينور بشعور خفيف من الدوار، بوخزة سرور مفاجئ، بشعور بأن من واجبها أن تكون واقعية غير عاطفية؛ ذلك أنه كان واضحاً جداً أن رودي -رغم حبه لها- لا يُحسّ تجاهها بمثل ما تحس هي تجاهه. إن أول رؤية له قد أثّرت فيها تأثيراً قوياً، لوت قلبها واعتصرته حتى كاد يؤلمها. إنه لمن السخف أن يستطيع رجل، رجل عادي، بل عادي تماماً، أن يفعل ذلك بامرأة! من السخف أن يكون من شأن نظرته وحدها أن تجعل العالَم يدور، وأن يكون من شأن صوته وحده أن يجعل المرء يرغب قليلاً بالبكاء! من المؤكد أن الحب ينبغي أن يكون عاطفة سارّة مفرحة، لا عاطفة تؤلم لشدّة تركيزها.

كان ثمة شيء واضح واحد: ينبغي عليها أن تكون حريصة جداً على البقاء طبيعية تلقائية غير مهتمة ولا متلهّفة، فالرجال لا يحبون الوَلَهَ والتعلق الشديد، ومن المؤكد أن رودي لا يحب ذلك.

قالت بأسلوب عَرَضي: مرحباً رودي.

أجابها: مرحباً يا حبيبتي. تبدين في وضع مأساوي، أهي فاتورة وصلتك؟

هزت إلينور رأسها بالنفي فقال رودي: ظننتها فاتورة، فهذا منتصف الصيف كما تعلمين، حيث ترقص الجنّيات وتأتي الفواتير المتأخرة تِباعاً.

- إنه أمر فظيع، إنها رسالة من مجهول.

ارتفع حاجبا رودي وتصلب وتغير وجهه المتلهف الحسّاس، ثم قال هاتفاً بحدة واشمئزاز: حقاً؟

قالت إلينور ثانية: إنه أمر فظيع.

ثم خطت خطوة نحو مكتبها وقالت: أحسب أن من الأفضل أن أمزّقها.

وقد كان من شأنها أن تفعل ذلك، بل لقد كادت تفعله. كان من شأنها أن ترميها بعيداً ولا تفكر بها بعد ذلك، وما كان رودي ليوقفها عن القيام بذلك، فقد كان إحساسه بالاشمئزاز أكبر من فضوله بكثير. ولكن إلينور قررت بوحي اللحظة خلاف ذلك. قالت: ولكن ربما كان من الأفضل أن تقرأها قبل ذلك، وبعدها سنحرقها. إنها بشأن العمة لاورا.

ارتفع حاجبا رودي دهشة وقال: العمة لاورا؟

أخذ الرسالة فقرأها، وعبس تقزّزاً ثم أعادها إليها وقال: نعم، ينبغي حرقها بالتأكيد. يا لغرابة الناس!

- أتحسبه واحداً من الخدم؟

- ربما.

ثم تردد لحظة وقال: إنني لأتساءل مَن... من هي تلك التي ذكرَتها الرسالة؟

قالت إلينور متأملة: لا بد أنها ماري جيرارد كما أظن.

قطب رودي جبينه في محاولة للتذكر وقال: ماري جيرارد؟ مَن هي؟

- ابنة الزوجين اللذين يسكنان البيت الصغير المخصص للبوّاب عند مدخل العزبة. ألا تذكرها عندما كانت طفلة؟ لقد كانت العمة لاورا مغرمة دوماً بهذه الفتاة وكانت مهتمة بها، فقد دفعت لها نفقات الدراسة والعديد من النفقات الإضافية الأخرى، دروس في البيانو

وفي اللغة الفرنسية وغير ذلك.

- آه، نعم، تذكرتُها الآن. تلك الطفلة النحيلة التي لا يرى المرء منها إلاّ عظاماً، مع لُمّة من الشعر الأشقر.

أومأت إلينور برأسها موافقة وقالت: نعم، وقد اعتدنا أن نخرجها من بيتها ونلعب معها عندما كنا كلنا صغاراً. ربما لم تَرَها منذ أيام تلك العُطل الصيفية عندما كان والداي يسافران، فأنت لم تتردد على «هنتَرْبيري» بقدر ما ترددت أنا بالطبع. وقد كانت في ألمانيا مؤخراً تعمل لدى عائلة بهدف تعلم اللغة.

- كيف أصبحت الآن؟

- لقد غدت جميلة تماماً وتتمتع بآداب السلوك، وبسبب تعليمها لا يمكن للمرء أن يحسبها ابنة العجوز جيرارد على الإطلاق.

- لقد اكتسبت مظاهر النبيلات، أليس كذلك؟

- بلى، ونتيجة لذلك فإنها لم تعد تنسجم مع بيت البوّاب الصغير كما أظن، فقد ماتت السيدة جيرارد منذ بضع سنين، وماري لا تنسجم مع والدها الذي يسخر من تعليمها و«أساليبها الراقية».

قال رودي بغضب: إن الناس لا يعرفون أبداً مقدار الأذى الذي قد يُلحقونه حينما «يعلّمون» شخصاً من مثل هذه البيئة؛ إذ غالباً ما يكون ذلك قسوة لا لطفاً!

- أحسب أنها تتردد على المنزل كثيراً، فهي تقرأ للعمّة لاورا منذ أن تعرضت لتلك السكتة الدماغية.

- ولماذا لا تقرأ الممرضة لها؟

- إن للممرضة أوبرايان لكنة لا يمكن لأحد أن يطيقها، فلا عجب أن تفضل العمة لاورا قراءة ماري.

ذرع رودي الغرفة جيئة وذهاباً بعصبية وسرعة للحظات ثم قال: أتعلمين يا إلينور؟ أظن أن علينا الذهاب إلى هناك.

قالت إلينور بقليل من التقزز: بسبب هذه؟

- لا، لا، أبداً. ولكن... تباً، على المرء أن يكون صادقاً. نعم، فرغم كل ما توحي به هذه الرسالة من شر إلاّ أنها قد تحتوي على بعض الحقيقة. أعني أن العجوز مريضة تماماً...

- نعم يا رودي.

نظر إليها بابتسامته الساحرة معترفاً بأن لا عصمة للطبيعة البشرية، ثم قال: والمال يهمّ بالفعل، يهمنا كلينا يا إلينور.

اعترفت بذلك بسرعة قائلة: آه، إنه يهم.

قال جاداً: المسألة ليست مسألة كوني مرتزقاً، ولكن العمة لاورا نفسها قالت مراراً وتكراراً إننا قريباها الوحيدان. فأنت ابنة أخيها وأنا ابن أخي زوجها، ولقد أوحت لنا دائماً ما يُفهَم منه أن كل ما تملكه سيؤول عند وفاتها لواحد منا، والأغلب لكلينا. وهي... وهي ثروة عظيمة يا إلينور.

قالت إلينور متأملة: نعم، لا بد أنها ثروة عظيمة.

- إن المحافظة على منزل هنتَرْبيري ليست بالأمر الهيّن.

سكت قليلاً ثم قال: أحسب أن العم هنري كان غنياً عندما التقى عمتك لاورا، ولكنها كانت غنية أيضاً، فقد ورثت هي وأبوك ثروة كبيرة. مؤسف أن أباك دخل في مضاربات خسر فيها معظم ثروته.

تنهدت إلينور وقالت: لم يكن لوالدي المسكين أبداً عقل تجاري ناجح.

- نعم، لقد كان للعمة لاورا عقل تجاري أفضل من عقله بكثير. لقد تزوجت عمي هنري واشتريا هنتَرْبيري، وقد أخبرتني قبل فترة بأنها كانت محظوظة جداً في استثماراتها على الدوام، فلم تفشل في أي منها.

- لقد ترك لها العم هنري كل ما يملك عند وفاته، أليس كذلك؟

أومأ رودي وقال: بلى، كانت وفاته المبكرة أمراً مأساوياً. ومع ذلك لم تتزوج غيره، فهي من النوع المخلص. وقد كانت دوماً طيبة جداً معنا؛ لقد عاملتني وكأنني ابن أخيها هي لا ابن أخي زوجها، وعندما كنت أقع في ورطة كانت تسارع إلى إخراجي منها، ولكنني لم أقع في الكثير من تلك الورطات لحسن الحظ!

قالت إلينور بامتنان: لقد كانت سخية جداً معي أنا أيضاً.

أومأ رودي موافقاً وقال: إن العمة لاورا امرأة كريمة، ولكن ربما كنا يا إلينور نعيش -دون إدراك منا- بشكل باذخ مسرف جداً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار إمكانياتنا الحقيقية.

قالت بحزن: أظننا نسرف بالفعل. كل شيء يكلّف الكثير؛ الملابس، والتجميل، وأمور سخيفة أخرى كالسينما والحفلات، وحتى أسطوانات الغرامافون!

- يا حبيبتي، إنك حقاً ممن يسمونهم ذوي الأيادي الناعمة، ممن لا يتعبون ولا يشقون، أليس كذلك؟

- أتظن أن عليّ أن أعمل وأشقى يا رودي؟

هز رأسه بالنفي وقال: إنني أحبك كما أنت؛ رقيقة مترفعة في برجك العاجي. إن من شأني أن أكره تحولك إلى فتاة جدية جداً، ولكنني أقول فقط إنك -لولا العمة لاورا- ربما كنتِ تعملين في وظيفة مملة ما.

ثم أكمل قائلاً: والأمر نفسه ينطبق عليّ أنا أيضاً. إن لدي عملاً نوعاً ما، فالعمل في شركة لويس وهيوم ليس شاقاً جداً. إنه يناسبني، إذ أحتفظ باحترامي لنفسي لأن لديّ عملاً، ولكنني (وأرجو أن تنتبهي لذلك) لا أقلق على المستقبل بسبب ما أتوقعه من إرث من العمة لاورا.

- يبدو من كلامك وكأنك طفيلي كشجرة لبلاب بشرية.

- هراء! لقد أُوحيَ إلينا بأننا سنرث مالاً ذات يوم، هذا كل ما في الأمر. ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الحقيقة في سلوكنا.

قالت إلينور وهي تتأمل: لم يحدث أن أخبرتنا العمة لاورا بشكل محدد كيف قسمت أموالها بالضبط، أليس كذلك؟

- هذا لا يهم، فالأغلب أن تكون قد قسمتها بيننا. ولكن إن لم يكن الأمر كذلك... إن كانت قد تركت كل الثروة أو معظمها لك أنت باعتبارك من لحمها ودمها، فعندها يا حبيبتي سأتقاسمها معك لأنني سأتزوجك، وإذا كانت العجوز قد رأت أن تذهب غالبية الثروة لي أنا باعتباري الممثل الذكر لعائلة ويلمان فلا بأس بذلك أيضاً، لأنك ستتزوجين بي.

ثم ابتسم لها بمحبة وأضاف: من حسن الحظ أن كلاً منا قد أحب الآخر. أنت تحبينني حقاً، أليس كذلك يا إلينور؟

- بلى.

قالتها ببرود وبشكل يكاد يكون رسمياً مقتضباً، فقال رودي يقلد أسلوبها: "نعم"! إنك رائعة يا إلينور بهذا السمتِ الذي تُبدينه... البُعد والترفع الذي لا يُطال، أشبه بأميرة. أظن أن هذه الصفة فيك هي التي جعلتني أحبك.

حبست إلينور أنفاسها وقالت: أحقاً؟

قطب جبينه وقال: نعم. إن بعض النساء شديدات الـ... لا أدري، شديدات التعلق بالمرء والسعي إلى تملُّكه، يحببن إلى حدّ تسيل فيه عواطفهن لتملأ المكان! إنني أكره ذلك، أما معك فلا أعرف، لا أستطيع الجزم أبداً. يمكنك في أية لحظة أن تستديري بطريقتك المحايدة الباردة تلك وتقولي لي إنك قد غيّرتِ رأيك... هكذا بكل برود، دون أن يرفّ لك جفن! إنك مخلوقة فاتنة يا إلينور، أنت أشبه بعمل فني شديد الكمال. أرى أن زواجنا سيكون زواجاً مثالياً، فنحن نحب بعضنا بعضاً بما فيه الكفاية ودون إفراط، ونحن صديقان حميمان، ولنا الكثير من الأذواق المشتركة، وكل منا يعرف الآخر معرفة عميقة تماماً. إن لدينا كل مزايا القرابة دون مساوئ ومضارّ قرابة الدم. ولن أملّ منك أبداً لأنك مخلوقة يصعب جداً الاطمئنان إلى ولائها. أما أنا فإنني رجل عادي جداً ويمكن أن تملّيني...

هزت إلينور رأسها نافية وقالت: لن أملّك يا رودي، أبداً.

- شكراً يا حبيبتي! أظن أن العمة لاورا تعرف أحوالنا تمام المعرفة، رغم أننا لم نذهب إليها هناك منذ أن رتبنا الأمر أخيراً، وهذا ما يُعطينا عذراً للذهاب لزيارتها، أليس كذلك؟

- بلى. كنت أفكر قبل أيام...

أكمل عنها جملتها: بأننا لم نعد نذهب إلى هناك كثيراً كما كنا نفعل من قبل. لقد فكرتُ بذلك أيضاً. عندما تعرضَتْ للسكتة أول مرة كنا نذهب كل أسبوعين تقريباً، والآن كاد يمر شهران منذ آخر زيارة لنا.

- كنا سنذهب لو أنها طلبتنا... على الفور.

- نعم، بالطبع. ونحن نعرف أنها تحب الممرضة أوبرايان وتجد منها كل عناية، ومع ذلك فربما كنا مهمِلَيْن قليلاً. وأنا الآن لا أتحدث من وجهة النظر المالية بل من الناحية الإنسانية المجردة.

أومأت إلينور برأسها قائلة: أعرف.

- وهكذا فإن تلك الرسالة القذرة قد جاء منها شيء جيد في نهاية الأمر! سنذهب لحماية مصالحنا ولأننا مغرمان بالعجوز العزيزة.

أشعل عود ثقاب وأحرق الرسالة التي أخذها من يد إلينور قائلاً: إنني أتساءل عمَّن كتبها؟ وهذا لا يعني أن الأمر مهم. إنه واحد «من جماعتنا» كما كنا نقول ونحن صغار، وربما كان في عمله هذا قد أفادنا أيضاً؛ فقد ذهبت والدة جيم بارتينغتن إلى الريفيرا لتعيش هناك، وهناك تعرفت بطبيب إيطالي شاب ووسيم ليقوم على رعايتها فتعلقت به بجنون وتركت له كل قرش تملكه. وقد حاول جيم وأخواته الطعن بالوصية ولكنهم لم ينجحوا في ذلك.

- إن العمة لاورا تحب الطبيب الجديد الذي حل محل الدكتور رانسوم، ولكن ليس إلى هذا الحد! وعلى أية حال فإن تلك الرسالة الفظيعة ذكرت فتاة؛ لا بد أنها ماري.

قال رودي: سنذهب هناك ونرى بأنفسنا.

خرجت الممرضة أوبرايان من غرفة نوم السيدة ويلمان مسرعة ودخلت الحمام، وقالت وهي تلتفت: سأضع الإبريق على النار فقط. أنا واثقة من أنك سترتاحين لشرب فنجان من الشاي قبل ذهابك يا زميلتي.

قالت الممرضة هوبكنز بارتياح: يمكنني دائماً الارتياح لشرب فنجان من الشاي يا عزيزتي، إذ دائماً ما أقول إن شيئاً لا يضاهي فنجان شاي جيداً، من الشاي الثقيل.

قالت الممرضة أوبرايان وهي تملأ الإبريق وتشعل تحته النار: لديّ هنا كل شيء في هذه الخزانة، إبريق الشاي والفناجين والسكر. وإيدنا تُحضر لي الحليب الطازج مرتين يومياً. لا حاجة لأن أقرع الأجراس على الدوام. هذا موقد غازي جيد يغلي الماء في ثوان معدودة.

كانت الممرضة أوبرايان امرأة طويلة محمَرّة الشعر في الثلاثين من عمرها، ذات أسنان بيضاء ناصعة ووجه منمَّش وابتسامة محببة. وقد جعلها مرحها وحيويتها مفضلة لدى مرضاها. أما الممرضة هوبكنز، ممرضة المقاطعة التي تأتي كل صباح لترتيب السرير والإشراف على نظافة السيدة العجوز الثقيلة، فقد كانت امرأة في منتصف عمرها بسيطة المظهر يوحي شكلها بالكفاءة والرشاقة.

قالت باستحسان: كل شيء جيد في هذا البيت.

أومأت صاحبتها وقالت: نعم. بعض سِماته قديمة، فليس فيه مثلاً تدفئة مركزية، ولكن يوجد الكثير من المواقد، والخادمات

متعاونات جداً، والسيدة بيشوب تعتني بهن جيداً.

قالت الممرضة هوبكنز: أنا لا أطيق صبراً على فتيات اليوم، فغالبيتهن لا يعرفن ما يُردن ولا يمكنهن القيام بعمل مُتقَن.

- إن ماري جيرارد فتاة لطيفة. لا أدري ما الذي كانت السيدة ويلمان ستفعله من دونها. هل رأيت كيف سألَتْ عنها الآن؟ إنها مخلوقة لطيفة ولها أسلوب في التعامل مع السيدة العجوز.

قالت الممرضة هوبكنز: كم أنا حزينة على ماري؛ فأبوها يفعل كل ما في وسعه لإغاظتها.

- ليس في رأسِ ذلك النزق العجوز كلمة مهذبة واحدة. ها قد صفّر الإبريق؛ سأُحضِّر الشاي.

تم تحضير الشاي وصبُّه حاراً ثقيلاً، وجلست الممرضتان ترتشفان منه في غرفة الممرضة أوبرايان المجاورة لغرفة نوم السيدة ويلمان. قالت الممرضة أوبرايان: سيأتي السيد ويلمان والآنسة كارليسل إلى هنا. لقد وصلت منهما برقية صباح اليوم.

- هذا هو السبب إذن؟ لقد رأيت أن العجوز بدت منفعلة لشيء ما. لقد مضى وقت طويل منذ قدومهما في المرة الأخيرة، أليس كذلك؟

- مضى نحو شهرين أو أكثر. يا للسيد ويلمان من رجل لطيف! ولكنه يبدو متكبراً.

- أما هي فقد رأيت صورتها قبل أيام في إحدى المجلات مع صديقة لها في نيومارْكِت.

- إنها مشهورة في الأوساط الاجتماعية، أليس كذلك؟ وهي

ترتدي دوماً ملابس رائعة. أتظنينها جميلة حقاً؟

قالت الممرضة هوبكنز: من الصعب الجزم بحقيقة أشكال هؤلاء الفتيات إذا ما تم استبعاد المساحيق الكثيفة عن وجوههن، ولكن الذي أراه أنها ليست بجمال ماري جيرارد.

زمّت الممرضة أوبرايان شفتيها وأمالت رأسها إلى الجانب وقالت: ربما كنتِ على حق، ولكن ماري لا تمتلك الأسلوب.

قالت الممرضة هوبكنز بأسلوب وعظي: من شأن الريش الجميل أن يصنع طائراً جميلاً.

- هل لك في كوب آخر من الشاي؟

- شكراً لك، لا مانع عندي.

تقاربت المرأتان وهما منكبّتان على كوبَيهما، ثم قالت الممرضة أوبرايان: لقد حدث أمر غريب الليلة الماضية، فقد دخلتُ في الساعة الثانية ليلاً لأتأكد من راحة العجوز العزيزة كما أفعل دائماً فوجدتها متمددة على السرير، ولا بد أنها كانت تحلم، لأنها قالت بمجرد دخولي الغرفة: "الصورة، يجب أن أرى الصورة". فقلتُ لها: "بالطبع يا سيدة ويلمان، ولكن أليس من الأفضل الانتظار حتى الصباح؟"، فقالت: "لا، بل أريد رؤيتها الآن". وهكذا قلت: "حسناً، أين هي الصورة؟ أتعنين صورة السيد روديريك؟"، فقالت: "روديريك؟ لا، بل لويس". ثم بدأت تجاهد للنهوض، فاقتربتُ لمساعدتها، فأخرجَت مفاتيحها من العلبة الصغيرة قرب سريرها وطلبت مني فتح الدُرج الثاني في خزانة الأدراج، وهناك وجدتُ فعلاً صورة كبيرة ذات إطار فضي. كانت لرجل شديد الوسامة، وقد كُتب في زاوية الصورة «لويس»، وهو تقليد قديم طبعاً. لا بد أنها قد صُوِّرت منذ

سنين طويلة. أخذتُ لها الصورة فأمسكت بها وحدّقت إليها لفترة طويلة، واكتفت بأن تمتمت: "لويس، لويس"... ثم تنهدت وأعادت لي الصورة لأعيدها حيث كانت. وهل تصدقين أنني -عندما التفتُّ إليها ثانية - وجدتها قد نامت بهدوء كطفل صغير.

قالت الممرضة هوبكنز: أتظنينه كان زوجها؟

- لا؛ لأنني سألت السيدة بيشوب صباح اليوم بشكل عَرَضي عن الاسم الأول للسيد ويلمان الراحل فقالت إنه هنري!

تبادلت المرأتان النظرات. كان للممرضة هوبكنز أنف طويل، وقد ارتعش طرفه قليلاً بانفعال، ثم قالت متأملة: لويس، لويس؟ عجباً! مَن هو؟ لا أذكر أي اسم كهذا في هذه المنطقة.

ذكَّرتها صاحبتها قائلة: من شأن ذلك أن يكون منذ سنوات طويلة يا عزيزتي.

- نعم، وأنا بالطبع لم يمضِ على وجودي هنا إلاّ سنتان. إنني لأتساءل...

قالت الممرضة أوبرايان: كان رجلاً وسيماً جداً، بدا وكأنه ضابط في سلاح الفرسان.

رشفت الممرضة هوبكنز من كوبها وقالت: هذا مثير جداً.

قالت الممرضة أوبرايان بأسلوب رومَنسي: ربما كانا في صغرهما حبيبَين وفرَّق بينهما أب قاسٍ؟

تنهدت الممرضة هوبكنز بعمق وقالت: ربما قُتل في الحرب.

عندما غادرت الممرضة هوبكنز البيت أخيراً -وقد ملأها سعادةً ما شربته من شاي وما ضربت أخماسه بأسداسه من تأملات رومَنسية- ركضت ماري جيرارد خارجة من الباب لتلحق بها قائلة: آه، هل لي أن أمشي معك إلى القرية؟

- بالطبع يا عزيزتي ماري.

قالت ماري جيرارد لاهثة: يجب أن أتحدث معك؛ إنني قلقة جداً بشأن كل شيء.

نظرت إليها المرأة التي تفوقها عمراً بلطف.

كانت ماري جيرارد فتاة جميلة في الحادية والعشرين من عمرها ذات شكل أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة، كأنها وردة برية: عنق دقيق طويل، وشعر ذهبي فاتح يحيط برأسها الجميل على شكل خصلات متموجة تموجاً طبيعياً، وعينان برّاقتان عميقتا الزرقة.

قالت الممرضة هوبكنز: ما المشكلة؟

- المشكلة أن الزمن يمرّ ويمرّ وأنا لا أعمل شيئاً.

قالت الممرضة هوبكنز ببرود: هناك مُتسع من الوقت لذلك.

- لا، والأمر يبعث على القلق الشديد. لقد كانت السيدة ويلمان لطيفة جداً، فقد دفعت لي كل تلك التكاليف الباهظة للدراسة، وأشعر الآن فعلاً أن عليّ أن أبدأ بكسب عيشي. ينبغي أن أتدرب على مهنة ما.

أومأت الممرضة هوبكنز برأسها تعاطفاً، ومضت ماري قائلة:

إن لم أفعل ذلك فسيكون الأمر مضيعة لكل شيء. لقد حاولت أن... أن أشرح ما أشعر به للسيدة ويلمان، ولكن الأمر صعب. لا يبدو أنها تفهمني، فهي لا تفتأ تقول إن هناك الكثير من الوقت.

- تذكّري أنها امرأة مريضة.

احمرّ وجه ماري ندماً وقالت: آه، أعرف ذلك. أظن أن عليّ أن لا أزعجها، ولكن الأمر مُقلق بالفعل، ووالدي شديد الـ... شديد اللؤم بخصوص هذا الأمر؛ فهو يهزأ مني دوماً لكوني امرأة «راقية»! ولكني لا أريد حقاً البقاء هكذا دون عمل.

- أعرف ذلك.

- المشكلة أن التدريب على أية مهنة أمر مُكلِّف دائماً. إنني أتقن الألمانية جيداً الآن ويمكنني أن أستفيد من ذلك بشكل ما، ولكن الذي أظنه حقاً هو أنني أريد أن أكون ممرضة في مستشفى؛ فأنا أحب مهنة التمريض.

قالت الممرضة هوبكنز دون رومنسية: تذكّري أن عليك أن تكوني قوية جداً في هذه الحالة.

- إنني قوية! وأنا أحب التمريض حقاً. لقد كانت خالتي التي عاشت في نيوزيلندا ممرضة، ولذلك فإن المهنة تجري في عروقي.

- ماذا عن التدليك؟ إنها مهنة تدرّ ربحاً جيداً.

قالت ماري بارتياب: ولكن التدريب عليها باهظ التكاليف. لقد كنتُ آمل... ولكن ذلك جشعٌ شديد مني. لقد فعلَتْ الكثير من أجلي حتى الآن.

- أتعنين السيدة ويلمان؟ هذا هراء. أنا أرى أنها مدينة لك بذلك. لقد وفّرت لك تعليماً رائعاً، ولكنه ليس من النوع الذي يُحقق الكثير. لا أظنك تريدين التدريس؟

- لا أملك من الذكاء ما يكفي لذلك.

- بل لديك منه الكثير! إن أردتِ نصيحتي يا ماري فما عليك إلاّ أن تصبري في الوقت الحاضر، فأنا أرى -كما قلت- أن السيدة ويلمان مدينة لك بمساعدتك للبدء في كسب عيشك. وما من شك لديّ في أنها تنوي ذلك، ولكن حقيقة الأمر هي أنها تعلّقت بك ولا تريد أن تفقدك.

قالت ماري وقد شهقت قليلاً: آه! أتظنين حقاً أن الأمر على هذا النحو؟

- ليس لديّ أدنى شك في ذلك؛ فها هي تلك المسكينة العجوز تجلس مُقعَدة مشلولة نصفياً وليس هناك الكثير ممّا يسليها أو من يسلّونها. إن وجود شابة جميلة نضرة مثلك في المنزل يعني لها الكثير، وإن لك أسلوباً رائعاً مع المرضى.

قالت ماري بهدوء: إن كنتِ ترين ذلك حقاً فهذا يريحني قليلاً. يا للسيدة ويلمان العزيزة! إنني أحبها جداً جداً. لقد كانت في غاية اللطف معي دوماً، ومن شأني فعل أي شيء من أجلها.

قالت الممرضة هوبكنز ببرود: إن أفضل ما تستطيعين فعله هو البقاء حيث أنت والتوقف عن القلق، ولن يطول انتظارك.

- أتعنين...؟

بدت عيناها واسعتين خائفتين، فيما أومأت ممرضة المقاطعة

برأسها وقالت: لقد صمدَت بشكل رائع، ولكن هذا لن يدوم طويلاً. ستكون هناك سكتة أخرى، ثم ثالثة. إنني أعرف طريقة هذا المرض جيداً. اصبري يا عزيزتي، إنك إن جعلتِ الأيام الأخيرة للعجوز أيام سعادة وتسلية فسيكون ذلك تصرفاً أفضل من كثير غيره.

قالت ماري: أنت في غاية اللطف.

- ها هو أبوك يخرج من باب البيت، ولا أظنه ينوي تمضية اليوم على خير!

كانتا تقتربان من البوابة الحديدية الضخمة. وعلى درجات بيت البواب كان هناك رجل كهل منحني الظهر ينزل بصعوبة على الدرجتين.

قالت الممرضة هوبكنز بابتهاج: صباح الخير يا سيد جيرارد.

قال إفرايم جيرارد باقتضاب نزق: آه!

قالت الممرضة: إنه طقس جميل.

قال العجوز جيرارد بغيظ: ربما كان جميلاً بالنسبة لك، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لي. إن آلام ظهري تشتد عليّ.

قالت الممرضة هوبكنز بمرح: أحسب أن هذا بسبب موجة الرطوبة التي سادت الأسبوع الماضي، ولكن هذا الطقس الجاف الحار سيزيل ذلك سريعاً.

بدا أن أسلوبها المحترف السريع قد أزعج العجوز، فقال بامتعاض: ممرضات، ممرضات! كلكن سواء؛ يملؤكنّ السرور بمتاعب الآخرين، وما أقل ما تأبَهْنَ حقيقة! وها هي ماري تتحدث عن نيتها في أن تصبح ممرضة أيضاً. كنتُ أظنها تريد شيئاً أفضل من

ذلك، بما تتكلمه من فرنسية وألمانية وكل الأشياء التي تعلّمتها في مدرستها الكبرى وأسفارها إلى الخارج...

قالت ماري بحدّة: إن التمريض سيكون جيداً تماماً بالنسبة لي.

- نعم، ولكنك تفضلين عدم القيام بشيء أبداً، أليس كذلك؟ تتبخترين هنا وهناك بخُيَلائك وتصّنُعك وأساليبك الأرستقراطية المتبطلة. الكسل هو ما تحبينه يا فتاتي.

احتجّت ماري وقد اغرورقت عيناها بالدموع: هذا ليس صحيحاً يا أبي، ليس من حقك أن تقول ذلك.

تدخلت الممرضة هوبكنز بأسلوب ثقيل يراد له أن يكون مَرِحاً: أنت لستَ على ما يرام هذا الصباح، أليس كذلك؟ إنك لا تقصد حقاً ما تقوله يا جيرارد. إن ماري فتاة طيبة، وهي ابنة بارة بك.

نظر جيرارد إلى ابنته كمن يكاد يتمنى لها الشر وقال: لم تعد ابنتي هذه الأيام... بفرنسيتها وحديثها الرقيق المُتصنّع!

ثم استدار ودخل البيت الصغير ثانية.

قالت ماري والدموع ما تزال في عينيها: ها أنت ترين مقدار صعوبة الأمر. إنه غير معقول أبداً، إنه لم يحبني حقاً حتى عندما كنت فتاة صغيرة، كانت أمي تدافع عني دوماً.

قالت الممرضة هوبكنز بلطف: هيا، هيا، لا عليك. هذه الأمور تأتينا لتمتحن صبرنا. يا إلهي! عليّ أن أسرع، أمامي جولة واسعة اليوم.

وفيما وقفت ماري جيرارد تراقب الممرضة وهي تبتعد سريعاً

فكّرت بكآبة بأن أحداً لا يستطيع مساعدتها حقاً، فقد اكتفت الممرضة هوبكنز -رغم كل لطفها- بترديد بعض العبارات المكرورة وتقديمها بأسلوب جديد.

فكرت ماري قائلة لنفسها بجزع: ماذا أفعل؟

* * *

الفصل الثاني

-١-

كانت السيدة ويلمان متمددة على الوسائد التي تم ترتيبها بحرص. كان تنفسها عميقاً ثقيلاً بعض الشيء، ولكنها لم تكن نائمة. أما عيناها -وهما ما تزالان عميقتَي الزرقة كعيني ابنة أخيها إلينور- فقد نظرتا إلى السقف. كانت امرأة ضخمة ثقيلة ذات وجه وسيم يبدو من الجانب كوجه الصقر، كان العزم والكبرياء باديين في وجهها.

نزلت العينان واستقرتا على الجسد الجالس قرب النافذة. استقرتا هناك بلطف، بل بشيء أقرب إلى الاكتئاب. وقالت أخيراً: ماري.

التفتت الفتاة بسرعة وقالت: آه، أنت مستيقظة يا سيدة ويلمان؟

قالت لاورا ويلمان: نعم، مستيقظة منذ بعض الوقت.

- آه، لم أكن أعرف ذلك. لو عرفت...

تدخلت السيدة ويلمان قائلة: لا بأس بذلك. كنت أفكر، أفكر

بأمور كثيرة.

- نعم يا سيدة ويلمان؟

كان لهذه النظرة المتعاطفة والصوت المهتم أن جعلا نظرة لطف تبدو على محيّا المرأة العجوز. قالت برقّة: أنا أحبك كثيراً يا عزيزتي، فأنت طيبة معي.

- آه يا سيدة ويلمان، أنت التي كنت طيبة ولطيفة معي، ولا أدري ماذا كنت سأفعل لولاك! لقد فعلت لي كل شيء.

- لا أدري، لا أدري...

تململت المريضة في سريرها وتقلص ذراعها الأيمن، أما ذراعها الأيسر فقد بقي مشلولاً لا حياة فيه. وأكملت تقول: ينوي المرء عمل أفضل ما يستطيعه، ولكن من الصعب جداً معرفة ما هو الأفضل، ما هو الصحيح. لقد كنتُ دوماً متأكدة من نفسي تماماً.

- بل إنني متأكدة أنك تعرفين دوماً ما هو أفضل شيء وأصح شيء يفعله المرء.

ولكن لاورا ويلمان هزت رأسها بالنفي وقالت: لا، لا؛ إنه أمر يقلقني. لقد كانت لديّ خصلة سيئة تغويني دوماً يا ماري. فأنا متكبرة، ويمكن للكِبْر أن يكون شيطاناً رجيماً. إنها صفة تسري في دماء العائلة، وإلينور تملك الصفة نفسها أيضاً.

قالت ماري بسرعة: سيكون من الممتع بالنسبة لك وجود الآنسة إلينور والسيد روديريك هنا، سيبهجك هذا كثيراً. لقد مرّ وقت طويل منذ أن كانا هنا آخر مرة.

قالت السيدة ويلمان بلطف: إنهما طفلان طيّبان، طيبان جداً.

وهما مغرمان بي، كلاهما. أعرف أن كل ما أحتاجه هو أن أرسل في طلبهما ليأتيا على الفور، ولكني لا أريد فعل ذلك كثيراً، فهما شابان وسعيدان والدنيا ما تزال أمامهما. لا حاجة لإحضارهما قبل الأوان إلى حيث المعاناة ودنوّ الأجل.

- أنا واثقة من أنهما لن يشعرا أبداً على هذا النحو يا سيدة ويلمان.

مضت السيدة ويلمان وكأنها تكلم نفسها أكثر مما تكلم الفتاة: لقد كنت آمل دوماً أن يتزوجا، ولكني حاولت أن لا أشير إلى شيء من ذلك أبداً. الشباب متناقضون جداً؛ ومن شأن تدخّلي أن يباعد بينهما! لقد رأيت منذ زمن طويل -عندما كانا طفلين- أن إلينور قد منحت قلبها لرودي، ولكنني لم أكن واثقة أبداً من موقفه هو. إنه مخلوق غريب. لقد كان هنري مثله، شديد التحفظ والتدقيق. نعم، هنري...

سكتت قليلاً وهي تفكر بزوجها الراحل، ثم تمتمت: منذ زمن طويل، طويل جداً... لم يكن قد مرّ على زواجنا سوى خمس سنوات عندما مات. أصيب بذات الرئة في كلتا رئتيه. كنا سعيدَين؛ نعم، سعيدين جداً، ولكن تلك السعادة بدت -على نحو ما- وكأنها غير واقعية. كنت أنا فتاة غريبة جادة لم تعركني السنون، كان رأسي ممتلئاً بالأفكار والتعلق بالأبطال ولم أكن واقعية.

تمتمت ماري: لا بد أنك شعرت بوحدة شديدة بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ آه، نعم؛ شعرت بوحدة فظيعة. كنت في السادسة والعشرين، وأنا الآن فوق الستين. إنه زمن طويل يا عزيزتي، زمن طويل طويل.

ثم قالت فجأة بمرارة وسرعة: والآن أتعرض لهذا!

- مرضك؟

- نعم. إن السكتة الدماغية شيء كنتُ أخشاه دوماً، بكل ما تحمله من إهانة! أُغسَل ويُعتنَى بي كطفلة! إنني عاجزة عن فعل شيء لنفسي، وهذا يدفعني إلى الجنون. إن الممرضة أوبرايان طيبة القلب، سأعترف لها بذلك. لا تهتم كثيراً لصياحي بها، وهي ليست أغبى من معظم بنات مهنتها، ولكنني أحس بفارق كبير عندما تكونين أنت هنا يا ماري.

احمرّ وجه الفتاة وقالت: أحقاً؟ إنني... إنني سعيدة جداً بذلك يا سيدة ويلمان.

قالت لاورا ويلمان بذكاء: أنت قلقة، أليس كذلك؟ بشأن المستقبل. اتركي ذلك لي يا عزيزتي. سأحرص على أن يكون لديك من الوسائل ما تستطيعين معه العيش باستقلالية وتولي مهنة مناسبة. ولكن اصبري قليلاً، فوجودك هنا يعني لي الكثير.

- آه يا سيدة ويلمان، بالطبع، بالطبع! ما كنتُ لأتركك مقابل الدنيا كلها. إن كنتِ تريدينني...

- إنني أريدك فعلاً.

كان صوتها عميقاً بشكل غير عادي، ثم أكملت تقول: إنك... إنك تماماً كابنة لي يا ماري. لقد رأيتك تكبرين هنا في هَنتربيري منذ أن كنت طفلة صغيرة تَحْبين، ورأيتك تكبرين لتصبحي فتاة جميلة. أنا فخورة بك يا طفلتي، وآمل أن أكون قد فعلت ما هو أفضل لك.

قالت ماري بسرعة: إن كنت تعنين أنك بطيبتك معي وبتعليمك

إياي تعليماً فوق... فوق مستواي، إن كنت تظنين أن ذلك قد جعلني لا أشعر بالقناعة والرضا أو أنه قد أمدَّني بما يسميه أبي أفكاراً أرستقراطية مترفعة، فإن ذلك كله ليس صحيحاً في الواقع. أنا فقط ممتنة جداً، هذا كل ما في الأمر. ولئن كنتُ متلهفة على البدء بكسب عيشي فما ذلك إلاّ لأنني أشعر بهذا الواجب. لا أحب أن يُقال إنني كنت متطفلة عليك.

قالت لورا ويلمان وقد احتدّ صوتها فجأة: هذا ما كان جيرارد يضعه في رأسك إذن؟ لا تُلقي بالاً لأبيك يا ماري. لم تكن هناك أبداً (ولن تكون) مسألة تطفل منك عليّ! إنني أطلب منك البقاء لبعض الوقت لمصلحتي أنا وحدي. سينتهي الأمر قريباً، ولو أنهم تصرفوا كما يجب لأمكن لحياتي أن تنتهي الآن دون تأخير، دون الحاجة إلى كل هذا الهراء المُطوَّل والممرضات والأطباء.

- آه، لا يا سيدة ويلمان. إن الدكتور لورد يقول إن بوسعك أن تعيشي سنوات طويلة.

- أشكرك، لكنني لستُ حريصة على ذلك أبداً. لقد أخبرته قبل أيام بأن كل ما عليّ فعله لو كنتُ في دولة متحضرة حقاً هو أن أُسِرَّ له بأنني أودّ إنهاء حياتي، وعندها من شأنه أن ينهيها دون ألم بعقار رائع ما. ثم قلتُ له: ولو كانت لديك الشجاعة يا دكتور لفعلت ذلك على أية حال.

صاحت ماري: آه! وماذا قال؟

- اكتفى ذلك الشاب بأن ضحك مني يا عزيزتي، وقال إنه لن يُجازف بتعريض نفسه للشنق. قال: "لو كنتِ قد تركتِ لي ثروتك لاختلف الأمر بالطبع يا سيدة ويلمان". شاب وقح شقي! ولكنني

أحبه، فزياراته تحسّن وضعي أكثر مما تحسنه أدويته.

- نعم، إنه لطيف جداً. إن الممرضة أوبرايان تحترمه كثيراً، وكذلك الممرضة هوبكنز.

- كان على هوبكنز أن تمتلك عقلاً أكبر في مثل سنها. أما بالنسبة لأوبرايان فهي تتصنع الابتسام وتُلقي شرائطها الطويلة تلك كلما اقترب منها.

- مسكينة الممرضة أوبرايان.

قالت السيدة ويلمان بمحبة: إنها ليست سيئة حقاً. ولكن كل الممرضات يزعجنني، يحسبن دوماً أنك ستحبين شرب «كوب رائع من الشاي» في الخامسة صباحاً!

سكتت قليلاً ثم قالت: ما هذا؟ أهي السيارة؟

نظرت ماري من النافذة وقالت: نعم، السيارة. لقد وصلت الآنسة إلينور والسيد روديريك.

-٢-

قالت السيدة ويلمان لابنة أخيها: إنني سعيدة جداً يا إلينور بشأنك أنت ورودي.

ابتسمت إلينور لها وقالت: هذا ما توقعته منك يا عمة لاورا.

قالت العجوز بعد لحظة تردد: إنك مهتمة به، أليس كذلك يا إلينور؟

ارتفع حاجبا إلينور الرقيقان وقالت: بالطبع.

قالت لاورا ويلمان بسرعة: ينبغي أن تسامحيني يا عزيزتي، فأنت شديدة التحفظ ومن الصعب معرفة ما تفكرين أو تشعرين به. عندما كنتما صغيرين رأيتُ أنك ربما بدأت تهتمين برودي كثيراً...

ارتفع حاجبا إلينور الرقيقان مرة أخرى وقالت: كثيراً؟

أومأت العجوز بالإيجاب وقالت: نعم. ليس من الحكمة أن يهتم المرء كثيراً. أحياناً تقوم الفتاة الصغيرة بذلك تحديداً، لذلك سعدتُ عندما ذهبتِ إلى ألمانيا لتحضّري نفسك للحياة الاجتماعية. وبعدها، عندما عُدتِ بدا أنك غير مهتمة به أبداً، وقد شعرت بالحزن لذلك أيضاً! إنني عجوز مُتعِبة يصعب إرضائي! ولكنني تخيلتُ دوماً أنكِ ذات عواطف حادة عميقة، ذات مزاج من ذلك النوع الذي يسري في عروق عائلتنا، وهو مزاج لا يُسعد صاحبه كثيراً. ولكن عندما عُدتِ من الخارج كي تبدي عدم الاكتراث برودي شعرت بأسف لذلك لأنني كنت آمل دوماً أن تبقيا معاً. وها أنتما الآن معاً، فكل شيء على ما يرام إذن. هل أنت مهتمة به حقاً؟

قالت إلينور بجدية: إنني مهتمة برودي لدرجة كافية، ولكن ليس كثيراً جداً.

أومأت السيدة ويلمان باستحسان وقالت: أظنك ستكونين سعيدة إذن. إن رودي بحاجة إلى الحب، ولكنه لا يحب العواطف العنيفة الجيّاشة، ومن شأنه أن يهرب من نزعات التملك. إن كان رودي يحبك أكثر بقليل مما تحبينه فسيكون ذلك أفضل.

قالت إلينور بتأثر: إنك تعرفين رودي جيداً!

قالت لاورا بحدّة: أنت منزعجة يا طفلتي. هل ثمة مشكلة؟

- لا، لا، لا شيء.

- لقد رأيتِ أنني كنتُ في حديثي رخيصة بعض الشيء، أليس كذلك؟ إنك يا عزيزتي شابة وحساسة، والحياة نفسها رخيصة بعض الشيء.

قالت إلينور بأثر من المرارة في صوتها: أحسبها كذلك.

- يا طفلتي! أنت فعلاً تعيسة، أليس كذلك؟ ما الأمر؟

- لا شيء، لا شيء إطلاقاً.

نهضت وذهبت نحو النافذة، ثم قالت وهي تلتفت نصف التفاتة: أخبريني بصدق يا عمة لاورا، أتظنين أن الحب أمر مُفرح جميل؟

تجهم وجه السيدة ويلمان وقالت: بالمعنى الذي تقصدينه يا إلينور؟ لا. ربما لم يكن مفرحاً؛ فالاهتمام العاطفي الشديد بإنسان آخر يجلب من الحزن أكثر مما يجلب من الفرح. ولكن ومع ذلك فإن المرء لا يمكن أن يبقى دون هذه التجربة. إن الذي لم يحبّ حقاً لم يعِش حقاً.

أومأت الفتاة برأسها وقالت: نعم؛ إنك تفهمين ذلك. لقد عرفتِ كيف يكون هذا الأمر.

استدارت فجأة وفي عينيها نظرة تساؤل وقالت: عمة لاورا...

انفتح الباب ودخلت الممرضة أوبرايان ذات الشعر الأحمر وقالت: سيدة ويلمان، ها قد جاء الدكتور لورد لرؤيتك.

-٣-

كان الدكتور لورد شاباً في الثانية والثلاثين من عمره، ذا شعر أصفر محمَرّ ووجه منمَّش لا يخلو من وسامة رغم قبحه وفكّ مربع الشكل، أما عيناه فكانتا زرقاوين فاتحتين كلّهما حدّة ونفاذ.

قال الطبيب: صباح الخير يا سيدة ويلمان.

- صباح الخير يا دكتور لورد. هذه ابنة أخي، الآنسة كارليسل.

ظهر إعجاب واضح على وجه الطبيب الشفاف وقال: تشرّفنا.

مضت السيدة ويلمان قائلة: لقد جاءت إلينور مع ابن أخي زوجي لكي يسرّيا عني.

قال الطبيب: رائع؛ هذا ما تحتاجينه تماماً. أنا واثق أن ذلك سيفيدك كثيراً يا سيدة ويلمان.

كانت عيناه ما تزالان معلَّقتين بإلينور بإعجاب صريح. قالت إلينور وهي تتحرك باتجاه الباب: ربما استطعتُ رؤيتك قبل أن تذهب يا دكتور لورد؟

- آه، نعم، بالطبع.

خرجت وأغلقت الباب خلفها، وتقدم الدكتور لورد من السرير والممرضة أوبرايان خلفه. قالت السيدة ويلمان وهي ترمش بعينيها: هل ستبدأ بطقوسك المعتادة يا دكتور: النبض والتنفس والحرارة؟ يا لكم من مُدَّعين يا معشر الأطباء!

قالت الممرضة أوبرايان وهي تتنهد: آه يا سيدة ويلمان، يا لها من كلمة تقولينها للطبيب!

قال الدكتور لورد مداعباً: إن السيدة ويلمان تعرف خباياي أيتها الممرضة! ومع ذلك فإن عليّ أن أقوم بعملي المعتاد يا سيدة ويلمان. مشكلتي أنني لم أتعلم قط الطريقة الصحيحة في التصرف مع المريض.

- إن طريقتك جيدة لا غبار عليها، بل إنك فخور بها عملياً.

قهقه بيتر لورد وقال: هذا ما تقولينه أنت.

وبعد طرح بعض الأسئلة وسماع إجاباتها عاد الدكتور لورد بظهره إلى ظهر كرسيه وابتسم لمريضته وقال: حسناً، إنك تسيرين بشكل رائع.

- بحيث يمكنني أن أنهض وأمشي حول البيت خلال بضعة أسابيع؟

- ليس بهذه السرعة.

- نعم أيها الدعيّ! ما فائدة عيشي ممددة هكذا، يُعنى بي كطفل صغير؟

قال الطبيب: وما فائدة الحياة على كل حال؟ هذه هي المشكلة الحقيقية. هل سبق لك أن قرأت عن ذلك القفص الذي اخترعوه للمساجين في القرون الوسطى؟ ليس بوسعك الوقوف أو الجلوس أو التمدد فيه، ومن شأن الإنسان أن يظن أن أيّ امرئ يُحكم عليه بدخوله سيموت خلال أسابيع قليلة. ولكن أبداً، لقد عاش أحدهم في ذلك القفص الحديدي لمدة ستة عشر عاماً، ثم أُطلق سراحه وعاش بعد ذلك إلى أرذل العمر.

قالت لاورا ويلمان: ما المغزى من هذه القصة؟

- المغزى هو أن لدى المرء غريزة للعيش. لا يعيش المرء لأن عقله وافق على الحياة. إن من نقول عنهم: "إن من الأفضل لهم أن يموتوا" لا يريدون الموت، وأولئك الذين يمتلكون -ظاهرياً- كل ما يمكن أن يُعاش لأجله نراهم يتركون أنفسهم يذبلون حتى الموت لأنهم يفتقرون إلى طاقة الكفاح والمقاومة.

- استمر.

- لا يوجد ما أضيفه. أنت واحدة من أولئك الذين يريدون العيش حقاً، بغضّ النظر عما تقولينه في ذلك! وإذا ما أراد جسدك أن يحيا فلا فائدة من أن ينطلق لسانك في قول ما يُخالف ذلك.

قالت السيدة ويلمان في تغيير سريع للموضوع: كيف ارتياحك للمنطقة هنا؟

قال الطبيب مبتسماً: إنها تناسبني بشكل رائع.

- أليست مرهِقة قليلاً بالنسبة لشاب مثلك؟ ألا تريد التخصص؟ ألا تجد العمل كطبيب عام في الريف مسألة مملة؟

هز الطبيب رأسه المحمَرّ وقال: لا أجده كذلك، فأنا أحب عملي. أحب الناس، وأحب الأمراض العادية الشائعة. لا أريد حقاً اكتشاف فيروسات نادرة لمرض غامض. إنني أحب الحصبة والجدري وغير ذلك من الأمراض البسيطة، أحب رؤية الكيفية التي تختلف بها ردود أفعال كل جسم تجاه تلك الأمراض، أحب أن أرى إن كان بوسعي تحسين وسائل المعالجة التقليدية. مشكلتي أنني لا أملك أي طموح أبداً، لذلك سأبقى هنا حتى أشيخ ويبدأ الناس بالقول: لقد كان لدينا دوماً الدكتور لورد بالطبع، وهو عجوز لطيف ولكن وسائله قديمة الطراز تماماً، وربما كان من الأفضل أن

نستدعي الدكتور الجديد ذا الوسائل الحديثة جداً...

- همم؛ يبدو أنك تفهم الأمر كله؟

نهض بيتر لورد وقال: حسناً، عليّ أن أذهب.

- أظن أن ابنة أخي تريد الحديث معك. وبالمناسبة، ما رأيك فيها؟ فأنت لم ترها من قبل.

احمرّ وجه الدكتور لورد فجأة حتى كاد اللون يصل إلى حاجبيه، ثم قال: آه، إنها جميلة جداً، أليس كذلك؟ وأظنها ذكية أيضاً.

سرح تفكير السيدة ويلمان وقالت لنفسها: "إنه شاب صغير"، أما بصوت عالٍ فقالت: ينبغي عليك أن تتزوج.

-٤-

كان رودي قد تجول في الحديقة، ثم عبر المرجة العشبية العريضة ومشى على ممر مرصوف ليدخل حديقة المطبخ المسيَّجة. كانت حديقة مرتبة بشكل يدل على عناية جيدة، وتساءل إن كان سيُقدَّر له ولإلينور العيش في «هَنتربيري» ذات يوم. وافترض أنهما سيعيشان فيه، فمن شأنه شخصياً أن يحب ذلك لأنه يفضل حياة الريف، ولكنه شكّ في موقف إلينور، إذ ربما كانت تفضل العيش في لندن.

من الصعب أن تعرف موقع قدمك مع إلينور؛ فهي لا تكشف الكثير مما تفكر أو تشعر به بشأن الأمور. وهو يحب ذلك فيها، إذ

إنه يكره أولئك الذين يسهبون في شرح أفكارهم ومشاعرهم للمرء، الذين يعتبرون رغبة الناس في سماع ومعرفة دواخلهم مسألة تدخل في باب المُسلَّمات. لقد كان التحفظ دوماً أكثر إثارة ومتعة.

فكر قائلاً لنفسه: إن إلينور كاملة حقاً. ليس فيها أبداً ما يشكل نشازاً أو حرجاً، فهي جميلة تسرّ الناظر، وذكية تمتع المتحدث، ورفقتها عموماً من أمتع ما تكون الرفقة.

ثم فكر مع نفسه برضا عن الذات: إنني شديد الحظ بالحصول عليها. لا أدري ما الذي رأته في رجل مثلي.

ذلك أن روديريك ويلمان -رغم شدة تدقيقه وصعوبة إرضاء ذوقه- لم يكن مغروراً، وقد رأى غرابة فعلاً في موافقة إلينور على الزواج به.

إن الحياة ممدودة أمامه بشكل يبعث على الرضا، فالمرء يعرف الآن أين يقف بالضبط، وهو أمر كان دوماً نعمة كبرى. افترض أنه وإلينور سيتزوجان عما قريب، هذا إذا أرادت إلينور ذلك. ربما فضّلت تأجيل الموضوع قليلاً. لا ينبغي له استعجالها، فسوف يعانيان في البداية من نقص بسيط في المال، رغم عدم وجود ما يُقلق في الأمر. تمنى -مُخلصاً- أن لا تموت العمة لاورا وأن تعيش لفترة طويلة قادمة، فهي عزيزة ولطالما كانت طيبة معه، وقد استقبلته هنا في إجازاته وكانت تهتم دوماً بما يفعله.

تجنب عقلُه بشيء من الخوف فكرة موتها الفعلي. وكان عقله يتجنب دائماً التفكير بأي مكروه حقيقي، فهو لا يحب تخيل أي مكروه بشكل واضح مباشر، ولكن، ولكن بعد ذلك... سيكون من المفرح العيش هنا، لا سيما مع وجود الكثير من المال لإبقاء

المنزل والصرف عليه. تساءل كيف ستترك عمته إرثها دون أن يعني ذلك أهمية كبرى للأمر. إن هناك نساء يُعلّقن أهمية على مسألة وجود المال باسم الرجل أو باسم المرأة، ولكن هذا لا ينطبق على إلينور، فلديها الكثير من الحنكة وهي لا تهتم كثيراً بالمال بحيث تجعل منه مشكلة.

فكر قائلاً لنفسه: ليس هناك ما يُقلق... مهما حدث.

خرج من الحديقة المُسيَّجة منْ بوابتها عند الجهة البعيدة، ومن هناك تمشى إلى الغابة الصغيرة حيث كانت أزهار النرجس تشهد فترة الربيع، رغم أن وقتها قد فات بالطبع. ولكن الضوء الأخضر كان رائعاً حيث تتخلل أشعة الشمس أغصان الشجر. وللحظة فقط داهمه شعور غريب بالتململ والقلق، تعكيرٌ لهدوئه السابق. شعر أن نفسه تقول: هناك شيء، شيء لم أحصل عليه، شيء أريده.

ومع الضوء الذهبي الأخضر ورقّة الهواء جاء تسارع في النبض، وفورة في الدم، ونفاد صبر مفاجئ. ثم جاءت نحوه فتاة من بين الأشجار، فتاة ذات شعر فاتح براق وبشرة محمرّة كالورد.

فكر قائلاً لنفسه: ما أجملها! جمال يفوق الوصف.

وقف ساكناً كما لو أنه تجمد مكانه. شعر أن العالم يدور وأنه قد انقلب رأساً على عقب، أو أنه قد جُنَّ على نحو مفاجئ. ووقفت الفتاة فجأة، ثم تقدمت حتى وصلت إلى حيث وقف مشدوهاً فاغراً فمه بشكل سخيف أشبه بسمكة. قالت بقليل من التردد: ألا تتذكرني يا سيد روديريك؟ لقد مرّ زمن طويل بالطبع. أنا ماري جيرارد التي تسكن بيت البواب.

قال رودي: آه، أنت ماري جيرارد؟

- نعم.

ثم أضافت بشيء من الخجل: لقد تغيرتُ طبعاً منذ أن رأيتني آخر مرة.

- نعم، لقد تغيرتِ. ما... ما كنتُ لأميّزك.

وقف يحدق إليها، ولم يسمع صوت خطوات خلفه. ولكن ماري سمعتها فالتفتت.

وقفت إلينور دون حراك للحظات ثم قالت: مرحباً يا ماري.

- كيف حالك يا آنسة إلينور؟ تُسعدني رؤيتك. لقد كانت السيدة ويلمان تتطلع لقدومك.

قالت إلينور: نعم، فقد مضى وقت طويل. إنني... لقد أرسلتني الممرضة أوبرايان للبحث عنك، فهي تريد رفع السيدة ويلمان وتقول إنك تساعدينها في ذلك عادة.

- سأذهب فوراً.

تحركت ثم انطلقت راكضة، فيما وقفت إلينور تنظر إليها. كانت ماري تركض جيداً والرشاقة تبدو في كل حركة من حركاتها.

همس رودي بكلمات غير مفهومة، ولم تُجبه إلينور بل وقفت ساكنة تماماً للحظات ثم قالت: لقد اقترب موعد الغداء، الأفضل أن نعود.

ثم سارا جنباً إلى جنب باتجاه البيت.

- آه، هيا يا ماري! إنها غريتا غاربو، وهو فلم ضخم يدور حول باريس وقصته كتبها أفضل المؤلفين. لقد تم تحويل القصة إلى أوبرا منذ زمن.

- هذا لطف بالغ منك يا تيد، ولكنني لا أريد الذهاب.

قال تيد بيغلاند بغضب: لا أستطيع فهمك هذه الأيام يا ماري. أنت مختلفة، مختلفة تماماً.

- لا، لستُ مختلفة يا تيد.

- بل مختلفة، وأظن ذلك بسبب سفرك إلى تلك المدرسة الكبرى وإلى ألمانيا. لقد أصبحت أرقى منا كثيراً الآن.

قالت بحماسة: هذا ليس صحيحاً يا تيد، أنا لست كذلك.

نظر إليها الشاب ذو البنية القوية نظرة عميقة رغم غضبه، ثم قال: نعم، أنت كذلك. أنت أشبه بسيدة أرستقراطية يا ماري.

قالت بمرارة مفاجئة: ولكن «أشبه» هذه لا تفيد كثيراً، أليس كذلك؟

- بلى، لا أحسبها تفيد كثيراً.

قالت ماري بسرعة: وعلى كل حال فمَن يأبهُ بمثل هذه الأمور في أيامنا هذه، من يأبه بالألقاب والرتب الاجتماعية؟

وافقها تيد قائلاً: لم تعد تهمّ كما كانت سابقاً. صحيح، ولكن يبقى الإحساس... يا إلهي! إنك تبدين كدوقة أو كونتيسة يا ماري.

- ليس في هذا القول ما يغني أو يُشبع من جوع. لقد رأيتُ كونتيسات في ثياب بالية!

- إنك تعرفين ما أعنيه.

اقتربت منهما امرأة مهيبة المظهر متناسقة الجسم ترتدي ثياباً سوداء جميلة، نظرت عيناها إليهما بحدّة فتنحّى تيد جانباً خطوة أو اثنتين وقال: طاب مساؤك سيدة بيشوب.

أمالت السيدة بيشوب رأسها برقّة وقالت: طاب مساؤك يا تيد بيغلاند، طاب مساؤك يا ماري.

ثم مرّت بهما كسفينة نشرت كامل أشرعتها.

نظر إليها تيد باحترام وهي تبتعد، فيما تمتمت ماري: هذه حقاً أشبه بدوقة!

- نعم؛ إن لها سَمْتاً مَهيباً، وهي تربكني كلما رأيتها.

قالت ماري ببطء: إنها لا تحبني.

- هراء يا فتاتي.

- بل هو صحيح، لا تحبني. إنها تُوجِّه لي دائماً عبارات حادة.

قال تيد وهو يومئ برأسه بحكمة: إنها الغيرة، هذا كل ما في الأمر.

قالت ماري بارتياب: ربما كان الأمر كذلك.

- بل هو كذلك، ثقي بكلامي. لقد كانت مدبرة منزل في هَنتربيري لسنوات طويلة، تأمر وتحكم الجميع، والآن أخذت السيدة

ويلمان تحبك وهذا يُخرجها خارج الحلبة! هذا كل ما في الأمر.

قالت ماري وعلى جبينها أثر بسيط من القلق: إنه لأمر سخيف مني، ولكني لا أتحمل أن يكرهني أحد؛ أريد أن يحبني الناس.

- من المؤكد أن من لا يحبك سيكون امرأة يا ماري، من أولئك العوانس الغيورات اللاتي يرينك جميلة جداً.

- أظن أن الغيرة فظيعة.

قال تيد ببطء: ربما، ولكنها موجودة بالتأكيد. لقد شاهدت فلماً في سينما أليدور في الأسبوع الماضي، وكان حول واحد من أصحاب الملايين أهمل امرأته فتظاهرت بأنها ترتب له مقلباً قذراً، وكان هناك رجل آخر...

ابتعدت ماري وقالت: آسفة يا تيد، يجب أن أذهب؛ لقد تأخرت.

- إلى أين تذهبين؟

- سأشرب الشاي مع الممرضة هوبكنز.

قطب تيد وجهه وقال: هذا ذوق غريب. فهذه المرأة أكبر نمّامة في القرية وهي تدسّ أنفها الطويل في كل أمر!

- إنها لطيفة معي دائماً.

- أنا لا أقول إنها مؤذية، ولكنها تتكلم.

- وداعاً يا تيد.

ثم سارعت بالمغادرة تاركة الشاب يقف محدقاً وراءها بغيظ.

-٦-

كانت الممرضة هوبكنز تسكن بيتاً صغيراً عند نهاية القرية، وكانت قد وصلت لتوّها وأخذت تفك شريط القبعة تحت ذقنها عندما دخلت ماري. قالت الممرضة: آه، ها أنت. لقد تأخرتُ قليلاً. لقد ساءت حالة السيدة كالديكوت العجوز من جديد وجعلتني أتأخر عن جولتي. لقد رأيتك مع تيد بيغلاند عند نهاية الشارع.

قالت ماري بشيء من الفتور: نعم.

رفعت الممرضة هوبكنز عينيها بتيقظ من حيث كانت منحنية لتُشعل موقد الغاز تحت الإبريق، وتحرك أنفها الطويل لاإرادياً وقالت: أكان يقول لك شيئاً معيناً يا عزيزتي؟

- لا، فقط دعاني للذهاب إلى السينما.

قالت الممرضة بسرعة: فهمت. إنه شاب لطيف بالطبع، ولا بأس بعمله في المرأب، ووالده يربح أكثر من معظم الفلاحين في المنطقة. ومع ذلك فلا يبدو أنك قد خُلقت لتكوني زوجة مناسبة لتيد بيغلاند يا عزيزتي، ولا سيما مع تعليمك العالي. وكما قلتُ لك، فإنني لو كنتُ مكانك لاخترت التدليك عندما يحين الوقت، فهي مهنة تتيح لك التجول ورؤية الناس، ويكون وقتك ملكاً لك تقريباً.

- سأفكر في الأمر. لقد تحدثت السيدة ويلمان معي بالأمس وكانت شديدة اللطف. لقد كان الأمر كما قلتِ تماماً؛ فهي لا تريدني أن أذهب الآن تحديداً. قالت إنها ستفتقدني، وقد طلبت مني أن لا أقلق بشأن المستقبل قائلة إنها تنوي مساعدتي.

قالت الممرضة هوبكنز بارتياب: دعينا نأمل أن تكون قد وضعت ذلك كتابة، فالمرضى غريبو الأطوار.

سألت ماري: أتظنين أن السيدة بيشوب تكرهني حقاً أم أنني أتوهم؟

فكرت الممرضة لحظة ثم قالت: لا بد من القول إنها تُظهر النكد والمرارة. إنها من اللاتي لا يحببن رؤية الشابات يتمتعن بوقتهن أو يُعنى بهن، وربما رأت أن السيدة ويلمان تحبك أكثر من اللازم فأغضبها ذلك.

ثم ضحكت بمرح وقالت: ما كنتُ لأقلق لو كنتُ مكانك يا عزيزتي ماري. هل لك أن تفتحي ذلك الكيس الورقي؟ إن فيه قطعتين من الكعك المُحلّى.

* * *

الفصل الثالث

-١-

«تعرضت عمتك لسكتة دماغية أخرى الليلة الماضية. لا داعي للقلق الآن ولكني أرى حضوركم إن أمكن. لورد».

-٢-

بمجرد استلام إلينور لبرقية الدكتور لورد هذه اتصلت هاتفياً برودي، وها هما الآن في القطار معاً يتجهان إلى هَنتربيري.

لم تكن إلينور قد رأت رودي كثيراً في الأسبوع الذي انقضى منذ زيارتهما الأخيرة، وفي المناسبتين القصيرتين اللتين التقيا فيهما كان ثمة نوع غريب من التحفظ بينهما. كان رودي قد أرسل لها أزهاراً، باقة ضخمة من الورد ذي السيقان الطويلة، وهو أمر لم يكن من عادته. وفي عشاء تناولاه معاً بدا رودي أكثر انتباهاً لها وعناية بها من المعتاد، إذ أخذ يسألها عما تفضله من طعام وشراب وبدا أكثر أدباً في معاونتها على خلع وارتداء معطفها. ورأت إلينور أن ذلك يشبه قليلاً تمثيله لدور في مسرحية، دور الخطيب المُحِب!

وكانت قد قالت له: لا تكن غبياً، ما من شيء غير طبيعي. إنك تتخيل أشياء لا وجود لها، وذلك من عقلك الاستحواذي الموسوس!

ربما كان أسلوبها معه قد اتّسم بشيء ضئيل من البُعد والبرود أكثر قليلاً من المعتاد. والآن، في ظل هذا الطارئ المفاجئ مرّ التحفظ وتكلما معاً بشكل طبيعي. قال رودي: العزيزة المسكينة، لقد كانت بحالة جيدة عندما رأيناها المرة الماضية.

قالت إلينور: إنني قلقة جداً عليها. أعرف كم كرهت مرضها، وأحسبها ستكون الآن أكثر عجزاً وستمقت هذا الوضع تماماً! إن المرء يشعر فعلاً -يا رودي- بأن الناس ينبغي أن يتم تحريرهم... إن هم أرادوا ذلك حقاً.

- أوافقك الرأي. إننا ننقذ الحيوانات من آلامها، ولكني أحسب أن هذا لا يُطبق على البشر لسبب بسيط، وهو أن الطبيعة البشرية -كما هو حالها- ستدفع البعض إلى قتل أقاربهم من أجل المال في وقت ربما لا يكون فيه هذا البعض في حالة سيئة حقاً.

قالت إلينور متأملة: سيكون ذلك بأيدي الأطباء طبعاً.

- ربما كان الطبيب محتالاً.

- إن بوسعك الثقة برجل كالدكتور لورد.

قال رودي دون اهتمام: نعم، يبدو مستقيماً تماماً. إنه رجل لطيف.

كان الدكتور لورد ينحني فوق السرير والممرضة أوبرايان تتحرك خلفه. كان يحاول -وقد تغضن جبينه- فهم الأصوات المبهمة الصادرة من فم مريضته. قال: نعم، نعم. لا تنفعلي، على مهلك. ارفعي يدك اليمنى قليلاً عندما تقصدين قول نعم. أهناك شيء يقلقك؟

تلقى إشارة تؤكد سؤاله.

- أهو شيء عاجل؟ شيء تريدينه أن يُنجَز؟ لنرسل في طلب أحد؟ الآنسة كارليسل والسيد ويلمان؟ إنهما في طريقهما إلى هنا.

حاولت السيدة ويلمان ثانية أن تتكلم بارتباك، وأصغى الدكتور لورد بانتباه.

- لقد أردتِ مجيئهما، ولكن هذا ليس المقصود؟ أحد غيرهما؟ قريب؟ لا؟ مسألة تخص العمل؟ فهمت، شيء له علاقة بالمال؟ محامٍ؟ هذا صحيح، أليس كذلك؟ تريدين رؤية محاميك؟ تريدين إعطاءه تعليمات بخصوص أمر ما؟ لا، لا بأس بذلك. ابقي على هدوئك فهناك متسع من الوقت. ما هذا الذي تقولينه... إلينور؟

التقط الاسم الذي قيل غمغمة وقال: هي تعرف محاميك؟ جيد؛ ستكون هنا خلال نصف ساعة. سأخبرها بما تريدين، وسآتي معها ونرتب كل شيء. والآن لا تقلقي، دعي الأمر كله لي وسأتأكد من سير الأمور كما تريدين.

وقف لحظة يراقبها وهي تسترخي، ثم ابتعد بهدوء وخرج

إلى فسحة الدّرَج خارج الغرفة. تبعته الممرضة أوبرايان فيما كانت الممرضة هوبكنز تصعد الدرج لتوّها، وأومأ لها الطبيب فقالت: مساء الخير يا دكتور.

- مساء الخير.

ذهب مع الاثنتين إلى غرفة الممرضة أوبرايان المجاورة وأعطاهما تعليماته بأن تبقى الممرضة هوبكنز ليلاً وتتولى المسؤولية مع زميلتها. ثم قال: سيتعين عليّ غداً الحصول على ممرضة مقيمة أخرى. فظيع مرض الخُناق المنتشر في ستامفورد، فقد جعل المستشفيات في حاجة ماسة إلى الممرّضات.

بعد أن أكمل إعطاء تعليماته التي لاقت كل إصغاء واحترام (وهو ما كان يسعده أحياناً) نزل الدكتور لورد إلى الطابق الأرضي مستعداً لاستقبال قريبَي السيدة ويلمان اللذين أنبأته ساعته بأن موعد وصولهما قد أزف. وفي الصالة التقى بماري جيرارد. كان وجهها شاحباً متلهفاً وسألت: أهي أفضل الآن؟

- أستطيع أن أضمن لها ليلة هادئة، هذا كل ما يمكن فعله تقريباً.

قالت ماري بقلب كسير: يبدو الأمر قاسياً جداً، مُجحفاً جداً.

أومأ برأسه بكل تعاطف وقال: "نعم، يبدو الأمر هكذا فعلاً في بعض الأحيان. إنني أرى..."، ثم توقف وقال: ها هي السيارة.

خرج إلى القاعة، وركضت ماري إلى الطابق العلوي.

هتفت إلينور وهي تدخل غرفة الجلوس: أهي في حالة سيئة؟

بدا رودي شاحباً خائفاً، فقال الطبيب عابساً: أخشى أن النبأ

سيكون صدمة لكما. لقد شُلَّت شللاً بالغاً وكلامها لا يكاد يُفهَم، وهي -بالمناسبة- قلقة على شيء ما. الأمر يتعلق بالإرسال في طلب محاميها. أتعرفين من هو يا آنسة كارليسل؟

قالت إلينور بسرعة: السيد سيدون في ساحة بلومزبيري. ولكنه لن يكون هناك في مثل هذه الساعة من المساء، ولا أعرف عنوان بيته.

قال الدكتور لورد مُطَمْئِناً: سيكون لدينا الكثير من الوقت حتى غد، ولكني حريص على إراحة ذهن السيدة ويلمان بأسرع ما يمكن. هل لك أن تأتي معي إليها الآن يا آنسة كارليسل؟ أظن أن بوسعنا معاً تطمينها.

- بالطبع، سأصعد معك فوراً.

قال رودي بشيء من الأمل: ألا آتي معكما؟

شعر وكأنه خجِل من نفسه قليلاً، ولكن كان لديه خوف من الصعود إلى غرفة المريضة، من رؤية العمة لاورا متمددة هناك خرساء عاجزة.

طمأنه الدكتور لورد بسرعة قائلاً: ليست هناك أدنى حاجة لذلك يا سيد ويلمان. من الأفضل عدم وجود الكثير من الناس في الغرفة.

بدا الارتياح واضحاً على رودي. وصعد الدكتور لورد مع إلينور إلى الطابق العلوي، وكانت الممرضة أوبرايان مع المريضة.

كانت السيدة ويلمان تتمدد وكأنها في حالة ذهول وهي تتنفس بعمق وصوت مُجهد، فوقفت إلينور تنظر إليها وقد صُدمت بالوجه

المشدود المتقبِّض. وفجأة ارتعش الجفن الأيمن للسيدة ويلمان وانفتح، وبدا تغير طفيف على وجهها إذ ميّزت إلينور. حاولت الكلام: إلينور...

كان من شأن الكلمة أن تبدو بلا معنى لأي امرئ لم يحزر ما أرادت قوله. وقالت إلينور بسرعة: أنا هنا يا عمة لاورا. أأنت قلقة على شيء؟ تريدينني أن أرسل في طلب السيد سيدون؟

صدر صوت آخر من تلك الأصوات الخشنة العالية، وحزرت إلينور المعنى فقالت: ماري جيرارد؟

وببطء تحركت اليد اليمنى مرتعشة بالإيجاب، وخرج صوت غرغرة طويلة من شفاه المريضة. قطب الدكتور لورد وإلينور حاجبيهما يائسين، وخرج الصوت مرة بعد مرة. ثم التقطت إلينور كلمة فقالت: بند في الوصية؟ أتريدين وضع بند لها في وصيتك؟ تريدين لها أن تأخذ بعض المال؟ فهمتُ يا عمتي الغالية لاورا. سيكون ذلك سهلاً جداً. سيأتي السيد سيدون غداً ويتم ترتيب كل شيء كما تريدين تماماً.

بدا أن المعذَّبة قد ارتاحت، وتلاشت نظرة الأسى من عينها المتوسّلة. أخذت إلينور يدها وشعرت بضغط ضعيف من أصابعها.

قالت السيدة ويلمان بجهد عظيم: أنت... كل... أنت...

قالت إلينور: نعم، نعم، اتركي كل شيء عليّ؛ سأشرف على تنفيذ كل ما تريدينه.

شعرت بضغط الأصابع ثانية، ثم ارتخت الأصابع وأطبق الجفنان.

وضع الدكتور لورد يده على ذراع إلينور وسحبها بلطف إلى خارج الغرفة، وعادت الممرضة أوبرايان لتجلس على كرسيها قرب السرير.

وفي أعلى الدرج في الخارج كانت ماري جيرارد تتحدث مع الممرضة هوبكنز، فتقدمت إلى الأمام بسرعة وقالت: آه، دكتور لورد، هل أستطيع الدخول إليها رجاء؟

أومأ برأسه موافقاً وقال: ولكن ابقي هادئة تماماً ولا تزعجيها.

دخلت ماري غرفة المريضة، وقال الدكتور لورد: لقد تأخر قطاركما في الوصول، فقد...

كانت إلينور قد التفتت لتنظر خلف ماري، وفجأة أحست بسكوته المفاجئ فالتفتت ونظرت إليه متسائلة. كان هو يحدق إليها وفي وجهه نظرة غريبة، فاحمرّت وجنتا إلينور وقالت بسرعة: عفواً، لم أسمعك. ماذا قلت؟

قال بيتر لورد ببطء: ماذا كنتُ أقول؟ لا أذكر. آنسة كارليسل، لقد كنتِ رائعة هناك.

قال ذلك بحرارة، ثم أكمل قائلاً: كنتِ سريعة الفهم، وتبعثين الطمأنينة كأفضل ما يُمكن توقعه منك.

أصدرت الممرضة هوبكنز صوت نشقة خافتة جداً من أنفها، وقالت إلينور: الغالية المسكينة، كم يزعجني أن أراها على هذا النحو.

- بالطبع، ولكنك لم تُظهري ذلك. لا بد أن لك سيطرة عظيمة على نفسك.

قالت إلينور وقد استقامت شفتاها تماماً: لقد تعلمت أن لا أُظهر مشاعري.

قال الطبيب ببطء: ومع ذلك فلا بد للقناع أن يسقط في بعض الأحيان.

كانت الممرضة هوبكنز قد اندفعت إلى الحمّام. قالت إلينور وهي ترفع حاجبيها الرقيقين وتنظر إليه تماماً: القناع؟

- إن الوجه البشري لا يعدو -في نهاية الأمر- أن يكون قناعاً بشكل أو بآخر.

- وتحته؟

- تحته يكون الرجل البدائي أو المرأة البدائية.

استدارت بسرعة ونزلت الدرج، وتبعها بيتر لورد متحيراً وجاداً على غير عادته. خرج رودي إلى الصالة لاستقبالهما وسأل بلهفة: حسناً، ما الأخبار؟

قالت إلينور: مسكينة، إن رؤيتها أمر مُحزن تماماً. لو كنتُ مكانك لما صعدتُ إليها ما لم... ما لم تطلبك هي.

قال رودي: هل أرادت شيئاً خاصاً؟

قال بيتر لورد: ينبغي أن أذهب الآن، فليس هناك المزيد مما أستطيع فعله حالياً. سأزورها غداً صباحاً. وداعاً يا آنسة كارليسل. لا تقلقي كثيراً.

أمسك بيدها للحظات، وكانت له قبضة مُطَمْئِنة مريحة على نحو غريب. ورأت إلينور أنه قد نظر إليها بشكل غريب كما لو... كما لو كان حزيناً عليها.

وحالما انغلق الباب خلف الطبيب أعاد رودي سؤاله فقالت إلينور: إن العمة لاورا قلقة بشأن مسائل معينة تتعلق بالعمل، وقد استطعتُ تهدئتها وإخبارها بأن السيد سيدون سيأتي غداً بالتأكيد. ينبغي أن نخابره قبل أي شيء آخر.

سأل رودي: أتريد كتابة وصية جديدة؟

- لم تقل ذلك.

- وماذا قا...

توقف في وسط السؤال. كانت ماري جيرارد تركض نزولاً على الدرج، وقد عبرت الصالة واختفت من الباب المؤدي إلى جناح المطبخ.

قالت إلينور بصوت أجش: نعم؟ ما الذي كنت تسأل عنه؟

قال رودي بغموض: أنا... ماذا؟ لقد نسيت سؤالي.

كان يحدق إلى الباب الذي دخلت منه ماري جيرارد. أطبقت إلينور قبضتَيها، وكان بوسعها أن تحس بأظافرها الطويلة المدبّبة تنخز لحم راحتَيها. وفكرت مع نفسها قائلة: لا يمكنني تحمل ذلك، لا يمكنني تحمله! هذا ليس خيالاً... إنه حقيقة. رودي، رودي، لا أستطيع فقدانك!

ثم فكرت: ما الذي رآه ذلك الرجل... الطبيب؟ ما الذي رآه في وجهي في الطابق العلوي؟ لقد رأى شيئاً. آه، يا إلهي، ما أفظع الحياة! ما أفظع الشعور بما أشعر به الآن! قل شيئاً أيها المغفل. تمالك نفسك!

أما بصوت عال فقالت بصوتها الهادئ: أنا لست جائعة يا

رودي. سأجلس مع العمة لاورا بحيث يمكن للممرضتين أن تتنزلا معاً.

قال رودي مذعوراً: وتتناولان العشاء معي؟

قالت ببرود: لن تعضك أي منهما!

- ولكن ماذا عنك؟ لا بد أن تأكلي شيئاً. لماذا لا نتعشى نحن أولاً ثم تأكلان بعد ذلك؟

- لا، الطريقة الأخرى أفضل.

أضافت اعتباطاً: "إنهما حساستان جداً". ثم فكرت: لا أستطيع الجلوس طوال فترة العشاء معه وحيدة، أتحدث وأتصرف كالمعتاد.

قالت بنفاد صبر: آه، دعني أرتب الأمور بطريقتي الخاصة.

* * *

الفصل الرابع

-١-

لم يكن مَن أيقظ إلينور صباح اليوم التالي مجرد خادمة عادية، بل أيقظتها السيدة بيشوب شخصياً وهي تمشي بجلال في ثيابها السوداء القديمة الطراز وتبكي دون حرج: آه يا آنسة إلينور، لقد مضت...

- ماذا؟

اعتدلت إلينور في سريرها.

- عمتك الغالية، السيدة ويلمان، سيدتي العزيزة... لقد توفيت وهي نائمة.

- العمة لاورا؟ توفيت؟!

حدقت إلينور وقد بدا أنها غير قادرة على استيعاب الأمر.

زاد بكاء السيدة بيشوب ونشجت قائلة: إن التفكير بذلك بعد كل هذه السنين! لقد قضيتُ هنا ثمانية عشر عاماً، ولكنها لا تبدو كذلك في الحقيقة.

قالت إلينور ببطء: إذن العمة لاورا ماتت في نومها بكل سلام؟ يا لها من نعمة بالنسبة لها!

ناحت السيدة بيشوب قائلة: ميتة مفاجئة جداً. لقد قال الطبيب إنه سيعودها ثانية هذا الصباح، وكان كل شيء يجري بشكل جيد.

قالت إلينور بشيء من الحدّة: لم تكن مفاجئة بالضبط. فهي مريضة منذ وقت طويل. إنني أشكر الله فقط لأنه أنقذها من مزيد من المعاناة.

قالت السيدة بيشوب والدموع في عينيها إن ذلك كان أمراً يستوجب الشكر بالفعل، ثم أضافت: مَن الذي سيخبر السيد روديريك؟

- أنا سأخبره.

ارتدت رداء على عجل وذهبت إلى باب غرفته فقرعته، فأجاب صوته قائلاً: تفضل.

دخلت وقالت: لقد ماتت العمة لاورا يا رودي؛ ماتت في أثناء نومها.

جلس رودي في سريره وتنهد بعمق قائلاً: يا للعمة المسكينة العزيزة! ولكني أشكر الله على ذلك. ما كنتُ لأتحمل رؤيتها مستمرة في عذابها على النحو الذي كانت عليه بالأمس.

قالت إلينور بشكل آلي: لم أكن أعرف أنك رأيتَها؟

أومأ رودي برأسه خجلاً وقال: في الحقيقة -يا إلينور- لقد شعرت بأنني جبان إذ خفت من رؤيتها بالأمس؛ فذهبت إليها مساء. كانت الممرضة، الممرضة السمينة، قد غادرت الغرفة لأمر ما،

وأظنها نزلت ومعها زجاجة ماء حار، فتسللت إلى الغرفة. لم تعرف طبعاً أنني هناك. اكتفيت بالوقوف دقيقة والنظر إليها، وعندما سمعت صوت خطوات الممرضة على الدرج ثانية انسللتُ خارجاً. ولكنها كانت في حالة فظيعة جداً!

أومأت إلينور برأسها موافقة وقالت: نعم، كانت كذلك.

- كان من شأنها أن تمقت وضعها ذاك وتكره كل دقيقة تمرّ بها!

- أعرف.

- رائعة هي تلك الطريقة التي نرى بها الأمور أنا وأنت بشكل متطابق.

قالت إلينور بصوت منخفض: نعم، إنها كذلك.

- كلانا نشعر بشيء واحد في هذه اللحظة؛ بالامتنان الكامل لارتياحها من كل هذه المعاناة.

-٢-

قالت الممرضة أوبرايان: ما الأمر يا هوبكنز؟ هل فقدتِ شيئاً؟

كانت الممرضة هوبكنز تبحث -وقد احمرّ وجهها- في حقيبة صغيرة كانت قد وضعتها في الصالة في الليلة السابقة، ثم قالت متذمّرة: يا له من أمر مزعج؛ لا أعرف كيف أقدمت على مثل هذا الأمر!

- ما المشكلة؟

قالت الممرضة هوبكنز بشكل غامض: إنها إليزا رايكن، تلك المصابة بالورم الخبيث. يجب أن تُعطى إبرتين من المورفين يومياً، في الصباح وفي المساء. وقد أعطيتها آخر جرعة في الأنبوبة القديمة ليلة أمس وأنا قادمة إلى هنا، وأنا متأكدة أنني وضعتُ الأنبوبة الجديدة هنا أيضاً.

- ابحثي ثانية، فتلك الأنبوبة صغيرة جداً.

نبشَت الممرضة هوبكنز محتويات الحقيبة للمرة الأخيرة ثم قالت: لا، إنها ليست هنا؛ لا بد أنني نسيتها في خزانتي. عجباً، كنتُ أرى أن بوسعي أن أثق بذاكرتي أكثر من ذلك. كان من شأني أن أقسم أنني أخذتها معي!

- ألم تتركي الحقيبة في أي مكان في طريقك إلى هنا؟

قالت الممرضة هوبكنز بحدّة: لم أفعل بالطبع.

- حسناً يا عزيزتي، لا بد أن الأمر على ما يرام، أليس كذلك؟

- آه، بلى. المكان الوحيد الذي تركت الحقيبة فيه هو هنا في هذه الصالة، ولا أحد هنا يمكن أن يسرق شيئاً! أظنها ذاكرتي فقط. ولكنه أمر يغيظني إن كنتِ تفهمين ما أعنيه، وفوق ذلك سيتعين عليّ الذهاب أولاً إلى البيت في نهاية القرية والعودة ثانية.

قالت الممرضة أوبرايان: أرجو أن لا يكون يومك مُتعباً جداً يا عزيزتي. لم أرَ أنها ستعيش طويلاً.

- نعم، وأنا كذلك. أظن أن الطبيب سيصاب بالدهشة.

قالت الممرضة أوبرايان بأثر بسيط من الاستهجان: إنه يُبدي دائماً أملاً في الحالات التي يعالجها.

قالت الممرضة هوبكنز وهي تستعد للمغادرة: آه، إنه شاب؛ ليست له تجربتنا.

وبهذه الملاحظة العابسة غادرت البيت.

-٣-

ارتفع الحاجبان الصفراوان للدكتور لورد حتى كادا يلتصقان بشعر رأسه وقال دَهِشاً: إذن فقد ماتت؟

- نعم أيها الطبيب.

كانت تتراقص على لسان الممرضة أوبرايان تفصيلات دقيقة تنتظر سردها، ولكنها انتظرت بانضباط بالغ.

- ماتت؟

وقف دقيقة يفكر ثم قال بحدّة: أحضري لي بعض الماء المَغلي.

دُهشت الممرضة أوبرايان واحتارت، ولكنها التزمت بروح وتقاليد ممرضات المستشفيات التي تقضي بعدم طرح أية أسئلة. ولو أن الطبيب طلب منها أن تحضر له جلد تمساح لكانت قد تمتمت قائلة: "حاضر يا دكتور" وانطلقت طائعة من الغرفة لتعالج الأمر.

-٤-

قال روديريك ويلمان: هل تريد القول إن عمتي ماتت دون ترك وصية وإنها لم تكتب وصية قط؟

لمَّع السيد سيدون نظارته وقال: هكذا تبدو القضية.

قال رودي: ما أغرب هذا!

سعل السيد سيدون سَعلة احتجاج وقال: ليس غريباً إلى الدرجة التي تتخيلها، فهذا يحدث أكثر مما تتصور. هناك شيء من الخرافة في هذا الموضوع، فغالباً ما يرى الناس أن لديهم الكثير من الوقت، وكتابة وصية تبدو بالنسبة لهم أمراً يُقرِّب الموت منهم. أمر غريب جداً، ولكنه الواقع!

قال رودي: ألم يسبق لك قط أن... أن ناقشتَها في هذا الموضوع؟

أجاب السيد سيدون بجفاء: كثيراً.

- وماذا قالت؟

تنهد السيد سيدون وقال: الكلام المعتاد... ما زال أمامها الكثير من الوقت، وأنها لا تنوي الموت قريباً، وأنها لم تحزم أمرها تماماً بعد فيما يخص توزيع المال!

قالت إلينور: ولكن المؤكد أن موقفها تغير بعد النوبة الأولى؟

هز سيدون رأسه بالنفي وقال: آه، لا؛ بل ازداد الأمر سوءاً بعد ذلك، فما كانت لتقبل إثارة الموضوع بأي حال.

قال رودي: من المؤكد أن هذا غريب جداً.

قال السيد سيدون ثانية: لا، فمن الطبيعي أن مرضها قد جعلها أكثر عصبية وحساسية.

قالت إلينور بصوت حائر: ولكنها تمنّت الموت!

قال السيد سيدون وهو يلمّع نظارته ثانية: يا عزيزتي الآنسة إلينور، إن للعقل البشري آلية تعمل بشكل غريب جداً. ربما كانت السيدة ويلمان قد ظنت أنها تريد الموت، ولكن جنباً إلى جنب مع هذا الشعور كان هناك أمل بأنها ستتعافى تماماً، وبسبب ذلك الأمل أظنها شعرت بأن كتابة وصية ستجلب النحس. المسألة ليست في عدم نيتها كتابة وصية بقدر ما هي مسألة تأجيل دائم لذلك.

ثم أكمل المحامي وقد حوّل خطابه فجأة إلى رودي متحدثاً معه بشكل يكاد يكون شخصياً: أنت تعلم كيف يؤجل المرء ويتجنب أمراً يراه كريهاً لا يريد مواجهته؟

احمرّ وجه رودي وتمتم قائلاً: نعم، أنا، أنا... نعم، بالطبع، أفهم ما تعنيه.

تابع السيد سيدون قائلاً: بالضبط. لقد كانت السيدة ويلمان تنوي دائماً كتابة وصية، ولكنها كانت ترى أن كتابتها غداً أفضل من كتابتها اليوم! ظلت تقول لنفسها إن هناك الكثير من الوقت.

قالت إلينور ببطء: لهذا إذن كانت منزعجة ليلة أمس ذلك الانزعاج الكبير وحريصة على الإرسال في طلبك كل الحرص؟

أجاب السيد سيدون: ما من شك في ذلك.

قال رودي بصوت متحير: ولكن ما الذي يمكن أن يحدث في

هذه الحالة؟

تنحنح المحامي وقال: لأملاك السيدة ويلمان؟ طالما أن السيدة ويلمان ماتت دون وصية فإن كل أملاكها تؤول إلى أقرب أقربائها، أي إلى الآنسة إلينور كارليسل.

قالت إلينور ببطء: كلها لي؟

شرح السيد سيدون قائلاً: تأخذ الدولة نسبة معيَّنة.

ثم مضى يشرح التفاصيل، إلى أن انتهى إلى القول: ليست هناك شراكات أو صناديق وصاية، وثروة السيدة ويلمان كانت خالصة لها تفعل بها ما تريد، ولذلك فإنها تؤول مباشرة إلى الآنسة كارليسل. هناك ضرائب الإرث التي ستكون ثقيلة نوعاً ما، ولكن حتى بعد دفعها فإن الثروة ستبقى كبيرة جداً.

قالت إلينور: ولكن روديريك...

سعل المحامي بشكل اعتذاري وقال: إن السيد ويلمان لا يعدو أن يكون ابن أخي زوج السيدة ويلمان، ليست هناك قرابة دم.

قال رودي: تماماً.

قالت إلينور متمهلة: لا يهم كثيراً بالطبع أي واحد منا سيحصل على الإرث طالما أننا سنتزوج.

ولكنها لم تنظر إلى رودي.

قال السيد سيدون بدوره: تماماً.

وقد قالها بشيء من السرعة.

-٥-

قالت إلينور بشكل يكاد يكون توسّلاً: ولكن الأمر لا يهم، أليس كذلك؟

كان السيد سيدون قد غادر.

تلوّن وجه رودي ارتباكاً وقال: ينبغي أن تحصلي على الإرث، من الحق تماماً أن تحصلي عليه. بالله عليك يا إلينور، لا تتصوري أنني أحسدك أو أحمل لك أي غل بسبب ذلك؛ أنا لا أريد المال!

قالت إلينور وفي صوتها أثر من عدم الثبات: لقد اتفقنا في لندن يا رودي على أن لا أهمية لمسألة مَن منا يحصل على المال طالما... طالما كنا سنتزوج؟

لم يجبها، فأصرّت: ألا تذكر قولنا ذاك يا رودي؟

قال: بلى.

نظر إلى قدميه. كان وجهه شاحباً متكدراً، وكان ثمة ألم في الخطوط المتوترة لفمه الحساس.

قالت إلينور وهي ترفع رأسها فجأة بقوة: لا يهم ذلك إن كنا سنتزوج... ولكن هل سيحدث ذلك يا رودي؟

قال: هل سيحدث ماذا؟

- هل سنتزوج أنا وأنت؟

- فهمتُ أن الفكرة كانت كذلك.

كانت نبرته لامبالية وظهر فيها شيء من الحدة. ثم أكمل قائلاً:

ولكن إذا كانت عندك أفكار أخرى الآن يا إلينور...

صاحت به: آه يا رودي، ألا يمكنك أن تكون صادقاً؟

جفل، ثم قال بصوت خفيض استبدّت به الحيرة: لا أعرف ما الذي حدث لي؟!

قالت إلينور بصوت مخنوق: أنا أعرف.

قال بسرعة: ربما كان ذلك صحيحاً، فأنا في نهاية الأمر لا أحب فكرة العيش على حساب زوجتي.

قالت إلينور وقد شحب وجهها: ليس هذا هو السبب. إنه أمر آخر.

توقفت قليلاً ثم قالت: إنها... ماري، أليس كذلك؟

تمتم رودي بحزن: أظن الأمر كذلك. كيف عرفت؟

قالت وقد تلوّت شفتاها بابتسامة معذَّبة: لم يكن ذلك صعباً. كلما نظرتَ إليها... كان ذلك واضحاً على وجهك لكل ذي عين ترى.

فجأة انهارت سيطرته على نفسه وقال: آه يا إلينور، لا أدري ما القضية! أظنني قد جُننت! حدث ذلك عندما رأيتها في ذلك اليوم الأول في الغابة. مجرد وجهها... لقد، لقد قلبَت كل شيء رأساً على عقب. أنت لا تستطيعين فهم ذلك.

- بل أستطيع. استمر.

قال رودي يائساً: لم أرِد الوقوع في حبها، فقد كنت سعيداً تماماً معك. آه يا إلينور، يا لي من سافل إذ أتحدث معك هكذا!

- هراء. استمر، أخبرني.

قال بأسى: إنك رائعة، إن الحديث معك مريح جداً. أنا مغرم بك إلى حد فظيع يا إلينور؛ ينبغي أن تصدقي ذلك. هذا الأمر الآخر أشبه بالسحر! إنه يخرب كل شيء: كل الأشياء العقلانية المرتبة المحترمة...

قالت إلينور بلطف: الحب ليس عقلانياً جداً.

قال رودي ببؤس: نعم.

قالت إلينور وقد ارتعش صوتها قليلاً: هل قلتَ لها شيئاً؟

- هذا الصباح. كنت كالمغفل... فقدتُ عقلي...

- نعم؟

- وبالطبع فقد أسكتتني فوراً! صُدِمَت بذلك، بسبب العمة لاورا وبسببك.

سحبت إلينور الخاتم الألماسي من إصبعها وقالت: من الأفضل أن تستعيده يا رودي.

تمتم وهو يأخذه دون أن ينظر إليها: إلينور، لا تعلمين كيف أشعر بنفسي وحشاً.

قالت إلينور بصوتها الهادئ: أتظن أنها ستتزوجك؟

هزّ رأسه بالنفي وقال: لا أدري. ليس... ليس قبل مرور وقت طويل. لا أظنها تهتم بي الآن، ولكن ربما اهتمت مستقبلاً.

- أظنك على حق، ينبغي أن تعطيها وقتاً. أن لا تراها لفترة بسيطة، ثم تحاول من جديد.

- إلينور! إنك أفضل صديقة يمكن لأحد أن يصادقها.

أخذ يدها فجأة في يده وقال: أتعلمين يا إلينور؟ إنني أحبك فعلاً؛ أحبك بقدر ما أحببتك دائماً! أحياناً تبدو ماري أشبه بحلم فقط، ويمكن أن أصحو منه لأجد أنها ليست موجودة.

قالت إلينور: لو لم تكن ماري موجودة!

قال رودي بانفعال مفاجئ: أحياناً أتمنى أن لا تكون موجودة... أنا وأنت يا إلينور نتلاءم. إننا نتلاءم فعلاً، أليس كذلك؟

حنت رأسها ببطء وقالت: آه، بلى... نتلاءم.

ثم فكرت: لو لم تكن ماري موجودة!

* * *

الفصل الخامس

-١-

قالت الممرضة هوبكنز بحماسة: كانت جنازة جميلة.

أجابتها الممرضة أوبرايان: كانت كذلك بالفعل، والأزهار... هل رأيت مثل تلك الأزهار من قبل؟ باقة من الليلك الأبيض وأمثالها من الورد الأصفر. كانت جميلة.

تنهدت الممرضة هوبكنز وتناولت قطعة كعك بالزبدة. كانت الممرضتان تجلسان في أحد المقاهي، ومضت الممرضة هوبكنز قائلة: إن الآنسة كارليسل فتاة كريمة. لقد أعطتني هدية لطيفة، رغم أنها غير مضطرة لفعل ذلك.

وافقتها الممرضة أوبرايان بحماسة قائلة: إنها فتاة لطيفة سخية. أنا أمقت البخل فعلاً.

- حسناً، لقد ورثَت ثروة عظيمة.

قالت الممرضة أوبرايان: إنني أتساءل...

ثم سكتت، فقالت زميلتها مشجِّعة: نعم، عمَّ تتساءلين؟

- غريب كيف لم تترك العجوز أي وصية.

قالت الممرضة هوبكنز بحدّة: هذا عمل شرير. ينبغي أن يُجبَر الناس على كتابة وصايا لهم، فعدم كتابتها يؤدي إلى مشكلات كريهة.

قالت الممرضة أوبرايان: أتساءل كيف كانت ستوزع ثروتها لو قُدِّر لها أن تكتب وصية؟

قالت الممرضة هوبكنز بتصميم: إنني أعرف أمراً واحداً.

- وما هو؟

- أنها كانت ستترك مبلغاً من المال لماري... ماري جيرارد.

وافقتها صاحبتها قائلة: نعم، هذا صحيح تماماً.

ثم أضافت بانفعال: ألم أروِ لك ما حدث في تلك الليلة عندما كانت المسكينة في حالة سيئة، وكان الطبيب يحاول تهدئتها؟

ثم سرح بالممرضة خيالها الإيرلندي فأكملت تقول: كانت الآنسة إلينور هناك تمسك بيد عمتها وتقسم بالله العظيم بأنها سترسل في طلب المحامي وأن كل شيء سيتم ترتيبه وفق الأصول. وقالت العجوز المسكينة: ماري، ماري! فقالت لها الآنسة إلينور: أتقصدين ماري جيرارد؟ ومباشرة أقسمت على أن تنال ماري حقوقها.

قالت الممرضة هوبكنز بشيء من الشك: أكان الأمر كذلك؟

أجابت الممرضة أوبرايان بثبات: نعم، هكذا كان، وسأخبرك بما يلي يا عزيزتي: برأيي أن السيدة ويلمان لو عاشت لتكتب وصية فلربما كانت هناك مفاجآت للجميع. مَن يدري؟ ربما كانت قد تركت كل ما تملكه لماري جيرارد!

قالت الممرضة هوبكنز بارتياب: لا أظنها كانت ستفعل ذلك. لا

أصدق أن أحداً يمكن أن يترك أمواله لمن ليس من دمه ولحمه.

قالت الممرضة أوبرايان بشكل تنبّؤي غامض: ثمة دم ولحم.

أجابتها صاحبتها فوراً: ما الذي تعنينه بذلك؟

قالت الممرضة أوبرايان بشيء من الكرامة: لستُ ممّن يمتهنون النميمة والأقاويل، وما كنت لأشوّه ذكرى إنسان ميت.

أومأت الممرضة هوبكنز برأسها ببطء وقالت: صحيح، أتفق معك. فمن قلَّ كلامه قلّت أخطاؤه.

ثم ملأت كوب الشاي، وقالت الممرضة أوبرايان: بالمناسبة، هل وجدتِ أنبوبة المورفين في البيت عندما عدتِ إليه؟

عبست الممرضة هوبكنز وقالت: لا. بودّي أن أعرف ما حدث لها، ولكني أظن أن الأمر جرى على هذا النحو: ربما كنتُ قد وضعتها على رف الموقد كما أفعل غالباً عندما أقفل الخزانة، وربما تدحرجت فوقعت في سلة المهملات التي كانت مليئة وقتها وجرى تفريغها في برميل النفايات بعد مغادرتي البيت مباشرة.

سكتت قليلاً ثم قالت: لا بد أن الأمر جرى على هذا النحو لأنني لا أرى طريقة أخرى لضياعها.

- فهمت. حسناً، لا بد أن الأمر كان كذلك، فأنت لم تتركي حقيبتك إلاّ في صالة هَنتربيري، ولذلك يبدو لي أن تفسيرك لا بد أن يكون صحيحاً. لقد ذهبت الأنبوبة إلى برميل النفايات.

قالت الممرضة هوبكنز بلهفة: هذا صحيح، إذ لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر، أليس كذلك؟

ثم أخذت شيئاً من الكعكة المُحلاّة وقالت: لم يكن الأمر...

ثم توقفت، فأيدتها صاحبتها بسرعة، وربما بسرعة زائدة قليلاً، إذ قالت بارتياح: لو كنتُ مكانك لما قلقت بشأنها أكثر من ذلك.

قالت الممرضة هوبكنز: أنا لست قلقة.

-٢-

جلست إلينور أمام طاولة الكتابة الضخمة في المكتبة وقد اتّشحت بسواد أظهر شبابها وشدتها، وقد انتشرت أمامها العديد من الأوراق. كانت قد أنهت مقابلة الخدم والسيدة بيشوب، والآن كانت ماري جيرارد هي التي دخلت الغرفة وترددت قليلاً عند الباب قائلة: هل أردت رؤيتي يا آنسة إلينور؟

رفعت إلينور نظرها وقالت: آه، نعم يا ماري. تعالي واجلسي هنا من فضلك.

جاءت ماري وجلست على الكرسي الذي أشارت إليه إلينور. كان الكرسي منحرفاً قليلاً باتجاه النافذة، وقد سقط الضوء القادم منها على وجهها ليُظهر النقاء الشديد لبشرتها البيضاء واللون الذهبي الفاتح لشعرها.

كانت إلينور تضع إحدى يديها على جبينها لتسند وجهها قليلاً، وكان بوسعها أن تراقب من بين أصابعها وجه الفتاة. فكرت مع نفسها قائلة: أمن الممكن كره شخص إلى هذا الحد دون إظهار ذلك؟

أما بصوت عال فقالت بنبرة سعيدة عملية: أظنك تعرفين -يا

ماري- أن عمتي كانت مهتمة بك اهتماماً عظيماً، وكان من شأنها أن تهتم بمستقبلك.

تمتمت ماري بصوتها الناعم: لقد كانت السيدة ويلمان في غاية الطيبة معي على الدوام.

مضت إلينور قائلة بصوت بارد محايد: إنني أعلم أن عمتي -لو قُدِّر لها من الوقت ما تكتب معه وصية- لتمنَّت توزيع العديد من الحصص المالية. وبما أنها ماتت دون وصية فإن مسؤولية تنفيذ رغباتها تقع على عاتقي، وقد تشاورت مع السيد سيدون وقمنا معاً بوضع قائمة بمبالغ مالية للخدم حسب طول فترات خدمتهم وغير ذلك.

توقفت قليلاً ثم قالت: وأنت لا تندرجين ضمن هذه الفئة بالطبع.

وربما تمنّت نصف أمنيّة بأن يكون لتلك الكلمات وقع اللسعة، ولكن الوجه الذي كانت تنظر إليه لم يُظهر أي تغيير. لقد تقبلت ماري الكلمات بمعناها الخارجي المعتاد وأصغت لما سيقال لاحقاً. قالت إلينور: ومع أنه كان من الصعب على عمتي أن تتكلم بشكل واضح متماسك إلاّ أنها استطاعت أن تجعل قصدها مفهوماً في تلك الليلة الأخيرة، فقد أرادت دون شك أن تضع لك بنداً في الوصية لتأمين مستقبلك.

قالت ماري بهدوء: كان هذا لطفاً بالغاً منها.

قالت إلينور بسرعة: بمجرد أن يتم إقرار مصير الإرث رسمياً فإنني سأرتب الأمر بحيث يتم تحويل ألفَي جنيه لك، وسيكون هذا المبلغ لك تفعلين به ما تشائين.

احمرّ وجه ماري وقالت: ألفا جنيه؟ آه يا آنسة إلينور، هذا فعلاً لطف منك! لا أدري ما أقول.

قالت إلينور بحدة: ليس هذا لطفاً مني بشكل خاص، ورجاء لا تقولي شيئاً.

احمرّ وجه ماري وتمتمت: أنت لا تعلمين أي فارق سيشكله هذا بالنسبة لي.

- يسعدني ذلك.

ترددت قليلاً، ثم أبعدت نظرها عن ماري إلى الجانب الآخر من الغرفة وقالت بشيء من الجهد: إنني أتساءل... هل لديك أية خطط؟

قالت ماري بسرعة: آه، نعم؛ سأتدرب على مهنة، ربما على التدليك. هذا ما تنصح به الممرضة هوبكنز.

- تبدو هذه فكرة صائبة جداً. سأحاول ترتيب الأمر مع السيد سيدون بحيث نقدم لك بعض المال مقدماً، على الفور إن كان ذلك ممكناً.

قالت ماري بامتنان: أنت طيبة جداً جداً يا آنسة إلينور.

قالت إلينور باقتضاب: لقد كانت تلك هي رغبة العمة لاورا.

ثم ترددت قليلاً وقالت: حسناً، أظن أن هذا كل ما في الأمر.

جاءت صيغة الكلمات حاملة إنهاء للمقابلة لا يقبل الشك، الأمر الذي لسع بشرة ماري الحساسة هذه المرة. نهضت وقالت بهدوء: شكراً جزيلاً لك يا آنسة إلينور.

ثم غادرت الغرفة.

جلست إلينور هادئة ساكنة تحدق أمامها. كان وجهها خالياً تماماً من أي تعبير وليس فيه ما يدل على ما يجري في عقلها، ولكنها جلست هناك دون حراك لفترة طويلة.

-٣-

خرجت إلينور أخيراً بحثاً عن رودي. وجدته في غرفة جلوس الصباح، كان يقف محدقاً من خلال النافذة، وقد التفت بحدة عند دخول إلينور.

قالت: لقد أنهيتُ الأمر كله. خمسمئة جنيه للسيدة بيشوب، فقد عملت هنا منذ سنوات طويلة. ومئة للطباخة، وخمسون لكل من ميلي وأولايف. خمسة جنيهات لكل واحد من الآخرين، وخمسة وعشرون لستيفنز كبير البستانيين، وهناك العجوز جيرارد طبعاً الساكن في بيت البواب. لم أفعل شيئاً من أجله بعد. إنه لأمر فظيع، أحسب أن علينا صرف راتب تقاعدي له، أليس كذلك؟

سكتت قليلاً ثم تابعت بشيء من السرعة: وقد خصصت ألفين لماري جيرارد. أتظن أن ذلك ما كان من شأن العمة لاورا أن تتمناه؟ لقد بدا لي مبلغاً مناسباً.

قال رودي دون النظر إليها: نعم، مناسب تماماً. لقد كنتِ دوماً ذات رأي حصيف يا إلينور.

ثم عاد لينظر من النافذة ثانية.

أمسكت إلينور أنفاسها لحظة، ثم بدأت تتكلم بسرعة مرتبكة والكلمات تخرج من فمها متعثرة: هناك شيء آخر؛ أريد أن... إنه لمن الحق... أعني أن من الواجب أن تحصل أنت على حصتك المناسبة يا رودي.

وعندما استدار والغضب على وجهه سارعت لتكمل: لا، اسمع يا رودي. ليست هذه سوى العدالة البحتة، فالمال الذي كان لعمك والذي تركه لزوجته... من الطبيعي أنه افترض أنه سيؤول إليك، وقد أرادته العمة لاورا كذلك أيضاً. أعرف ذلك من الكثير من الأمور التي قالتها، فإن كان لي أنا أن آخذ مالها هي فيجب أن تأخذ أنت مال عمك؛ هذا هو الحق. إنني... إنني لا أستطيع تحمل الشعور بأنني قد سرقتك لمجرد أن العمة لاورا خشيت كتابة وصية. يجب عليك... يجب عليك أن تتصرف بعقلانية في هذا الأمر.

كان وجه روديريك الطويل الحساس قد غدا شاحباً كوجوه الموتى. قال: يا إلهي يا إلينور! أتريدينني أن أشعر بأنني سافل تماماً؟ أتظنين للحظة واحدة أنني يمكن أن آخذ هذا المال منك؟

- أنا لا أعطيك إياه، إنه العدل فقط.

صاح رودي: لا أريد مالك!

- إنه ليس مالي.

- بل هو مالك قانوناً، وهذا كل ما يهم! بالله عليك دعينا لا نخرج عن التصرف بشكل عملي صرف. لن آخذ منك قرشاً واحداً، وأنت لن تتصرفي معي كمحسنة مسيطرة.

صاحت إلينور: رودي!

قام بحركة سريعة من يده وقال: آه يا عزيزتي! أنا آسف. لا أعرف ما الذي أقوله، أشعر بالحيرة الشديدة، بالضياع التام...

- مسكين يا رودي.

كان قد استدار ثانية وأخذ يعبث بواقية النافذة، ثم قال بنبرة مختلفة بعيدة محايدة: أتعلمين ما الذي تخطط ماري جيرارد لفعله؟

- ستتدرب على التدليك، هذا ما تقوله.

- آه، فهمت.

ساد بعض الصمت. انتصبت إلينور وردّت رأسها إلى الخلف، وعندما تكلمت كان صوتها مؤثّراً: رودي، أريدك أن تصغي إليّ بدقّة.

التفت إليها مدهوشاً قليلاً وقال: بالطبع يا إلينور.

- أريدك أن تتّبع نصيحتي إن سمحت.

- وما هي نصيحتك؟

قالت بهدوء: لا أحسبك مرتبطاً بشكل لا فكاك منه؟ يمكنك أخذ إجازة، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذن خذ إجازة. سافر إلى مكان ما في الخارج لفترة... ثلاثة أشهر مثلاً. اذهب بمفردك، تعرف إلى أصدقاء جدد وشاهد أماكن جديدة. دعنا نتكلم بكل صراحة: أنت تظن في هذه اللحظة أنك تحب ماري جيرارد، وربما كنتَ تحبها، ولكنها ليست اللحظة المناسبة

للتقرب منها وأنت تعرف ذلك جيداً. لقد انفسخت خطبتنا بالتأكيد، فسافر إلى الخارج كرجل حر إذن، وعند نهاية الأشهر الثلاثة احزم أمرك كرجل حر. ستعرف عندها إن كنتَ تحب حقاً ماري أم أن ذلك كان مجرد افتتان مؤقت، وإذا ما تأكد لك أنك تحبها فعلاً فارجع واذهب إليها وأخبرها بذلك، وبأنك واثق تماماً من الأمر، وربما أصغت الفتاة وقتها.

جاء إليها رودي وأمسك يدها بيديه وقال: إلينور، إنك رائعة! أنت شديدة صفاء الذهن وموضوعية بشكل يثير العجب. إنني معجب بك بما لا يستطيع اللسان التعبير عنه. سأفعل تماماً ما أشرتِ به؛ سأسافر وأتحرر من كل شيء، وأرى إن كنت مصاباً بالمرض الحقيقي أم أنني كنت أجعل من نفسي أسوأ أضحوكة فقط. آه يا عزيزتي إلينور، أنت لا تعلمين كم أنا مغرم بك حقاً، وأدرك تماماً أنك أفضل من أن تكوني قرينة لي! باركك الله يا عزيزتي على كل طيبتك.

وبسرعة ودون تفكير قبّل وجنتها وخرج من الغرفة، وربما صنع خيراً حين لم يلتفت ليرى وجهها.

-٤-

بعد يومين من ذلك أخبرت ماري الممرضةَ هوبكنز بما طرأ من تحسن على آمالها، وقد هنأتها تلك المرأة العملية بكل حرارة قائلة: هذه ضربة حظ رائعة بالنسبة لك يا ماري. ربما كانت العجوز قد نوت لك الخير، ولكن النوايا لا تنفع كثيراً إذا لم يتم تدوين الأمور على الورق. كان من الممكن أن لا تحصلي على شيء أبداً.

- لقد قالت الآنسة إلينور إن العجوز أبلغتها بشيء ما بخصوصي في ليلة موتها.

- ربما كان هذا صحيحاً، ولكن كان من شأن الكثيرين أن يتناسوا الأمر فيما بعد. إن الأقارب هكذا، ويمكنني أن أؤكد لك أنني رأيت أموراً من هذه تحدث؛ أناس يحتضرون ويعربون عن ثقتهم بأنهم يستطيعون الاعتماد على ابنهم العزيز أو ابنتهم الغالية لتنفيذ رغباتهم، وفي تسعة أعشار تلك الحالات تجدين هؤلاء الأبناء الأعزاء يعثرون على أعذار وجيهة جداً لعدم القيام بتنفيذ شيء من تلك الرغبات. إن الطبيعة البشرية هي هي لا تتغير، ولا أحد يحب التخلي عن المال إن لم يجبره القانون على ذلك! إنني أقول لك -يا ابنتي ماري- إنك كنتِ محظوظة. إن الآنسة كارليسل أكثر استقامة من الكثيرين.

قالت ماري ببطء: ومع ذلك أشعر بأنها لا تحبني على نحو ما.

قالت الممرضة هوبكنز دون مواربة: ولها في ذلك عذر وجيه برأيي. لا تتصنعي كل هذه البراءة يا ماري؛ إن السيد روديريك ينظر إليك نظرات ولهٍ منذ بعض الوقت.

احمرّ وجه ماري، ومضت الممرضة قائلة: لقد وقع وقعة سيئة برأيي، وقع في حبك فجأة. فماذا عنك أنت يا فتاتي؟ هل تحملين أية مشاعر تجاهه؟

قال ماري بتردد: إنني... لا أدري. لا أظن ذلك، ولكنه لطيف جداً بالطبع.

- همم، ما كان ليروق لي شخصياً! إنه واحد من أولئك الرجال

العصبيين، والأغلب أن يكون ممن يثيرون المشكلات بخصوص الطعام. لا أدري ماذا حصل للرجال في هذه الأيام! ولكن لا تستعجلي يا عزيزتي ماري، فامرأة بجمالك تستطيع الانتقاء والاختيار. لقد مرَّرت لي الممرضة أوبرايان ملاحظة مفادها أن عليك الذهاب إلى مهنة السينما، فقد سمعَت أنهم يحبون الشقراوات هناك.

قالت ماري بشيء من التجهم الذي غضّن جبينها: ماذا ترين أن عليّ فعله بخصوص والدي؟ إنه يرى أن عليّ أن أعطيه بعضاً من هذا المال.

قالت الممرضة بغضب: لا تفعلي شيئاً من هذا. إن السيدة ويلمان لم تقصد ذهاب ذلك المال إليه، ورأيي أنه كان سيفقد عمله منذ سنوات لولاك أنت. ليس في الدنيا أكسل منه!

- يبدو غريباً أن يكون لديها كل هذا المال ثم لا تكتب وصية تشير إلى كيفية توزيعه.

- الناس هكذا دوماً؛ أمر يبعث على الدهشة، فهم يؤجّلون ذلك دائماً.

- يبدو لي هذا سخيفاً تماماً.

قالت الممرضة هوبكنز وهي ترمش بجفنيها قليلاً: هل كتبتِ أنت وصية يا ماري؟

حدقت ماري إليها وقالت: آه، لا.

- ومع ذلك فأنت تجاوزت سن الحادية والعشرين.

- ولكنني... ولكنني لا أملك ما أخلّفه. رغم أنني صرت أملك الآن.

قالت الممرضة بحدّة: تملكين بالطبع، وهو مبلغ محترم أيضاً.

- آه، حسناً، ليس في الأمر عجلة.

- أرأيت؟ أنت كغيرك تماماً. إن كونك شابة بكامل صحتها لن يمنع من أن تدعسك سيارة أو حافلة في الشارع في أية لحظة.

ضحكت ماري وقالت: أنا لا أعرف حتى كيفية كتابة وصية.

- هذا سهل للغاية. يمكنك شراء استمارة من مكتب البريد. دعينا نذهب ونأخذ واحدة الآن مباشرة.

وفي منزل الممرضة هوبكنز كانت الاستمارة قد فُتحت وتمت مناقشة المسألة المهمة. كانت الممرضة هوبكنز تستمتع بذلك كثيراً، فبرأيها أن الوصية هي ثاني أفضل شيء بعد الموت.

قالت ماري: من سيحصل على المال إن لم أكتب وصية؟

قالت الممرضة هوبكنز بشيء من الارتياب: والدك كما أظن.

قالت ماري بحدة: لن ينال شيئاً. أفضّل تركه لخالتي في نيوزيلندا.

قالت الممرضة بمرح: لن تكون هناك فائدة من تركه لأبيك على أية حال، فلا أظنه سيبقى في هذه الدنيا طويلاً.

كانت ماري قد سمعت مثل هذا الكلام كثيراً من الممرضة هوبكنز بحيث لم تعد تتأثر به. قالت: لا أستطيع تذكّر عنوان خالتي، فنحن لم نستلم منها أي رسائل منذ سنوات طويلة.

- لا يهم هذا. هل تعرفين اسمها الأول؟

- ماري، ماري رايلي.

- حسناً؛ اكتبي أنك تتركين كل ما تملكينه لماري رايلي أخت الراحلة إليزا جيرارد التي كانت تقطن هَنتربيري في ميدنزفورد.

انكبت ماري على الاستمارة تكتب، وعندما وصلت إلى النهاية ارتعدت فجأة، فقد حجز خيالٌ بينها وبين الشمس. رفعت بصرها لترى إلينور كارليسل تقف خارج النافذة وتنظر إلى الداخل. قالت إلينور: ما الذي تفعلينه بكل هذا الانشغال؟

قالت الممرضة هوبكنز ضاحكة: إنها تكتب وصيتها، هذا ما تفعله.

- تكتب وصيتها؟!

ضحكت إلينور فجأة ضحكة غريبة تكاد تكون هستيرية، ثم قالت: أنت تكتبين وصيتك إذن يا ماري؟ هذا غريب، هذا غريب جداً!

استدارت وهي ما تزال تضحك، ومشت بسرعة في الشارع.

حدقت الممرضة هوبكنز وقالت: ما الأمر؟ ماذا حدث لها؟

-٥-

لم تكن إلينور قد ابتعدت أكثر من بضع خطوات، وكانت ما تزال تضحك عندما أمسكت يدٌ بذراعها من الخلف. توقفت فجأة واستدارت، ونظر الدكتور لورد مباشرة إليها وقد تغضن حاجباه تجهماً. قال بحزم: ما الذي كنت تضحكين منه؟

قالت إلينور: لا أدري.

قال بيتر لورد: هذا جواب سخيف بعض الشيء.

احمرّ وجه إلينور وقالت: أظنني مرتبكة دون شك. لقد ذهبت إلى بيت ممرضة المقاطعة فوجدت ماري جيرارد تكتب وصيتها، وهذا جعلني أضحك. لا أدري لماذا!

قال لورد بسرعة: ألا تدرين؟

- كان ذلك سخفاً مني... قلت لك إنني مرتبكة.

- سأكتب لك وصفة شراب مهدّئ.

قالت إلينور بحدة: يا له من أمر مفيد!

ابتسم وقد هدأ ثم قال: أتفق معك في أنه غير مفيد، ولكنه الأمر الوحيد الذي يستطيع المرء فعله عندما لا يريد الآخرون إخباره بمشكلاتهم.

- لا مشكلة لديّ.

قال بيتر لورد بهدوء: بل لديك الكثير من المشكلات.

- أحسبني تعرضت لقدر من التوتر العصبي.

- بل أحسب أنك تعرضت للكثير منه، ولكن ليس هذا ما أتحدث عنه. هل... هل ستمكثين هنا لفترة طويلة؟

- سأغادر غداً.

- ألن تعيشي هنا؟

هزت إلينور رأسها وقالت: لا أظن أنني سأفعل. أظنني سأبيع

البيت إذا ما تلقيتُ عرضاً جيداً.

قال الدكتور لورد بشيء من البرود: فهمت.

- ينبغي أن أعود إلى البيت الآن.

مدت يدها بثبات، فأخذها بيتر لورد وأمسك بها وقال بكل جدية: آنسة كارليسل، هل لك أن تخبريني رجاء بما كان في ذهنك عندما ضحكتِ قبل قليل؟

سحبت يدها بسرعة وقالت: وما عساه يكون في ذهني؟

- هذا ما أودّ معرفته.

كان وجهه عابساً وحزيناً بعض الشيء. قالت إلينور بنفاد صبر: لقد رأيت الأمر غريباً، هذا كل ما في الأمر.

- أن تكتب ماري جيرارد وصيتها؟ لماذا؟ إن كتابة وصية إجراء عاقل تماماً ويجنّب المرء الكثير من المتاعب، ولكنه يسبب المتاعب أحياناً بالطبع!

قالت إلينور وقد نفد صبرها: طبعاً على كل امرئ أن يكتب وصية. لم أقصد ذلك.

- كان على السيدة ويلمان أن تكتب وصية.

قالت بشيء من الانفعال: نعم، هذا صحيح.

واحمرّ وجهها، فسألها الطبيب: ماذا عنك أنت؟

- أنا؟

- نعم، لقد قلت الآن إن على كل امرئ كتابة وصية، فهل

كتبت أنت؟

حدقت إليه لحظة، ثم ضحكت وقالت: ما أغرب هذا! لا، لم أكتب، لم أفكر بها أصلاً. إنني كالعمة لاورا تماماً. أتدري يا دكتور لورد؟ سأذهب إلى البيت وأكتب للسيد سيدون بشأن ذلك في الحال.

- إنه تصرف عقلاني جداً.

-٦-

في المكتبة كانت إلينور قد أنهت لتوها كتابة رسالة:

السيد العزيز سيدون،

هل لك أن تصوغ لي وصية لكي أوقّعها؟ وصية بسيطة تماماً. أريد ترك كل شيء لروديريك ويلمان بالكامل.

المخلصة: إلينور كارليسل

نظرت إلى الساعة؛ سيذهب البريد في غضون بضع دقائق. فتحَت دُرج المكتب، ثم تذكرت أنها قد استخدمت آخر طابع في ذلك الصباح.

كانت واثقة تقريباً أن في غرفة نومها بعض الطوابع، فصعدت إلى الطابق الأعلى، وعندما دخلت المكتبة ثانية والطابع في يدها كان رودي يقف قرب النافذة. قال: إذن فنحن سنغادر هذا المكان غداً؟ يا لهَنتربيري القديم المتين! لقد قضينا أوقاتاً جميلة هنا.

- هل تمانع في بيعه؟

- آه، لا؛ بل أرى تماماً أن هذا هو أفضل ما يمكن فعله.

ساد شيء من الصمت. أخذت إلينور رسالتها وألقت نظرة عليها لترى إن كانت على ما يرام، ثم ختمتها وألصقت الطابع عليها.

* * *

الفصل السادس

رسالة من الممرضة أوبرايان إلى الممرضة هوبكنز، في الرابع عشر من تموز (يوليو):

لابورو كورت

عزيزتي هوبكنز،

لقد كان في نيتي أن أكتب لك منذ عدة أيام. البيت الذي أعمل فيه رائع، وأظن أن لوحاته مشهورة ثمينة. ولكن لا يمكنني القول إنه مريح كما كان منزل هَنتربيري، فنتيجة وجوده في أقاصي الريف يصعب الحصول على خادمات، والخادمات المتوفرات هنا لا خبرة لديهن، وبعضهن لا يتمتعن بكثير من اللطف. ومع أنني واثقة من أنني لست ممن يثرن المتاعب إلاّ أن المرء يفترض بالوجبات التي تُرسَل له أن تكون حارّة على الأقل، كما لا توجد أجهزة لغلي إبريق شاي عليها، والشاي لا يُحضّر دوماً بماء مغلي جيداً... ولكن لا أهمية لهذا كله. إن المريض رجل لطيف هادئ يعاني من ذات الرئة، ولكن أزمته قد مرّت ويقول الطبيب إنه يتحسن.

ما أردتُ قوله لك وما سيثير اهتمامك حقاً هو أغرب مصادفة يمكن أن تتخيليها؛ ففي غرفة الجلوس وفوق البيانو الضخم

توجد صورة مؤطَّرة بإطار فضي كبير. هل تصدقين أنها نفس الصورة التي حدثتك عنها، الصورة المذيَّلة بتوقيع «لويس» التي طلبَتها السيدة ويلمان؟ لقد أثار هذا الأمر اهتمامي بالطبع. ومَنذا لا يهتم بذلك؟ وقد سألت كبير الخدم عن صاحب الصورة، فأجابني فوراً أنه أخو الليدي راتيري، السير لويس رايكروفت. ويبدو أنه قد عاش في منطقة قريبة من هنا ثم قُتل في الحرب. أمر محزن، أليس كذلك؟ سألتُ بشكل عَرَضي إن كان قد تزوج، فقال لي كبير الخدم إنه تزوج، ولكن الليدي رايكروفت المسكينة دخلت مصحة للأمراض العقلية بعد الزواج بفترة قصيرة، وقال إنها ما تزال على قيد الحياة. أليس هذا مثيراً؟ وقد كنا مخطئتين تماماً في كل أفكارنا. لا بد أنهما أحبا بعضهما أشد الحب، هو والسيدة «و»، ولكنه لم يستطع الزواج بها بسبب وجود زوجة له في المصحة. إنها كقصص الأفلام، أليس كذلك؟ أن تذكره طوال تلك السنوات والنظر إلى صورته قبل وفاتها تماماً! لقد قال كبير الخدم إن سيده قُتل عام ١٩١٧. إنني أشعر أنها كانت قصة عاطفية مثيرة.

هل رأيت ذلك الفلم الجديد لميرنا لوي؟ علمتُ أنه سيُعرض في ميدنزفورد هذا الأسبوع. لا توجد أية سينما في أي مكان هنا. آه، من الفظيع أن يُدفَن المرء في الريف، ولذلك لا عجب في صعوبة حصولهم على خادمات جيدات!

وداعاً الآن يا عزيزتي، وأرجو أن تكتبي لي وتخبريني بكل الأخبار.

المخلصة: إيلين أوبرايان

* * *

رسالة من الممرضة هوبكنز إلى الممرضة أوبرايان، في الرابع عشر من تموز (يوليو):

روز كوتيج

عزيزتي أوبرايان،

كل شيء يجري هنا كعادته. لقد هُجر منزل هَنتربيري. ذهب كل الخدم ووُضعت لافتة تقول «للبيع». لقد رأيت السيدة بيشوب قبل أيام، وهي تقيم مع أختها التي تعيش على بعد ميل من هنا تقريباً. وقد كانت منزعجة جداً -كما يمكنك تخيلها- من عرض البيت للبيع، ويبدو أنها كانت واثقة من أن الآنسة كارليسل ستتزوج بالسيد ويلمان ويعيشان في البيت. وتقول السيدة بيشوب إن الخطبة قد فُسخت، وقد غادرت الآنسة كارليسل إلى لندن بعد سفرك بوقت قصير. وقد كان تصرفها غريباً جداً في مناسبة أو مناسبتين. إنني لا أدري حقاً كيف أفهمها! وقد ذهبت ماري جيرارد إلى لندن وشرعت في التدرب على التدليك، وهي خطوة أراها حصيفة جداً منها. ستخصص لها الآنسة كارليسل ألفَي جنيه، وهو مبلغ أراه ممتازاً وأكثر مما كان الكثيرون سيخصصونه لها.

وبالمناسبة، غريب كيف تأتي الأمور أحياناً. هل تذكرين أنك أخبرتِني شيئاً عن صورة مذيَّلة باسم «لويس» رأيتها عند السيدة ويلمان؟ لقد كنت أتحدث حديثاً عابراً مع السيدة سلاتري (وكانت مدبرة المنزل عند الدكتور العجوز رانسوم الذي سبق الدكتور لورد في القرية)، وقد عاشت كل عمرها في القرية بالطبع وتعرف الكثير عن الناس في هذه المنطقة. وقد سُقتُ الحديث بشكل عرَضي معها

حول الأسماء وقلتُ إن اسم لويس غير شائع، فذكرَتْ -بين حالات أخرى- اسم السير لويس رايكروفت من منطقة فوربس بارك. وقد خدم في الجيش في فرقة الفرسان السابعة عشرة وقُتل قبل نهاية الحرب بقليل. وعندها قلتُ: لقد كان صديقاً حميماً للسيدة ويلمان التي تسكن هَنتربيري، أليس كذلك؟ وعلى الفور رمتني بنظرة وقالت: بلى، لقد كانا صديقين حميمين جداً، والبعض يقول إنهما كانا أكثر من صديقين، ولكنها شخصياً لم تكن ممن يتكلمون. ولماذا عساهما يتصادقان؟

وقلتُ إن السيدة ويلمان كانت وقتها أرملة بالتأكيد، فقالت إنها كانت أرملة بالفعل. وهكذا فهمتُ يا عزيزتي أنها قصدت بذلك شيئاً ما، فقلتُ إن من الغريب أنهما لم يتزوجا، فقالت على الفور: لم يكن بوسعهما الزواج، فله زوجة في مصحة عقلية!

وهكذا ترين الآن أننا نعرف كل شيء عن الموضوع! غريب كيف تأتي الأمور، أليس كذلك؟ إن من ينظر إلى السهولة التي يتم بها الطلاق في أيامنا هذه يرى أن من العار أن لا يُعتبَر الجنون سبباً كافياً للطلاق في ذلك الحين.

هل تذكرين ذلك الشاب الوسيم تيد بيغلاند الذي اعتاد أن يتقرب من ماري جيرارد؟ لقد جاءني يطلب عنوان ماري في لندن، ولكنني لم أعطِه له، فبرأيي أن ماري أعلى مرتَبةً من تيد بيغلاند. لا أدري إن كنتِ قد أدركتِ ذلك يا عزيزتي، ولكن السيد روديريك ويلمان قد افتُتن بها كثيراً، وهو أمر مؤسف لأنه أدّى إلى متاعب. وخذيها مني: هذا هو السبب في فسخ الخطوبة بينه وبين الآنسة كارليسل. ورأيي أن هذا قد أثر فيها كثيراً. لا أدري ما

الذي رأته فيه، فهو ليس من النوع الذي أفضله أنا، ولكني سمعتُ من مصدر موثوق بأنها كانت تحبه بجنون دائماً. يبدو الأمر فعلاً دوامة فوضى، أليس كذلك؟ كما أنها حصلت أيضاً على كل المال.

العجوز جيرارد في بيت البواب تتدهور صحته بسرعة. لقد تعرض لعدة نوبات حادة من الإغماء والدوخة، وهو ما يزال على نفس وقاحته وبذاءته. بل لقد قال قبل أيام إن ماري ليست ابنته، فقلت له: "لو كنتُ مكانك لخجلت من قول شيء كهذا عن زوجتي". فاكتفى بالنظر إليّ وقال: "أنت لست إلاّ مغفلة، لا تفهمين". وقد قاطعته بحدة كما تعرفينني. أظن أن زوجته كانت الخادمة الخاصة للسيدة ويلمان قبل زواجها.

لقد شاهدت فلم «الأرض الطيبة» وكان رائعاً. يبدو أن النساء يلاقين الكثير من العنت في الصين.

المخلصة: جيسي هوبكنز

* * *

بطاقة بريدية من الممرضة هوبكنز للممرضة أوبرايان:

تخيّلي كيف أرسلنا رسالتينا في وقت واحد! أليس هذا الطقس فظيعاً؟

* * *

بطاقة بريدية من الممرضة أوبرايان للممرضة هوبكنز:

استلمتُ رسالتك صباح اليوم. يا لها من مصادفة!

* * *

رسالة من روديريك ويلمان إلى إلينور كارليسل، في الخامس عشر من تموز (يوليو):

عزيزتي إلينور،

لقد استلمتُ رسالتك لتوّي. لا، لستُ متأثراً أبداً لمسألة بيع منزل «هَنتربيري». إنها لفتة لطيفة منك أن تستشيريني. أحسب أنك تفعلين عين الصواب إن كنتِ لا تحبين العيش هناك، وهو ما يبدو واضحاً عليك. ولكن ربما وجدتِ بعض الصعوبة في التخلص منه، فهو بيت ضخم بالنسبة لحاجات اليوم، رغم تحديثه طبعاً وتجهيزه بكل وسائل العصر من جناح للخدم وموقد غازٍ وإضاءة كهربائية وغير ذلك. أتمنى لك حظاً سعيداً على كل حال.

الحرارة هنا جيدة. إنني أقضي ساعات في البحر، وهناك حشود من الناس المضحكين بعض الشيء، ولكنني لا أختلط كثيراً. لقد قلتِ لي ذات يوم إنني لستُ بالإنسان الاجتماعي، وأخشى أن هذا صحيح. إنني أجد غالبية أفراد الجنس البشري كريهين جداً، وربما كانوا يبادلونني الشعور نفسه. ولطالما شعرتُ أنك واحدة من الممثلين الحقيقيين للإنسانية.

أفكّر في متابعة سفري إلى شاطئ دالماتيا بعد أسبوع أو أسبوعين. استخدمي عنوان: «بواسطة توماس كوك، دوبروفنيك»، وذلك بدءاً من الثاني والعشرين من هذا الشهر. أعلميني إن كان هناك ما أستطيع تقديمه من عون.

مع إعجابي وامتناني،

رودي

* * *

رسالة من السيد سيدون إلى الآنسة إلينور كارليسل، في العشرين من تموز (يوليو):

١٠٤ ساحة بلومزبيري

الآنسة العزيزة كارليسل،

أعتقد جازماً أن عليك القبول بعرض الميجر سمرفيل الذي دفع مبلغ اثنَي عشر ألفاً وخمسمئة جنيه ثمناً لمنزل هَنتربيري، فمن الصعب جداً بيع البيوت الكبيرة في هذه الأيام، ويبدو المبلغ المعروض مجزياً تماماً. ولكن العرض يشترط التملك المباشر للبيت، وأعرف أن الميجر سمرفيل كان يعاين بيوتاً أخرى في المنطقة، ولذلك فإنني أنصح بالقبول الفوري للعرض.

وقد فهمتُ أن الميجر سمرفيل موافق على استئجار البيت مفروشاً لفترة ثلاثة أشهر يتم خلالها الانتهاء من الإجراءات القانونية الرسمية بحيث تتم عملية البيع.

أما بخصوص البوّاب جيرارد ومسألة دفع راتب تقاعدي له، فقد سمعتُ من الدكتور لورد أنه مريض تماماً ولا يُتوقَّع له أن يعيش طويلاً.

لم يتم بعد إقرار مسألة الإرث رسمياً، ولكنني دفعتُ للآنسة ماري جيرارد مبلغ مئة جنيه كدفعة أولى تحت الحساب.

المخلص: إدموند سيدون

* * *

رسالة من الدكتور لورد إلى الآنسة إلينور كارليسل، في الرابع والعشرين من تموز (يوليو):

الآنسة العزيزة كارليسل،

لقد توفي العجوز جيرارد اليوم. هل هناك ما أستطيع فعله لمساعدتك بأية طريقة؟ سمعتُ أنك بعتِ البيت إلى عضو برلماننا الجديد الميجر سمرفيل.

المخلص: بيتر لورد

* * *

رسالة من إلينور كارليسل إلى ماري جيرارد، في الخامس والعشرين من تموز (يوليو):

العزيزة ماري،

يؤسفني جداً سماع نبأ وفاة والدك. لقد تلقيت عرضاً لشراء البيت من رجل يدعى الميجر سمرفيل، وهو حريص على السكن فيه بأسرع ما يمكن، وسوف أذهب إلى هناك لأجمع أوراق عمتي وأنظف البيت عموماً. هل يمكنك أن تُخرجي أغراض والدك من بيت البواب بالسرعة الممكنة؟ أرجو أن يكون تدريبك على ما يرام وأن لا تجدي التدليك أمراً صعباً.

المخلصة جداً: إلينور كارليسل

* * *

رسالة من ماري جيرارد إلى الممرضة هوبكنز، في الخامس والعشرين من تموز (يوليو):

الآنسة العزيزة هوبكنز،

شكراً جزيلاً لك على رسالتك لي بشأن والدي. أنا سعيدة

لأنه لم يتألم. لقد كتبَت لي الآنسة إلينور تقول إن البيت قد بيع وإنها تريد إخلاء بيت البواب في أسرع وقت، فهل بوسعك استضافتي إن جئتُ غداً للجنازة؟ لا تتعبي نفسك بالإجابة إن لم تجدي بأساً باستضافتي.

المحبة: ماري جيرارد

* * *

الفصل السابع

-١-

خرجت إلينور كارليسل من فندق « كِنْغز آرْمز» صباح يوم الخميس السابع والعشرين من تموز، ووقفت لحظات تنظر يمنة ويسرة إلى شارع ميدنزفورد الرئيسي. وفجأة أطلقت صيحة سرور وعبرت الشارع.

لم يكن ثمة مجال لعدم التعرف على ذلك الحضور الجليل وتلك الأبهة الهادئة كسفينة تنشر كل أشرعتها. صاحت: سيدة بيشوب!

- آه، آنسة إلينور، هذه مفاجأة حقاً! لم أكن أعرف أنك في هذه المنطقة. لو كنت أعلم أنك قادمة إلى هَنتربيري لذهبت إليه أنا أيضاً. من يخدمك هناك؟ هل أحضرت أحداً معك من لندن؟

هزت إلينور رأسها بالنفي وقالت: إنني لا أقيم في هَنتربيري بل في فندق كِنْغز آرْمز.

نظرت السيدة بيشوب عبر الشارع ونشقت بأنفها ارتياباً وقالت: لقد سمعتُ أن من الممكن الإقامة فيه. أعرف أنه نظيف، ويقال إن الطبخ جيد، ولكنه لا يكاد يصل إلى ما تعودتِ عليه يا آنسة إلينور.

قالت إلينور مبتسمة: أنا مرتاحة فعلاً، وهي مسألة يوم أو يومين فقط. يجب أن أصفي موجودات المنزل، كل حاجات عمتي الشخصية، ثم إنني أريد أخذ بعض قطع الأثاث إلى لندن.

- لقد بيع البيت إذن؟

- نعم، لشخص يدعى الميجر سمرفيل، وهو عضو البرلمان الجديد عن منطقتنا. لقد توفي السير جورج كير كما تعلمين وجرت انتخابات تكميلية لشغل المنصب.

قالت السيدة بيشوب بجلال: عدنا والعود أحمد! إننا لم نعهد نواباً غير المحافظين لمنطقة ميدنزفورد.

- أنا سعيدة لأن مَن اشترى البيت ينوي الإقامة فيه. كان سيؤسفني أن يتحول البيت إلى فندق أو أن يُهدَم ليُبنى على أنقاضه بيت آخر.

أغمضت السيدة بيشوب عينيها وارتعد جسمها الممتلئ الأرستقراطي كله وقالت: فعلاً، لقد كان من شأن ذلك أن يكون فظيعاً... فظيعاً تماماً. يكفي المر سوءاً أن ينتقل «هَنتربيري» إلى أيدي الغرباء.

- نعم، ولكن البيت -كما تعلمين- أضخم بكثير من أن أعيش فيه... وحدي.

نشقت السيدة بيشوب، وسارعت إلينور إلى القول: كنت أريد سؤالك: هل تهتمين بأية قطعة أثاث وتحبين أخذها؟ سيسرني تماماً أن تأخذيها إن أعجبتك.

تهلل وجه السيدة بيشوب وقالت بامتنان: آه يا آنسة إلينور، هذه

لفتة كريمة منك ولطف شديد. إن لم يكن في ذلك حرج...

ثم توقفت قليلاً، فقالت إلينور: على الإطلاق.

- لقد كنت أُكنّ دوماً إعجاباً بالغاً بطاولة الكتابة ذات الأدراج في غرفة الجلوس. إنها قطعة رائعة.

تذكرتها إلينور، وكانت طاولة خشبية مشغولة بالحَفْر. قالت بسرعة: ستأخذينها بالطبع يا سيدة بيشوب. هل من شيء آخر؟

- لا يا آنسة إلينور. لقد كنتِ كريمة جداً بما يكفي.

- هناك بعض الكراسي من نفس طراز الطاولة. هل أنت مهتمة بأخذها؟

قبلت السيدة بيشوب الكراسي بمزيد من الشكر، ثم قالت شارحة: إنني أقيم مع أختي حالياً. هل ثمة ما أستطيع مساعدتك به في البيت يا آنسة إلينور؟ أستطيع الذهاب معك إليه إن أردتِ؟

- لا، شكراً.

قالت إلينور ذلك بسرعة وبشيء من الفجائية.

قالت السيدة بيشوب: أؤكد لك أن لا عناء في ذلك. سيكون الأمر مصدر سرور لي، فالعودة إلى أغراض السيدة العزيزة ويلمان سيكون مهمة كئيبة بالنسبة لك.

- شكراً يا سيدة بيشوب، ولكني أفضل فعل ذلك بمفردي. يستطيع المرء أن يفعل بعض الأمور بشكل أفضل بمفرده.

قالت السيدة بيشوب بشكل رسمي: كما تشائين طبعاً.

ثم أكملت تقول: إن ابنة جيرارد موجودة هنا. كانت الجنازة

بالأمس، وهي تقيم مع الممرضة هوبكنز. سمعت أنهما ذاهبتان إلى بيت البواب هذا الصباح.

أومأت إلينور برأسها وقالت: نعم، لقد طلبتُ من ماري أن تأتي وتشرف على إخلاء البيت، إذ يريد الميجر سمرفيل الانتقال إلى البيت في أقرب وقت.

- فهمت.

- حسناً، ينبغي أن أذهب الآن. لقد سررت كثيراً برؤيتك يا سيدة بيشوب. سأذكر مسألة الطاولة والكراسي.

ثم صافحتها ومضت. ذهبت إلى الخباز واشترت خبزاً أفرنجياً لصنع الشطائر، ثم ذهبت إلى محل الألبان واشترت بعض الزبدة والحليب، وأخيراً ذهبت إلى البقّال.

- أريد بعض الصلصة للشطائر من فضلك.

- بالتأكيد يا آنسة كارليسل.

تقدم السيد أبوت بنفسه مُنحّياً مساعده جانباً وقال: ما الذي ترغبين به منها؟ صلصة السلمون والروبيان؟ أم صلصة الديوك الحبشية واللسانات؟ أم صلصة السلمون والسردين؟

ثم أخرج القوارير التي تحوي تلك الأنواع واحداً بعد الآخر. قالت إلينور بابتسامة خفيفة: رغم تعدد أسمائها إلاّ أنني أراها دوماً بنفس الطعم.

وافقها السيد أبوت قائلاً: ربما كانت كذلك بشكل ما. نعم، بشكل ما، ولكنها بالطبع لذيذة جداً... لذيذة جداً.

- لقد اعتاد المرء أن يخشى تناول صلصة السمك، فقد حدثت

حالات من التسمم الغذائي منها، أليس كذلك؟

اكتسب وجه السيد أبوت تعبيراً فظيعاً وقال: أؤكد لك أن هذه نوعية ممتازة وموثوقة جداً. لم تصلنا أية شكاوى بشأنها.

- سآخذ واحدة بالسلمون وسمك البلم الصغير وواحدة أخرى بالسلمون والروبيان. وشكراً لك.

-٢-

دخلت إلينور كارليسل أراضي منزل «هَنتربيري» من خلال البوابة الخلفية. كان يوماً صيفياً صحواً وحاراً، وكانت نباتات الفاصولياء مُزهرة. مرت إلينور بالقرب من صف من تلك النباتات، وحيّاها بكل احترام مساعدُ البستاني هورليك الذي بقي للمحافظة على ترتيب الحديقة.

- صباح الخير يا آنسة. لقد تلقيتُ رسالتك. ستجدين الباب الجانبي مفتوحاً يا آنسة. لقد فككت واقيات النوافذ وفتحت غالبيتها.

- شكراً لك يا هورليك.

وعندما تحركت لتمضي قال الشاب بارتباك وحنجرته البارزة تعلو وتهبط: عفواً يا آنسة...

استدارت إلينور وقالت: نعم؟

- هل صحيح أن البيت قد بيع؟ أعني هل انتهى الأمر حقاً؟

- آه، نعم.

قال هورليك بارتباك: كنتُ أتساءل يا آنسة إن كان ممكناً أن تقول كلمة عني... أعني للميجر سمرفيل، فهو سيكون بحاجة إلى بستانيين. ربما ظن أنني أصغر من أن أكون كبيراً للبستانيين، ولكني عملت بإمرة السيد ستيفنز لمدة أربع سنوات وأحسب أن لديّ خبرة جيدة، وقد حافظتُ على الحدائق بشكل جيد منذ أن جئتُ إلى هنا، وبمفردي.

قالت إلينور بسرعة: بالطبع سأفعل كل ما أستطيعه من أجلك يا هورليك، والحقيقة أنني نويت أن أذكرك للميجر سمرفيل وأخبره بجودة عملك كبستاني.

غدا وجه هورليك أحمر قانياً وقال: شكراً لك يا آنسة، هذا لطف بالغ منك. لعلك تعلمين أن الأمر جاء أشبه بالصفعة... وفاة السيدة ويلمان ثم بيع المنزل بسرعة، وأنا... والحقيقة أنني كنتُ أنوي الزواج في الخريف القادم، إلاّ أن المرء ينبغي أن يتأكد...

ثم توقف، فقالت إلينور بلطف: أرجو أن يبقيك الميجر سمرفيل. يمكنك الاعتماد عليّ، وسوف أفعل كل ما أستطيعه.

قال هورليك ثانية: شكراً يا آنسة. لقد أملنا جميعاً أن تستمر العائلة بالاحتفاظ بالبيت. شكراً لك يا آنسة.

مضت إلينور تمشي. وفجأة داهمتها -كما يتحدر الماء من سدٍّ منهار- موجة من الغضب، من السخط العنيف الذي اكتسحها.

"لقد أملنا جميعاً أن تستمر العائلة بالاحتفاظ بالبيت"...

كان من شأنها أن تعيش هنا هي ورودي. هي ورودي؟ كان

من شأن رودي أن يرغب بذلك، وكان ذلك ما ترغبه هي أيضاً. فقد أحبّا منزل هَنتربيري على الدوام، كلاهما. يا لهَنتربيري العزيز! في السنوات التي سبقت وفاة والديها، عندما كانوا في الهند، كانت تأتي إلى هنا لقضاء الإجازات. كانت قد لعبت في غابات المنزل ومشت قرب الجدول، وقطفت ملء ذراعيها من أزهار الفاصولياء وأكلت من أنواع التوت العديدة، وفي وقت لاحق كان هناك تفاح... كانت هناك أماكن ومخابئ سرية كانت تجثم فيها مع كتاب تقرأ فيه لساعات.

كانت قد أحبت هَنتربيري، وقد شعرت دوماً بالثقة في قرارة نفسها بأنها ستعيش فيه يوماً ما. وقد رعت العمة لاورا وعزّزت تلك الفكرة، وذلك بكلمات وعبارات صغيرة: قد يعجبك يوماً ما يا إلينور أن تقطعي أشجار الطقسوس تلك، فربما كانت كئيبة قليلاً... يمكن للمرء أن يعمل حديقة للنباتات المائية هنا، ربما عملتِها أنت يوماً ما...

ورودي؟ رودي سبق له أيضاً أن تطلع إلى هَنتربيري كبيت له، وربما استقر ذلك في خلفية شعوره نحوها هي. لقد شعر في اللاوعي أن من المناسب والصحيح أن يكونا معاً في هَنتربيري.

وكان من شأنهما أن يكونا معاً. كان من شأنهما أن يكونا معاً هنا الآن، لا لكي يفرغا المنزل لبيعه، بل ليجدّدا ديكوراته ويخططا لجمال جديد في البيت والحدائق، سائرَيْن جنباً إلى جنب بسعادة رقيقة قانعة، سعيدَين. نعم، سعيدين معاً، لولا ذلك الحدث القاتل، حدث وجود فتاة بجمال وردة برّية!

ما الذي عرفه رودي عن ماري جيرارد؟ لا شيء، بل أقل من لا شيء! ما اهتمامه بها، بماري الحقيقية؟ ربما كانت لها صفات تثير الإعجاب، ولكن هل عرف رودي شيئاً من تلك الصفات؟ إنها

نفس القصة القديمة، النكتة القديمة المكرورة للطبيعة!

ألم يقل رودي نفسه إن الأمر كان «سحراً»؟ ألم يُرِد رودي نفسه حقاً التحررَ من هذا الأمر؟

لو قُدّر لماري جيرارد أن تموت مثلاً، ألن يقول رودي ذات يوم: "لقد كان ذلك أفضل، إنني أعرف ذلك الآن، فلم يكن بيننا أي شيء مشترك"؟ وربما أضاف باكتئاب رقيق: "كانت مخلوقة رائعة".

فلتكن كذلك بالنسبة له. نعم، ذكرى رائعة... شيئاً جميلاً ومتعة تبقى إلى الأبد. إن قُدِّر أن يحدث أي شيء لماري جيرارد فإن رودي سيعود إليها، إلى إلينور... كانت واثقة تماماً من ذلك؛ لو قُدِّر أن يحدث أي شيء لماري جيرارد!

أدارت إلينور قبضة الباب الجانبي وعبرت من ضوء الشمس الدافئ إلى ظل البيت، وارتعدت. هناك شعور بالبرد هنا، بالظلمة، والشر... بدا وكأن شيئاً ما يوجد هنا، ينتظرها، في هذا البيت!

مشت عبر الصالة ودفعت الباب الذي يفضي إلى غرفة الأواني التي يستعملها كبير الخدم. كان في رائحة الغرفة شيء من الرطوبة العفنة، ففتحت النافذة على اتساعها. ثم وضعت أكياسها وفيها الزبدة والخبز الأفرنجي وزجاجة الحليب الصغيرة، وفكرت قائلة لنفسها: يا لي من غبية! لقد نويت إحضار قهوة.

نظرت في القوارير على أحد الرفوف فوجدت في واحدة منها بعض الشاي، ولكن لم تجد قهوة في أي منها. فكرت: حسناً، لا يهم.

ثم أخرجت قارورتَي صلصة السمك الزجاجيتين من الكيس. وقفت تحدق إليهما للحظة، ثم غادرت غرفة الأواني وصعدت

إلى الطابق العلوي. ذهبت مباشرة إلى غرفة السيدة ويلمان فبدأت بالخزانة الطويلة ذات الأدراج؛ فتحت أدراجها، ورتبت، وصنّفت، وطوت الملابس في أكوام صغيرة.

-٣-

في بيت البواب كانت ماري جيرارد تنظر حولها عاجزة. لم تكن قد أدركت مدى صعوبة الأمر حتى تلك اللحظة. تدفقت في خيالها حياتها الماضية كسيل جارف يكتسحها: أمّها وهي تخيط لها ملابس الدمى، وأبوها الغاضب النكد الذي يكرهها دائماً. نعم، يكرهها!

قالت للممرضة هوبكنز فجأة: ألم يقل أبي شيئاً؟ هل أوصى بإبلاغي بأي شيء قبل وفاته؟

قالت الممرضة هوبكنز بمرح وتبلُّد: آه، لا. لقد غاب عن الوعي لمدة ساعة قبل وفاته.

قالت ماري ببطء: أشعر أنه ربما كان عليّ القدوم لرعايته، فهو والدي في نهاية الأمر.

قالت الممرضة وفي أسلوبها أثر من حرج: اسمعيني الآن يا ماري؛ إن مسألة كونه والدك أو غير والدك لا تهم الآن، فالأبناء -كما لاحظت- لا يهتمون كثيراً بآبائهم وأمهاتهم في أيامنا هذه، كما أن العديد من الآباء والأمهات لا يهتمون بأبنائهم أيضاً، الأمر الذي يجعل البلد -كما يبدو لي- مجرد ملجأ أيتام ضخم! ولكنني على أية حال لا أرى فائدة في استرجاع الماضي والتعلق به بكل تلك العاطفية الساذجة. علينا أن نستمر بحياتنا، هذه هي مهمتنا، وهي

ليست بالمهمة السهلة أحياناً!

قالت ماري ببطء: أحسبك على حق. ولكنني أشعر أن الذنب في عدم انسجامنا أنا ووالدي ربما كان مني أنا.

قالت الممرضة هوبكنز بقوة: هراء.

وقد دوّت كلمتها كالقنبلة فقمعت ماري، ثم انتقلت الممرضة إلى مسائل أكثر عملية: ماذا ستفعلين بالأثاث؟ أتخزنينه أم تبيعينه؟

قالت ماري بتردد: لا أدري. ما رأيك أنت؟

قالت الممرضة هوبكنز وهي تُجيل عيناً عملية على الأثاث: إن بعضه جيد تماماً وقوي، فيمكن أن تخزنيه ثم تفرشي به شقة صغيرة لك في لندن ذات يوم. تخلصي من كل ما هو غير صالح. الكراسي جيدة، وكذلك الطاولة. وذلك المكتب رائع. صحيح أنه لم يعد يناسب الذوق في هذه الأيام ولكنه من خشب الماهوغاني القوي، ويقال إن موضة الأثاث الفكتوري ستعود ثانية ذات يوم. لو كنتُ مكانك لتخلصت من تلك الخزانة الضخمة، فهي أكبر من أن توضع في أي مكان وهي تحتل نصف غرفة النوم حالياً.

أعدتا قائمة بما سيخزن وما سيباع من القطع. ثم قالت ماري: لقد كان المحامي لطيفاً جداً معي... أعني السيد سيدون. لقد خصص لي بعض المال كدفعة أولى بحيث أستطيع البدء بدفع رسوم التدريب والنفقات الأخرى، وهو يقول إن الأمر سيستغرق شهراً أو نحو ذلك قبل أن يمكن تحويل المبلغ لي.

- كيف هي محبتك لعملك الجديد؟

- أظنني سأحبه كثيراً. إنه مرهق بعض الشيء في البداية، فأنا

أعود إلى البيت في غاية التعب.

قالت الممرضة هوبكنز بتجهم: لقد ظننتُ أنني سأموت عندما كنتُ أقضي الفترة التجريبية كممرضة في مستشفى سينت لوك؛ شعرت أنني لن أستطيع تحمل ذلك لفترة ثلاث سنوات أبداً، ولكنني تحملتها.

كانتا قد رتبتا ملابس العجوز كلها، وبعد ذلك انتقلتا إلى صندوق معدني مليء بالأوراق. قالت ماري: أحسب أن علينا استعراض هذه الأوراق.

جلست المرأتان متقابلتين على الطاولة. تذمّرت الممرضة وهي تبدأ ذلك برزمة أخذتها من الأوراق: ما أغرب ما يحتفظ به الناس من نفايات! قصاصات صحف ورسائل قديمة وكل ما يخطر على البال!

قالت ماري وقد فتحت وثيقة: ها هي شهادة زواج أبي وأمي، في سينت ألبانز، ١٩١٩...

ثم عادت لتقول بصوت مخنوق: ولكن انظري!

- ما الأمر؟

قالت ماري بصوت متهدج: ألا ترين؟ نحن الآن في عام ١٩٣٩، وأنا في الحادية والعشرين. أي أنني كنت ابنة عام واحد سنة ١٩١٩. هذا يعني... هذا يعني أن والدي ووالدتي لم يتزوجا إلاّ... إلاّ فيما بعد.

تجهم وجه الممرضة وقالت بقوة: حسناً، لا تبدئي القلق حول هذا الأمر.

- ولكنني لا أملك غير ذلك.

قالت الممرضة هوبكنز بكثير من المرجعية: هناك الكثير من الأزواج الذين لا يذهبون إلى الكنيسة إلاّ بعد فترة، ولكن طالما أنهم يذهبون في النهاية فما المشكلة؟ هذا رأيي.

قالت ماري بصوت منخفض: أتظنين أن ذلك هو السبب في عدم محبة والدي لي؟ ربما لأن والدتي جعلته يتزوجها؟

ترددت الممرضة هوبكنز. عضّت شفتها ثم قالت: لا أتصور أن الأمر كان على هذا النحو.

سكتت قليلاً ثم قالت: حسناً، إن كنت ستقلقين لذلك فالأفضل أن تعرفي الحقيقة: أنت لست ابنة جيرارد على الإطلاق.

- هذا هو السبب إذن!

- ربما.

قالت ماري وقد توهجت بقعة حمراء على كل وجنة من وجنتيها: أحسب أن الشعور الذي أحسّ به الآن غير مناسب، ولكنني سعيدة! لقد شعرت دوماً بعدم الارتياح لأنني لم أهتم بوالدي كثيراً، ولكن إن لم يكن والدي فهذا يعني أنه لا لوم عليّ. كيف عرفتِ بذلك؟

- لقد تحدث جيرارد في الموضوع كثيراً قبل موته، وقد أسكتُّه بكل قوّة ولكنه لم يهتم لذلك. ومن الطبيعي أنني ما كنتُ لأقول لك شيئاً لو لم تظهر شهادة الزواج هذه.

قالت ماري متمهلة: إنني أتساءل: من كان والدي الحقيقي؟

ترددت الممرضة هوبكنز. فتحت فمها ثم أغلقته ثانية، وبدا

أنها تجد صعوبة في اتخاذ قرار بشأن نقطة معينة. بعدها سقط ظل على أرضية الغرفة، والتفتت المرأتان لتشاهدا إلينور كارليسل واقفة عند النافذة.

قالت إلينور: صباح الخير.

ردت الممرضة: صباح الخير يا آنسة كارليسل. إنه يوم رائع، أليس كذلك؟

قالت ماري: آه، صباح الخير آنسة إلينور.

قالت إلينور: كنتُ أصنع بعض الشطائر. ألا تأتيان لتناول شيء منها؟ لقد اقتربت الساعة من الواحدة، ومن المزعج أن تعودا إلى البيت لتناول الغداء. لقد تعمدتُ إحضار ما يكفي ثلاثة.

قالت الممرضة هوبكنز بدهشة وسرور: هذا لطف بالغ منك يا آنسة كارليسل، فمن المزعج فعلاً الاضطرار لقطع العمل وقطع كل ذلك الطريق ذهاباً إلى القرية وعودة منها. كنتُ آمل أن ننتهي من عملنا صباحاً، وقد ذهبت وزرت المرضى الذين أعالجهم في وقت مبكر، ولكن إخلاء البيوت يستغرق وقتاً أطول مما يتصوره المرء.

قالت ماري بامتنان: شكراً لك يا آنسة إلينور، هذا لطف بالغ منك.

وهكذا مشت النساء الثلاث على الممشى باتجاه البيت. كانت إلينور قد تركت الباب الأمامي مفتوحاً، فدخلن إلى الصالة الباردة، وارتعدت ماري قليلاً. نظرت إليها إلينور بحدة وقالت: ما الأمر؟

أجابت ماري: آه، لا شيء. إنها مجرد رعشة بسبب الانتقال من وهج الشمس إلى الظل.

قالت إلينور بصوت منخفض: هذا غريب؛ هذا ما شعرتُ به هذا الصباح.

قالت الممرضة بصوت مرح عال رافقته ضحكة: هيا، لن تلبثا أن تزعما أن في البيت أشباحاً. أنا لم أشعر بشيء.

ابتسمت إلينور، ثم قادتهما إلى غرفة الجلوس الصباحي إلى يمين الباب الأمامي. كانت واقيات النافذة مفتوحة وكذلك النافذة نفسها، وبدت الغرفة بهيجة. عبرت إلينور الصالة وأحضرت من غرفة الأواني طبقاً كبيراً عليه الشطائر، فقدمته لماري قائلة: خذي واحدة.

أخذت ماري شطيرة، ووقفت إلينور تراقبها للحظة فيما نهشت الأسنانُ البيضاء المستوية للفتاة الشطيرةَ. حبست نفَسها لحظة ثم أطلقته بتنهيدة صغيرة. وقفت شاردة للحظة وهي تمسك بالطبق عند خصرها، وعندما رأت شفتي الممرضة المنفرجتين قليلاً وتعبير وجهها الجائع خجلت وسارعت لتقديم الطبق لها.

ثم أخذت إلينور نفسها شطيرة، وقالت بشيء من الاعتذار: أردت صنع بعض القهوة، ولكني نسيت إحضار البُنّ معي. هناك زجاجة عصير على المائدة إن كنتما ترغبان بذلك.

قالت الممرضة هوبكنز بحزن: ليتني فكرت بإحضار بعض الشاي معي.

قالت إلينور بشرود: يوجد بعض الشاي على الرف في غرفة الأواني.

انفرجت أسارير الممرضة هوبكنز وقالت: سأقوم بوضع الإبريق على النار إذن. هل يوجد حليب؟

- نعم، أحضرتُ بعض الحليب.

قالت الممرضة: حسناً.

ثم خرجت بسرعة. أصبحت إلينور وماري بمفردهما معاً، فزحف إلى الجو توتر غريب. حاولت إلينور بجهد واضح أن تبدأ حديثاً؛ كانت شفتاها جافتين فمررت لسانها عليهما، ثم قالت بشيء من التصلب: هل تحبين عملك في لندن؟

- نعم، شكراً لك. أنا ... أنا في غاية الامتنان.

صدر عن إلينور صوت أجش مفاجئ؛ ضحكة نشاز جداً أبعد ما تكون عن طبيعتها، بحيث حدقت ماري إليها بدهشة.

قالت إلينور: لا حاجة لأن تكوني ممتنة إلى هذا الحد!

قالت ماري وقد أحست بشيء من الحرج: لم أقصد أي...

ثم سكتت فيما كانت إلينور تحدق إليها بنظرة فاحصة جداً وغريبة جداً إلى الحد الذي تقبّضت به ماري أمام تلك النظرة وقالت: ما الأمر؟

نهضت إلينور بسرعة، ثم قالت وهي تلتفت: لا شيء.

تمتمت ماري: لقد، لقد بدوتِ...

قالت إلينور وهي تطلق ضحكة صغيرة: هل كنتُ أحدّق؟ أنا آسفة جداً. إنني أفعل ذلك أحياناً عندما أفكر بشيء آخر.

أطلت الممرضة هوبكنز من الباب وقالت بمرح: لقد وضعتُ الإبريق على النار.

ثم خرجت ثانية. فانتابت إلينور نوبة مفاجئة من الضحك

وقالت: «بولي وضعت الإبريق، بولي وضعت الإبريق، بولي وضعت الإبريق... جاء وقت الشاي»! هل تتذكرين كيف كنا نلعب هذه اللعبة يا ماري ونحن أطفال؟

- نعم، أذكرها تماماً.

- عندما كنا أطفالاً. إنه لمن المؤسف أن لا يستطيع المرء أبداً العودة إلى الوراء، أليس كذلك يا ماري؟

- هل تحبين العودة إلى الوراء؟

قالت إلينور بقوة: نعم، نعم!

ساد الصمتُ بينهما لفترة. ثم قالت ماري ووجهها يتورد: آنسة إلينور، ينبغي أن لا تظني...

ثم سكتت وقد راعها التصلب المفاجئ لجسد إلينور النحيل والخطّ الصاعد لذقنها. قالت إلينور بصوت بارد شديد الحدة: ما الذي ينبغي أن لا أظنه؟

تمتمت ماري: لقد... نسيت ما كنتُ أريد قوله.

ارتخى جسد إلينور كما لو أن خطراً قد انقضى. ثم دخلت الممرضة هوبكنز حاملة صينية عليها إبريق شاي وحليب وثلاثة فناجين. قالت دون أن تدرك توتر الجو: ها هو الشاي.

وضعت الصينية أمام إلينور، فهزت إلينور رأسها وقالت: أنا لن أشرب.

ثم دفعت الصينية باتجاه ماري، فصبت ماري فنجانين. تنهدت الممرضة هوبكنز بارتياح وقالت: إنه شاي لذيذ وثقيل.

نهضت إلينور واتجهت نحو النافذة. قالت الممرضة في محاولة إقناع: أأنت واثقة من أنك لا تريدين شرب فنجان يا آنسة كارليسل؟

تمتمت إلينور: نعم، شكراً.

شربت الممرضة فنجانها كله، وأعادت الفنجان إلى طبقه الصغير وتمتمت: سأطفئ النار تحت إبريق الماء، لقد تركته خشية أن نحتاج إلى ملء هذا الإبريق الصغير مرة أخرى.

ثم خرجت بسرعة.

استدارت إلينور عند النافذة، وقالت وقد امتلأ صوتها فجأة بتوسل يائس: ماري...

أجابت ماري جيرارد بسرعة: نعم؟

وببطء تلاشى البريق من وجه إلينور، وانغلقت الشفتان، وغاب التوسل اليائس تاركاً مكانه مجرد قناع جامد وساكن. قالت: لا شيء.

هبط الصمتُ ثقيلاً على الغرفة. وفكرت ماري: ما أغرب كل الأمور اليوم! كما لو... كما لو كنا ننتظر شيئاً.

تحركت إلينور أخيراً. جاءت من عند النافذة وحملت صينية الشاي فوضعت عليها طبق الشطائر. قفزت ماري قائلة: آه، دعيني آخذها أنا يا آنسة إلينور.

قالت إلينور بحدة: لا، ابقي هنا؛ سأقوم أنا بذلك.

حملت الصينية إلى خارج الغرفة، والتفتت مرة واحدة لتنظر إلى ماري جيرارد وهي تقف قرب النافذة، شابة، وحيوية، وجميلة.

-٤-

كانت الممرضة هوبكنز في غرفة الأواني، وكانت تجفف وجهها بمنديل. رفعت بصرها بحدة عند دخول إلينور ثم قالت: يا إلهي! الجو حار هنا.

أجابت إلينور بشكل آلي: نعم، فغرفة الأواني تواجه الجنوب.

أخذت الممرضة الصينية منها وقالت: دعيني أغسل الأطباق يا آنسة كارليسل. إنك لا تبدين على طبيعتك تماماً.

قالت إلينور: آه، أنا بخير.

ثم أخذت قطعة قماش وقالت: سأجفف أنا الأواني.

رفعت الممرضة أكمامها وصبت ماء حاراً من الإبريق في الحوض. قالت إلينور دون اهتمام وهي تنظر إلى معصم الممرضة: لقد وخزك شيء.

ضحكت الممرضة وقالت: إنها شَوْكة من عريشة الورد قرب بيت البوّاب. سأخرجها حالاً.

عريشة الورد عند بيت البواب... انهمرت الذكرى على إلينور كالأمواج: هي ورودي يتشاجران... «حروب الورود»! هي ورودي يتشاجران، ثم يتصالحان. أيام ضحك وسعادة رائعة. اجتاحتها موجة من المقت الكريه. ما الذي وصلت إليه الآن؟ أية هاوية سوداء من الكراهية، من الشر! ترنحت قليلاً وهي تقف. وفكرت قائلة لنفسها: لقد كنتُ مجنونة، مجنونة تماماً.

كانت الممرضة هوبكنز تحدق إليها بفضول. (وقد وصفت الممرضة حالها لاحقاً بقولها: لقد بدت غريبة تماماً؛ تتكلم وكأنها لا تعرف ما الذي تقوله وعيناها شديدتا اللمعان والغرابة).

طقطقت الفناجين والصحون في الحوض. أخذت إلينور قارورة فارغة لصلصة السمك عن المائدة ووضعتها في الحوض، وقالت وهي تفعل ذلك وهي تعجب من ثبات صوتها: لقد رتبتُ بعض ملابس العمة لاورا في الطابق العلوي، وأحسب أنكِ ربما ساعدتِني باقتراح مَن يمكن أن يستفيد منها في القرية.

قالت الممرضة هوبكنز بسرعة: نعم؛ هناك السيدة باركينسن، والعجوز نيلي، وتلك المخلوقة المسكينة التي ذهب عقلها وتسكن في أيفي كوتيج. ستكون الملابس نعمة تنزل عليهم.

قامت هي وإلينور بتنظيف غرفة الأواني ثم صعدتا إلى الطابق العلوي معاً. وفي غرفة السيدة ويلمان كانت الملابس مرتَّبة في مجموعات: ملابس داخلية، وأثواب، ومُلحقات أنيقة، وأرواب مخملية، ومعطف فراء. قالت إلينور إنها تنوي إعطاء ذلك المعطف للسيدة بيشوب، ووافقتها الممرضة هوبكنز بإيماءة من رأسها.

لاحظت الممرضة أن ملابس حداد السيدة ويلمان كانت موضوعة على الصندوق ذي الأدراج، وفكرت مع نفسها قائلة: إنها ستعيد تفصيلها لاستعمالها هي.

ألقت نظرة على خزانة الأدراج الضخمة، وتساءلت إن كانت إلينور قد عثرت على تلك الصورة المذيلة بتوقيع «لويس»، وإذا كانت قد وجدتها فماذا فهمت منها؟ ثم فكرت مع نفسها قائلة: غريب كيف تزامنت رسالة أوبرايان مع رسالتي. لم أحلم بإمكانية حدوث

أمر كهذا؛ أن تشير إلى موضوع الصورة في نفس اليوم الذي كتبتُ لها به عن السيدة سلاتري وما قالته.

ساعدت إلينور في ترتيب الملابس، وتطوعت في رَزْمها في رُزَم منفصلة للعائلات المختلفة، وأشرفت بنفسها على توزيع الملابس على تلك الرزم. قالت: أستطيع المضي في إنجاز هذا الأمر بينما تذهب ماري إلى بيت البواب وتنهي عملها هناك، لم يعد لديها سوى صندوق من الأوراق ترتبه. أين هي بالمناسبة؟ هل ذهبت إلى بيت البواب؟

قالت إلينور: لقد تركتها في غرفة جلوس الصباح.

- لا يُعقل أن تبقى هناك كل هذا الوقت.

ثم نظرت إلى ساعتها وقالت: لقد مرت ساعة تقريباً على وجودنا هنا في الطابق العلوي.

ثم نزلت الدرج ووراءها إلينور. ذهبتا إلى غرفة جلوس الصباح، حيث هتفت الممرضة هوبكنز: ما هذا؟ لقد نامت.

كانت ماري جيرارد تجلس في كرسي ضخم قرب النافذة وقد غطست به قليلاً، وكان في الغرفة صوت غريب، صوت تنفس مجهد ثقيل. ذهبت الممرضة إلى الفتاة وهزتها قائلة: استيقظي يا عزيزتي.

ثم سكتت. انحنت عليها وفتحت أحد جفنيها، ثم بدأت تهزّ الفتاة بقوة وهي عابسة. استدارت إلى إلينور، وكان في صوتها شيء من التهديد حين قالت: ما هذا كله؟

قالت إلينور: لا أدري ماذا تعنين. أهي مريضة؟

قالت الممرضة هوبكنز: أين الهاتف؟ اتصلي بالدكتور لورد

بأسرع ما يمكن.

قالت إلينور: ما الأمر؟

- الأمر؟ الفتاة مريضة. إنها تموت!

عادت إلينور خطوة إلى الوراء وقالت: تموت؟

قالت الممرضة هوبكنز: لقد تم تسميمها.

وحدقت عيناها بإلينور وقد تصلبتا شكاً وارتياباً.

* * *

الجزء الثاني

الفصل الأول

مال رأس هيركيول بوارو جانباً وارتفع حاجباه تساؤلاً واشتبكت أصابعه، وراقب الشاب الذي كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بعنف وقد تجهم وجهه المنمَّش الوسيم. قال هيركيول بوارو: حسناً يا صديقي، ما الأمر؟

توقف بيتر لورد فجأة عن مشيه وقال: سيد بوارو، إنك الرجل الوحيد في العالم الذي يمكنه مساعدتي. لقد سمعتُ ستيلنغفليت يتحدث عنك، وقد أخبرني بما فعلتَ في قضية بينيدكت فارلي وكيف ظن جميع الناس أنها قضية انتحار بينما أثبتَّ أنت أنها جريمة قتل.

قال هيركيول بوارو: ألديك -إذن- حالة انتحار بين مرضاك لم تقتنع بها؟

هز بيتر لورد رأسه بالنفي، ثم جلس مقابل بوارو وقال: لقد اعتُقلت شابة وستُحاكم بتهمة القتل، وأريد منك أن تجد دليلاً يثبت براءتها.

ارتفع حاجبا بوارو أكثر من ذي قبل، ثم ارتسمت على وجهه ملامح رجل التحري وقال: ألأنت وهذه الشابة مخطوبان؟

ضحك بيتر لورد ضحكة حادة مريرة وقال: لا، ليس الأمر

كذلك. إن لها من الذوق السيء ما جعلها تفضّل حماراً متعجرفاً طويل الأنف ذا وجه أشبه بحصان حزين! غباء منها، ولكن هذا هو ما جرى.

قال بوارو: فهمت.

قال لورد بحدّة: نعم، طبعاً فهمتَ تماماً! لا حاجة للموارية في ذلك، لقد وقعتُ في حبها مباشرة، ولذلك فإنني لا أريدها أن تُشنَق. أفهمت؟

- ما هي التهمة ضدها؟

- إنها متهمة بقتل فتاة تدعى ماري جيرارد، بتسميمها بهيدروكلورايد المورفين. ربما قرأتَ التقرير عن جلسة التحقيق في الصحف.

- وما هو الدافع؟

- الغيرة.

- وأنت ترى أنها لم تفعل ذلك؟

- نعم، لم تفعل ذلك طبعاً.

نظر إليه بوارو متأملاً للحظات ثم قال: ما الذي تريد مني فعله بالضبط؟ أن أتحرى في هذه القضية؟

- أريدك أن تنقذها.

- أنا لست هيئة الدفاع يا عزيزي.

- سأوضح الأمر بشكل أكبر: أريدك أن تحصل على الدليل الذي يمكّن هيئة الدفاع من إنقاذها.

قال هيركيول بوارو: لقد عبّرت عن الأمر بطريقة غريبة قليلاً.

- أتعني لأنني لم أوارب في المسألة؟ إن الأمر يبدو لي بسيطاً تماماً. أريد لهذه الفتاة أن تُبرّأ، وأحسب أنك الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك.

- أتريد مني أن أتعمق في حقائق القضية؟ أن أعثر على الحقيقة؟ أن أكتشف حقيقة ما حدث؟

- أريدك أن تعثر على أية حقائق يمكن أن تكون في صالحها.

قال بوارو بتمهل ودقّة: ولكن ألا يفتقر ما تقوله قليلاً إلى البعد الأخلاقي؟ أن أصل إلى الحقيقة؟ نعم؛ فلطالما أثار ذلك اهتمامي. ولكن الحقيقة سلاح ذو حدين، فماذا لو وجدت حقائق ضد هذه الفتاة؟ أتطلب مني أن أخفيها؟

وقف بيتر لورد وقد شحب وجهه تماماً وقال: هذا مستحيل؛ فلا يمكن لأي شيء تجده أن يكون ضدها أكثر من الحقائق الموجودة حالياً! إنها حقائق تدينها كلياً وبشكل كامل. هناك قَدْر كبير من الدلائل الواضحة ضدها مما يمكن لأي امرئ أن يراه، ولا يمكن أن تجد شيئاً يدينها أكثر مما هي مُدانة به أصلاً. إنني أطلب منك استعمال كل عبقريتك (وقد وصفك ستيلفليت بأنك عبقري) بغية العثور على ثغرة، على بديل ممكن.

- لا شك أن المحامين الذين يدافعون عنها سيفعلون ذلك؟

- أحقاً؟

ضحك الشاب بازدراء وأكمل قائلاً: لقد هُزموا قبل أن يبدؤوا. إنهم يرون القضية ميؤوساً منها! لقد أطلعوا بولمر على حقائق

القضية، الرجل الذي فقد الأمل، وهذا بحد ذاته يشكل تخلياً عن القضية! إنه خطيب بارع، بارع في الكلام العاطفي الساذج ويركّز على شباب السجينة وغير ذلك... ولكن القاضي لن يدعه ينجح بمثل هذه الوسائل. ليس هناك أي أمل في هذا الأسلوب.

- لنفترض أنها مذنبة. أتريد تبرئتها رغم ذلك؟

قال بيتر لورد بهدوء: نعم.

تململ بوارو في مقعده وقال: إنك تثير اهتمامي.

وبعد دقيقة أو اثنتين قال: أحسب أن من الأفضل أن تروي لي حقائق القضية.

- ألم تقرأ شيئاً عنها في الصحف؟

لوح هيركيول بوارو بيده وقال: قرأت إشارة عنها، ولكن الصحف تفتقر إلى الدقة، وأنا لا أعتمد على ما تقوله أبداً.

قال بيتر لورد: القضية بسيطة تماماً، بسيطة إلى درجة مخيفة. فهذه الفتاة، إلينور كارليسل، كانت قد ورثت لتوها بيتاً قريباً من هنا يُدعى هَنتربيري هول، وثروة من عمتها التي ماتت دون أن تكتب وصية. كان اسم العمة ويلمان، وكان للعمة ابن أخٍ لزوجها اسمه روديريك ويلمان، وكان خطيباً لإلينور كارليسل... علاقة طويلة، فقد تعارفا منذ الطفولة. وقد كانت في هَنتربيري فتاة اسمها ماري جيرارد، وهي ابنة البواب. وكانت السيدة ويلمان العجوز قد أحبتها ودفعت تكاليف تعليمها، إلى آخر ذلك. وكانت النتيجة أن الفتاة بدت -في مظهرها الخارجي- كأنها ليدي، ويبدو أن روديريك ويلمان قد وقع في حبها ونتيجة لذلك تم فسخ الخطبة. والآن نأتي إلى مجريات الموضوع؛ فقد عرضت إلينور كارليسل البيت للبيع

واشتراه رجل يدعى سمرفيل، وذهبت إلينور إلى البيت لتخلي أغراض عمتها الشخصية وغير ذلك. وكانت ماري جيرارد (التي كان والدها قد توفي لتوّه) تُخلي أيضاً بيت البوّاب الذي كان يسكنه، وهذا يقودنا إلى صباح السابع والعشرين من تموز (يوليو). كانت إلينور كارليسل تنزل في الفندق المحلي، وفي الشارع التقت بمدبرة المنزل السابقة، السيدة بيشوب. وقد عرضت السيدة بيشوب عليها أن تذهب معها إلى البيت لمساعدتها، ولكن إلينور رفضت... وبشيء من الحماسة الزائدة. ثم ذهبت إلى محل البقال واشترت بعضاً من صلصة السمك، وهناك أبدت ملاحظة حول التسمم الغذائي. أترى؟ إنه عمل بريء جداً، ولكنه استُخدِم ضدها! ثم ذهبت إلى البيت، وفي نحو الساعة الواحدة نزلت إلى بيت البواب حيث كانت ماري جيرارد مشغولة مع ممرضة المقاطعة (وهي امرأة متطفلة ذات كَيْد تدعى هوبكنز) وكانت تساعدها، وأخبرتهما إلينور أن لديها بعض الشطائر الجاهزة في البيت، فذهبتا معها إلى المنزل، وتناول الجميع من الشطائر. وبعد ساعة أو نحوها تم الإرسال في طلبي لأجد ماري جيرارد فاقدة الوعي، حيث فعلتُ كل ما في وسعي ولكن دون فائدة. وقد أظهر التشريح وجود جرعة ضخمة من المورفين تم تناولها قبل فترة قصيرة، وقد وجد الشرطة مزقة من الورق الذي يلصق على زجاجات الدواء كُتب عليها «هايدروكلوريد المورفين» في نفس المكان الذي كانت إلينور تحضّر فيه الشطائر.

- ما الذي أكلته ماري جيرارد أو شربته غير ذلك؟

- شربت هي وممرضة المقاطعة الشاي مع الشطائر، وقد أعدّت الممرضة الشاي وصبته ماري. لا يمكن أن يكون في الشاي شيء. لقد فهمتُ بالطبع أن محامي الدفاع سيجعل من قضية الشطائر

قضية يهلل لها ويرقص، قائلاً إن الثلاثة قد تناولوا منها ولذلك فمن المستحيل ضمان تسمم شخص واحد، لقد قالوا ذلك في قضية هيرن إن كنت تذكر.

أومأ بوارو برأسه ثم قال: ولكن الأمر بسيط جداً عملياً؛ فأنت تُحضِّر مجموعة من الشطائر، وفي واحدة منها يكون السم. ثم تقدم الطبق، وفي حالة التحضر التي نعيشها من الطبيعي أن يأخذ المرء الشطيرة الأقرب إليه. أحسب أن إلينور كارليسل قد قدمت الطبق إلى ماري جيرارد بداية؟

- بالضبط.

- لا يبدو هذا جيداً جداً.

- ولكنه لا يعني شيئاً حقاً، فالمرء لا يحفل كثيراً بالرسميات في غداء سريع في أثناء نزهة.

- من الذي قطع الشطائر؟

- إلينور كارليسل.

- هل كان في البيت أحد غيرها؟

- لا أحد.

هز بوارو رأسه وقال: هذا وضع سيء. والفتاة لم تتناول إلاّ الشاي والشطائر؟

- أبداً، ومحتويات المعدة تؤكد ذلك.

- وهل قيل إن إلينور كارليسل كانت تأمل أن تُعزا وفاة الفتاة إلى التسمم الغذائي. ولكن كيف كانت ستفسّر حقيقة أن واحدة فقط

من المشارِكات في الوليمة قد أصابها أثر السم؟

قال بيتر لورد: الأمر يحصل على هذا النحو أحياناً. وأيضاً كانت هناك قارورتان من الصلصة لا يبدو بينهما أي فرق من حيث المظهر، والفكرة أن واحدة من القارورتين كانت فاسدة وذات أثر مسمِّم، أما الأخرى ففي حالة جيدة، ولعل ماري قد تناولت -بالمصادفة- الصلصة المميتة كلها.

- يا لها من دراسة ممتعة في قانون الاحتمالات! إن الاحتمالات الحسابية ضد هذه الفرضية كبيرة جداً فيما أحسب. وثمة نقطة أخرى: لو كان التسمم الغذائي هو ما سيُقترَح، فلماذا لم يتم اختيار سم مختلف؟ إن أعراض التسمم بالمورفين لا تشبه أعراض التسمم الغذائي بأي حال، ولا ريب أن الأتروبين سيكون خياراً أفضل في هذه الحالة.

قال بيتر لورد ببطء: نعم، هذا صحيح. ولكن هناك شيئاً آخر. فممرضة المقاطعة التعيسة تلك تقسم أنها أضاعت أنبوبة مورفين.

- متى؟

- قبل ذلك بأسابيع، في الليلة التي توفيت فيها السيدة ويلمان. قالت الممرضة إنها تركت حقيبتها في الصالة، ثم اكتشفت في صباح اليوم التالي أنها قد فقدت أنبوبة مورفين. أحسب ذلك كله هراء. ربما كسرتها في البيت قبل وقت طويل من ذلك ونسيت أمرها.

- ألم تتذكر ذلك إلاّ بعد موت ماري جيرارد؟

قال بيتر لورد متردداً: الحقيقة أنها قد ذكرتها وقتها بالفعل... للممرضة الأخرى في البيت.

كان هيركيول بوارو ينظر إلى بيتر لورد بشيء من الاهتمام، ثم قال بلطف: أظن أن هناك شيئاً آخر يا عزيزي، شيئاً لم تخبرني به بعد.

- آه، حسناً. أحسب أن من الأفضل أن تعرف كل شيء. لقد قدموا طلباً لاستخراج جثة السيدة ويلمان وتشريحها.

- حسناً؟

- وعندما يشرّحونها ربما وجدوا ما يبحثون عنه... المورفين.

- وأنت تعرف ذلك؟

تمتم بيتر لورد وقد شحب وجهه تحت النمش الذي يغطيه: لقد شككت فيه.

ضرب بوارو بقبضته على ذراع كرسيه وصاح: إنني لا أفهمك! كنت تعرف عندما ماتت أنها قد قُتلت قتلاً؟

صاح بيتر لورد: يا إلهي، لا؛ لم أحلم بشيء كهذا! لقد ظننت أنها تناولت ذلك بنفسها.

عاد بوارو ليغرق في كرسيه وقال: آه، ظننتَ ذلك؟

- طبعاً ظننتُ ذلك. كانت قد تحدثت معي في الأمر، سألتني أكثر من مرة إن كنتُ أستطيع «تخليصها»؛ فقد كرهت المرض والعجز، وما أسمته مرة «إذلال التمدد هناك لكي يُعتنى بها كطفل». لقد كانت امرأة شديدة الكبرياء.

سكت لحظة ثم مضى يقول: لقد دهشتُ لموتها لأنني لم أكن أتوقعه، فأرسلتُ الممرضة خارج الغرفة وقمت بفحص شامل بقدر استطاعتي، وبالطبع فقد كان من المستحيل التأكد دون تشريح. ولكن

ما الفائدة التي تُرجى من ذلك؟ إن كانت قد اختارت أقصر الطرق فلماذا التشهير وإثارة فضيحة؟ من الأفضل توقيع شهادة الوفاة ودفنها لترقد بسلام. وأنا -في نهاية الأمر- لم أكن متأكداً. أحسب أن قراري كان خاطئاً، ولكنني لم أحلم للحظة واحدة بوجود جريمة. كنت متأكداً تماماً أنها فعلت ذلك بنفسها.

سأل بوارو: كيف تظن أنها حصلت على المورفين؟

- لا أدري، ولكنها كانت امرأة ذكية واسعة الحيلة وتملك الكثير من العبقرية والتصميم الشديد.

- أيمكن أن تكون قد حصلَت عليه من الممرضتين؟

هز بيتر لورد رأسه بالنفي وقال: مستحيل تماماً؛ أنت لا تعرف الممرضات.

- من أفراد أسرتها؟

- ربما، ربما لعبت بمشاعرهم واستدرّت عطفهم.

قال هيركيول بوارو: لقد أخبرتني أن السيدة ويلمان ماتت دون وصية. هل كان من شأنها أن تكتب وصية لو عاشت؟

ضحك بيتر لورد فجأة وقال: إنك تضع إصبعك بدقّة شيطانية على كل النقاط الحيوية، أليس كذلك؟ نعم، كانت تريد كتابة وصية، وكانت متلهفة جداً على ذلك. لم تستطع التكلم بشكل مفهوم ولكنها أوضحت رغباتها بشكل واضح. كان على إلينور كارليسل أن تخابر المحامي في أول فرصة عند الصباح.

- إذن فقد عرفت إلينور كارليسل أن عمتها أرادت كتابة وصية؟ وإذا توفيت عمتها دون كتابة وصية فسوف ترث هي كل شيء،

أليس كذلك؟

سارع بيتر لورد للقول: لم تكن تعرف ذلك؛ لم تكن تعرف أن عمتها لم تكتب وصية.

- هذا ما تقوله هي يا صديقي. ربما كانت قد عرفت.

- هل أنت المدّعي العام؟

- في الوقت الحاضر؟ نعم. ينبغي أن أعرف القوة الكاملة للدلائل التي تدينها. هل كان بوسع إلينور كارليسل أن تأخذ المورفين من حقيبة الممرضة؟

- نعم، وكان ذلك بوسع الجميع: روديريك ويلمان، والممرضة أوبرايان، وأي واحد من الخدم.

- أو الدكتور لورد؟

انفتحت عينا الدكتور لورد على اتساعهما وقال: بالتأكيد. ولكن ما الهدف من ذلك؟

- ربما الشفقة.

هز بيتر لورد رأسه بالنفي وقال: لا شأن لي بذلك؛ لا بد أن تصدقني.

عاد بوارو ليتكئ في كرسيه ثم قال: دعنا نفكر في افتراض معين: لنقل إن إلينور قد أخذت بالفعل ذلك المورفين من حقيبة الممرضة وقامت بدسّه لعمتها. هل قيل أي شيء عن فقدان المورفين؟

- لم يُقَل شيء لأهل البيت؛ لقد احتفظت الممرضتان بالأمر لنفسيهما.

- برأيك ما الذي ستتخذه المحكمة من إجراءات؟

- أتعني إذا عُثِر على المورفين في جثة السيدة ويلمان؟

- نعم.

قال بيتر لورد عابساً: يُحتمل -إذا ما بُرِّئت إلينور من التهمة الحالية- أن يُعاد اعتقالها واتهامها بقتل عمتها.

قال بوارو متأملاً: لكن الدوافع مختلفة؛ أي أن من شأن الدافع في حالة السيدة ويلمان أن يكون الكسب، بينما يكون الغيرة في حالة ماري جيرارد.

- صحيح.

- ما هي الخطة التي تعتزم هيئة الدفاع تبنيها؟

- يعتزم بولمر تبني الخط القائل بعدم توفر دافع. سيطرح نظرية مفادها أن الخطبة بين إلينور ورودريك كانت مسألة عائلية، لم تتم إلاّ لأسباب عائلية ولإرضاء السيدة ويلمان، وأن إلينور فسخت الخطبة من تلقاء نفسها بمجرد وفاة السيدة ويلمان. وسيقدم رودريك ويلمان شهادة تدعم ذلك، وأظنه يكاد يصدِّقها!

- يصدق أن إلينور لم تكن تهتم به كثيراً؟

- نعم.

- وفي تلك الحالة لن يكون هناك سبب لتقتل ماري جيرارد؟

- بالضبط.

هز بوارو رأسه وقال: هذا صعب.

قال بيتر لورد بحماسة: هذه هي القضية بالضبط. فإن لم تكن

قد فعلتها هي، فمن فعلها؟ هناك الشاي، ولكن الممرضة وماري شربتا منه كلاهما. سيحاول الدفاع القول إن ماري جيرارد قد تناولت المورفين بنفسها بعد أن غادرت المرأتان الغرفة، أي أنها قد انتحرت في الحقيقة.

- هل لديها أي دافع للانتحار؟

- لا، أبداً.

- هل كانت من النوع الانتحاري؟

- لا.

- كيف كانت ماري جيرارد هذه؟

فكر بيتر لورد ثم قال: كانت... كانت طفلة لطيفة. نعم، طفلة لطيفة بالتأكيد.

تنهد بوارو وقال: وروديريك ويلمان هذا، هل وقع في حبها لأنها كانت طفلة لطيفة؟

ابتسم بيتر لورد وقال: آه، فهمتُ ما تعنيه. لقد كانت جميلة تماماً أيضاً.

- وأنت شخصياً، أكانت لديك مشاعر تجاهها؟

حدق بيتر لورد إليه وقال: يا إلهي! لا.

فكر هيركيول بوارو للحظات ثم قال: يقول روديريك ويلمان إنه كان هناك تعلقٌ بينه وبين إلينور كارليسل، ولكن ليس أكثر من ذلك. هل توافق على ذلك؟

- وما أدراني بالله عليك؟

هز بوارو رأسه وقال: لقد قلتَ لي عندما جئتَ إلى هذه الغرفة إن لإلينور كارليسل من الذوق السيء ما جعلها تفضّل حماراً متعجرفاً طويل الأنف، وأظن أن هذا هو وصف روديريك ويلمان. ولذلك فإنها -حسب رأيك- تحبه بالفعل.

قال بيتر لورد بصوت منخفض مرهَق: إنها تحبه تماماً، تحبه بجنون!

- لقد كان لديها دافع إذن؟

استدار بيتر لورد باتجاهه ووجهه يشتعل غضباً وقال: وهل يهم ذلك؟ ربما كانت قد فعلتها، نعم، ولا يهمني إن فعلتها.

- آها!

- ولكنني أقول لك إنني لا أريدها أن تُشنَق! ماذا لو وصلت إلى حالة اليأس؟ إن الحب مسألة يائسة مُعذِّبة، يمكن له أن يجعل النكرة إنساناً رائعاً ويمكن أن يهوي بالشريف إلى الحضيض! ماذا لو فعلتها. أليست لديك أية شفقة؟

قال هيركيول بوارو: أنا لا أُقرّ القتل.

حدق إليه بيتر لورد، ثم أشاح بنظره، ثم حدّق ثانية، ثم انفجر ضاحكاً أخيراً وقال: ألم تجد قولاً غير هذا؟ وتقوله بكل رسمية ورضا عن الذات أيضاً! مَن الذي طلب منك أن تقرّ القتل؟ أنا لا أطلب منك أن تكذب. إن الحقيقة هي الحقيقة، أليس كذلك؟ إن وجدت شيئاً لصالح امرئ متّهَم فلا أظنك ستميل إلى إخفائه لمجرد أنه مذنب، أليس كذلك؟

- لن أخفيه بالتأكيد.

- لماذا بالله عليك لا تستطيع أن تفعل ما أطلبه منك إذن؟

قال هيركيول بوارو: يا صديقي، إنني مستعد لفعل ذلك تماماً.

* * *

الفصل الثاني

نظر بيتر لورد إليه، ثم أخرج منديلاً فمسح به وجهه ورمى نفسه على كرسي قائلاً: آه، لقد استنزفتني! لم أفهم ما الذي كنتَ ترمي إليه.

قال بوارو: كنت أتفحص حجم الدلائل التي تجرّم إلينور كارليسل، وأنا أعرفها الآن. لقد تم دس المورفين لماري جيرارد، وكما أرى فلا بد أنه قد دُسَّ في الشطائر. ولم يلمس أحدٌ تلك الشطائر باستثناء إلينور كارليسل، ولإلينور كارليسل دافع لقتل ماري جيرارد، وهي برأيك قادرة على قتل ماري جيرارد، وأغلب الاحتمال أنها قد قتلت ماري جيرارد فعلاً. لا أرى سبباً لتصديق احتمال غير هذا، وهذا جانب واحد من القضية يا صديقي. والآن سنستعرض الجانب الثاني؛ سوف نستبعد كل تلك الاعتبارات من عقلنا وننظر إلى القضية من الزاوية المقابلة: إن لم تقتل إلينور كارليسل ماري جيرارد فمَن قتلها؟ أم أن ماري جيرارد قد انتحرت؟

اعتدل بيتر لورد في جلسته وقد تغضن جبينه وقال: لم تكن دقيقاً تماماً الآن.

- أنا؟ لستُ دقيقاً؟!

بدا بوارو وكأنه قد شعر بإهانة، ولكن بيتر لورد مضى قائلاً

بقسوة: نعم؛ لقد قلت إن أحداً غير إلينور لم يلمس تلك الشطائر، ولكنك لا تعرف ذلك.

- لم يكن في البيت أحد غيرها.

- هذا على قدر ما نعرفه. ولكنك تستثني فترة قصيرة من الوقت؛ لقد كان هناك وقت غادرت إلينور خلاله البيت لتذهب إلى بيت البواب، وخلال تلك الفترة كانت الشطائر في طبق في غرفة الأواني، ويمكن لشخص ما أن يكون قد عبث بها.

استنشق بوارو نفَساً عميقاً وقال: أنت على صواب يا صديقي، أعترف بذلك. لقد مضى بالفعل وقت كان يمكن خلاله لأي كان أن يصل إلى طبق الشطائر. ينبغي أن نحاول تكوين فكرة عمّن عساه يكون؛ أيّ نوع من الأشخاص...

توقف قليلاً ثم قال: دعنا نفكر في أمر ماري جيرارد هذه. لقد رغب أحدهم (أعني شخصاً غير إلينور) في موتها. لماذا؟ هل يستفيد أحد من موتها؟ هل لديها مال تورِّثه؟

هز بيتر لورد رأسه بالنفي وقال: لم يكن لديها وقتها. كان من شأنها أن تستلم ألفي جنيه بعد مرور شهرين، كانت إلينور ستعطيها ذلك المبلغ لأنها اعتقدت أن تلك كانت رغبة عمتها، ولكن تركة العجوز لم تتم تصفيتها بعد.

- إذن فسوف نستبعد الدافع المالي. أنت تقول إن ماري جيرارد كانت جميلة، وعادة ما تأتي تعقيدات بسبب ذلك. أكان لها معجبون؟

- ربما، أنا لا أعرف الكثير عن هذا الأمر.

- من يمكن أن يعرف؟

ضحك بيتر لورد وقال: الأفضل أن أحيلك إلى الممرضة هوبكنز، فهي وكالة أنباء البلدة وتعرف كل ما يدور في ميدنزفورد.

- كنت أنوي الطلب منك أن تعطيني انطباعاتك عن كلتا الممرضتين.

- الممرضة أوبرايان إيرلندية، وهي ممرضة جيدة وإن تكن سخيفة بعض الشيء، ويمكن أن تكون مناكفة، ولعلها تكذب قليلاً. إنها من النوع الخيالي الذي لا يكون دافعه المكر بقدر ما هو الرغبة في اختلاق قصة مشوقة من كل أمر.

أومأ بوارو برأسه، ومضى الطبيب قائلاً: هوبكنز امرأة واعية ذكية في منتصف عمرها، لطيفة وجادة تماماً، ولكنها تهتم بأمور الآخرين كثيراً.

- إن كانت في القرية مشكلة لشاب فهل من شأن الممرضة هوبكنز أن تعرف بها؟

- بلا شك.

ثم أضاف بتمهل: ولكنني لا أرى احتمال وجود شيء واضح في هذا السياق، إذ لم يكن قد مرّ وقت طويل على عودة ماري من الخارج، وكانت قبل ذلك مسافرة في ألمانيا لمدة سنتين.

- كانت في الحادية والعشرين من عمرها؟

- نعم.

- ربما وجدنا في ألمانيا عنصر تعقيد.

تهلل وجه بيتر لورد وقال بلهفة: أتعني أن شخصاً ألمانياً ربما كان يضمر لها الشر، وأنه ربما لحق بها إلى هنا وانتظر فرصته ثم وصل إلى هدفه في النهاية؟

قال هيركيول بوارو بارتياب: يبدو هذا احتمالاً ميلودرامياً بعض الشيء.

- ولكنه ممكن؟

- ليس محتمَلاً كثيراً.

- لا أتفق معك. ربما كان أحدهم قد تعلق بالفتاة تعلقاً شديداً وغضب عندما صدّته، وربما تخيل أنها عاملته بشكل سيء. إنها فكرة.

قال بوارو: إنها فكرة، نعم.

ولكن نبرته لم تكن مشجعة، فقال بيتر لورد متوسلاً: استمر يا سيد بوارو.

- أرى أنك تريدني أن أكون ساحراً؛ أن أُخرج لك من قبعة فارغة أرنباً بعد أرنب.

- يمكنك اعتبار الأمر على هذا النحو إن أردت.

قال بوارو: هناك احتمال آخر.

- هيّا قله.

- لقد أخذ أحدهم أنبوبة المورفين من حقيبة الممرضة هوبكنز في تلك الليلة في شهر حزيران (يونيو)، فماذا لو أن ماري جيرارد رأت الشخص الذي أخذها؟

- كان من شأنها أن تقول ذلك.

- لا، لا يا عزيزي. كن واقعياً. إن كانت إلينور كارليسل أو روديريك ويلمان أو الممرضة أوبرايان أو أي واحد من الخدم قد فتح تلك الحقيبة وأخرج منها أنبوبة زجاجية صغيرة، فما الذي سيظنه أي امرئ يراه؟ سيظن -ببساطة- أن ذلك الشخص قد ذهب لإحضار شيء من حقيبة الممرضة بطلب منها، ومن شأن ماري جيرارد في هذه الحالة أن تنسى الموضوع مباشرة بعد ذلك. ولكن ربما عادت لاحقاً وتذكرت الحادثة، وربما ذكرتها عرَضاً أمام الشخص المعني ودون أي ارتياب أبداً، ولك أن تتخيل تأثير مثل هذه الملاحظة على شخص مذنب بقتل السيدة ويلمان. سيقول في نفسه إن ماري قد رأت، ولذلك فإن ماري ينبغي أن تُسكَت بأي ثمن! وأؤكد لك -يا صديقي- أن من ارتكب جريمة قتل سيجد ارتكاب جريمة قتل أخرى مسألة سهلة جداً.

قال بيتر لورد عابساً: لقد اعتقدتُ طوال الوقت بأن السيدة ويلمان قد تناولت السم بنفسها.

- ولكنها كانت مشلولة، عاجزة؛ كانت قد تعرضت لتوها لسكتة دماغية ثانية.

- آه، أعرف. كانت فكرتي هي أنها -بعد حصولها على المورفين بشكل أو بآخر- قد احتفظت به بالقرب منها في إناء ما في متناول يدها.

- ولكن لا بد في هذه الحالة أن تكون قد حصلت على المورفين قبل نوبتها الثانية، والممرضة لم تفقده إلاّ فيما بعد.

- ربما لم تلحظ هوبكنز فقدان المورفين إلاّ صباح ذلك اليوم،

ولكن ربما أُخِذ قبل يومين من ذلك دون أن تلاحظ الممرضة.

- وكيف يمكن للعجوز أن تحصل عليه؟

- لا أدري. ربما بواسطة إحدى الخادمات، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الخادمة لن تتكلم أبداً.

- ألا تظن أن أياً من الممرضتين يمكن أن تُرشى؟

هز بيتر لورد رأسه نافياً وقال: مستحيل؛ فهما متزمتتان جداً فيما يخص أخلاقيات المهنة، بالإضافة إلى أنهما كانتا ستموتان رعباً من مثل هذا الأمر، فهما تدركان خطورة ذلك عليهما.

قال بوارو متأملاً: صحيح. ألا يبدو الأمر وكأننا نعود إلى حيث بدأنا؟ من هو الشخص الذي يُرجَّح أن يكون قد أخذ أنبوبة المورفين تلك؟ إلينور كارليسل. يمكننا القول إنها رغبت في التأكد من وراثتها لثروة ضخمة. ويمكن أن نكون أكثر رأفة ونقول إن دافعها كان الشفقة وإنها أخذت المورفين ودسته نزولاً عند طلب عمتها الذي تكرر كثيراً، ولكنها هي التي أخذته، وقد رأتها ماري جيرارد تفعل ذلك. وهكذا نعود إلى الشطائر والبيت الفارغ، ونعود ثانية إلى إلينور كارليسل ولكن بدافع آخر هذه المرة: وهو إنقاذ رقبتها.

صاح بيتر لورد: هذا افتراض خيالي. لقد قلت لك إنها ليست من هذا النوع من الأشخاص. إن المال لا يعني لها شيئاً في الواقع، ولا لروديريك أيضاً. عليّ الاعتراف بذلك، وقد سمعتهما كلاهما يقولان ما يفيد بهذا.

- أحقاً سمعتهما؟ هذا مثير جداً. هذا النوع من العبارات هو ما أنظر إليه شخصياً بقدر كبير من الشك.

قال بيتر لورد: تباً لك يا سيد بوارو، أينبغي لك دوماً أن تقلب كل شيء بحيث يرتدّ الأمر إلى تلك الفتاة؟

- ليست المسألة أنني أقلب الأشياء، فهي تأتي مقلوبة من تلقاء نفسها. إنها كالمؤشر في بعض الألعاب، يتأرجح ويتأرجح، وعندما يأتي ليستقرّ تراه يشير دوماً إلى الاسم نفسه: إلينور كارليسل.

قال بيتر لورد: لا!

هز هيركيول بوارو رأسه بحزن وقال: هل لإلينور كارليسل هذه أقارب؟ أخوات؟ أبناء عمومة؟ أب أو أم؟

- لا، فهي يتيمة، وحيدة في هذه الدنيا.

- كم يبدو هذا مثيراً للشفقة! أنا واثق من أن بولمر سيعزف جيداً على هذا الوتر. مَن يرث أموالها عند موتها إذن؟

- لا أدري، لم أفكر بذلك.

قال بوارو مؤنّباً: على المرء دوماً أن يفكر بهذه الأمور. هل كتبَتْ وصية مثلاً؟

احمرّ وجه بيتر لورد وقال بتردد: إنني... لا أدري.

نظر هيركيول بوارو إلى السقف وشبك أصابع يديه، ثم قال: سيكون من الأفضل أن تخبرني.

- أخبرك بماذا؟

- بما يدور في ذهنك بالضبط، بغضّ النظر عما قد يلحقه ذلك بإلينور كارليسل من ضرر.

- كيف تعرف؟

- نعم، نعم، إنني أعرف. في ذهنك شيء ما، وسيكون من الأفضل أن تخبرني، وإلاّ لظننتُ أنه أمر أسوأ مما هو في الواقع.

- إنه أمر سخيف بالفعل.

- سنتفق على ذلك، ولكن دعني أسمع ما هو.

وببطء وتردد سمح بيتر لورد لبوارو أن يجرَّ منه القصة، قصة ذلك المشهد حيث كانت إلينور تتكئ وتطلّ من نافذة بيت الممرضة هوبكنز، وكيف ضحكت.

قال بوارو متأملاً: إذن فقد قالت ذلك؛ «أنت تكتبين وصيتك يا ماري؟ هذا غريب، غريب جداً»؟ وقد كان واضحاً لك تماماً ما يدور في ذهنها، إذ ربما كانت تفكر بأن ماري جيرارد لن تعيش طويلاً؟

قال بيتر لورد: لقد تخيّلتُ ذلك مجرد خيال، لا أدري.

قال بوارو: لا، لم يكن ذلك مجرد خيال من قِبَلك.

* * *

الفصل الثالث

جلس هيركيول بوارو في بيت الممرضة هوبكنز. كان الدكتور لورد قد أخذه إلى هناك وقدّمه إلى الممرضة، ثم انسحب بعد أن تلقى نظرة من بوارو وتركه ليجري حديثاً حميماً مع الممرضة.

كانت الممرضة هوبكنز قد نظرت شزراً إلى هيئة بوارو الأجنبية، ولكنها بدأت تتحلحل الآن بسرعة. قالت بأثر من التمتع المتجهم: نعم، إنه لأمر فظيع، إنه واحد من أفظع الأمور التي عرفتها. كانت ماري واحدة من أجمل الفتيات قاطبة، كان بوسعها أن تذهب لتحترف التمثيل في أي وقت، كما كانت فتاة لطيفة ومحترمة أيضاً، وليست مغرورة كما كان يمكن لها أن تكون مع كل هذا الاهتمام بها.

قاطعها بوارو بسؤال مباشر قائلاً: أتعنين الاهتمام بها من قبل السيدة ويلمان؟

- نعم، هذا ما أعنيه. لقد أحبتها العجوز حباً جماً. نعم، حباً جماً.

تمتم هيركيول بوارو: وهو أمر مدهش، ربما؟

- هذه مسألة فيها نظر. يمكن أن يكون الأمر طبيعياً تماماً في الواقع. أعني...

عضت الممرضة شفتها وبدت مرتبكة، ثم قالت: ما أعنيه هو أن ماري كانت ذات أسلوب ساحر، صوت ناعم رقيق وأخلاق رفيعة. ورأيي أن وجود شابة في البيت يفيد الإنسان العجوز.

قال هيركيول بوارو: أحسب أن الآنسة كارليسل كانت تأتي من وقت لآخر لرؤية عمتها، أليس كذلك؟

قالت الممرضة بحدّة: الآنسة كارليسل جاءت عندما ناسبها المجيء.

تمتمت بوارو: أنت لا تحبين الآنسة كارليسل؟

صاحت الممرضة: آمل أن لا أحبها فعلاً. قاتلة، قاتلة بكل دمٍ بارد!

- أرى أنك قد اتخذت قرارك؟

قالت الممرضة هوبكنز بارتياب: ماذا تعني؟ اتخذت قراري؟

- أأنت واثقة تماماً أنها هي التي دسّت المورفين لماري جيرارد؟

- ومَن غيرها يمكن أن يكون قد فعلها؟ هذا ما أودّ معرفته. لا أظنك تشير إلى أنني أنا التي فعلتُ ذلك؟

- لا، أبداً. ولكن تذكّري أن الجريمة لم تثبت ضدّها بعد.

قالت الممرضة هوبكنز بثقة هادئة: هي التي فعلت ذلك دون شك، ولو نحّينا كل الأمور جانباً، فقد كان ذلك واضحاً في وجهها. كانت غريبة الأطوار طَوال الوقت، وقد أبعدتني إذ أخذتني إلى الطابق العلوي وأبقتني هناك تؤخّرني قدر استطاعتها. وبعدها عندما استدرت إليها، بعد أن وجدت ماري على تلك الحال، كان كل شيء

واضحاً على وجهها كالشمس. عرفَتْ أنني قد عرَفْتُ!

قال بوارو متأملاً: بالتأكيد من الصعب أن نرى أحداً غيرها يمكن أن يكون قد فعل ذلك، ما لم تكن قد فعلت ذلك بنفسها طبعاً.

- ماذا تعني بقولك إنها فعلت ذلك بنفسها؟ أتعني أن ماري انتحرت؟ أنا لم أسمع بمثل هذا الهراء من قبل!

قال هيركيول بوارو: لا يمكن للمرء أن يجزم. إن قلوب الفتيات الشابات تكون حسّاسة جداً ورقيقة جداً. أظن أن هذا كان ممكناً، أليس كذلك؟ كان بوسعها أن تدس شيئاً في فنجانها دون أن تلاحظي ذلك، أليس هذا ممكناً؟

- أتعني أنها دسّته في فنجانها نفسه؟

- نعم، فأنت لم تراقبيها طوال الوقت.

- لم أكن أراقبها، نعم. أحسب أنه كان بوسعها أن تفعل ذلك، ولكن هذا كله هراء! فلماذا عساها تُقدم على أمر كهذا؟

هز بوارو رأسه مستأنفاً أسلوبه السابق وقال: إنها قلوب الفتيات كما قلت لك، حساسة جداً. ربما كانت قصة حب تعيسة...

زفرت الممرضة هوبكنز وقالت: الفتيات لا ينتحرن من أجل قصة حب، ما لم يكن الجنون موروثاً في عائلاتهن. واسمح لي أن أقول لك إن ماري لم تكن من ذلك النوع.

ثم حدقت به بعدائية، فسألها: ولم تكن تحب؟

- أبداً. كانت خالية القلب ومهتمة بعملها وتستمتع بحياتها.

- ولكن لا بد من وجود معجبين بها طالما أنها كانت بمثل ذلك الجمال؟

- لم تكن من أولئك الفتيات المستهترات، كانت فتاة جادّة هادئة.

- ولكن كان في القرية شباب أُعجبوا بها دون شك؟

قالت الممرضة هوبكنز: كان هناك تيد بيغلاند بالطبع.

أخذ بوارو منها تفصيلات مختلفة عن تيد بيغلاند، وقد قالت: كان متعلقاً بماري، ولكنها كانت أرقى منه (كما قلتُ لها).

- لا بد أنه غضب عندما رفضت الارتباط به، أليس كذلك؟

اعترفت الممرضة قائلة: بلى، لقد شعر بمرارة من هذا الأمر، وقد لامني أنا على ذلك أيضاً.

- هل رأى أن الغلطة غلطتك؟

- هذا ما قاله. ولكن من حقي تماماً أن أنصح الفتاة، فأنا -في نهاية الأمر- أعرف شيئاً عن هذه الدنيا. لم أشأ أن أترك الفتاة ترمي نفسها هكذا.

قال بوارو بلطف: ما الذي جعلك تهتمين بالفتاة إلى هذه الدرجة؟

- آه، لا أعرف...

ترددت، وبدا وكأنها تحس بشيء من الحرج، ثم أكملت: لقد كانت لديها شخصية محببة آسرة.

تمتم بوارو: نعم، ولكنها كانت ابنة البوّاب، أليس كذلك؟

- بلى، بالطبع. على الأقل...

ثم ترددت ونظرت إلى بوارو الذي كان ينظر إليها بأشد أنواع التعاطف. عادت لتقول باندفاعة ثقة: الحقيقة أنها لم تكن ابنة العجوز جيرارد على الإطلاق؛ هو أخبرني بذلك، لقد كان والدها سيداً ذا قَدْر وأهمية بالغة.

تمتم بوارو: فهمت، وأمها؟

ترددت الممرضة هوبكنز وعضّت شفتها، ثم مضت قائلة: كانت أمها خادمة شخصية لدى السيدة ويلمان، وقد تزوجت جيرارد بعد ولادة ماري.

- إنها قصة رومنسية، وذات غموض أيضاً.

تهلل وجه الممرضة وقالت: أليست كذلك؟ لا يملك المرء إلاّ أن يهتم بالناس عندما يعلم عنهم شيئاً لا يعلمه أحد غيره. لقد حدث أن عرفتُ الكثير بمحض المصادفة فقط، والحقيقة أن الممرضة أوبرايان هي التي وضعت قدمَيّ على الطريق، ولكن تلك قصة أخرى. ويبقى من الممتع -كما قلت- معرفة التاريخ الماضي؛ هناك كثير من المآسي التي تمضي دون أن يعلم بها أحد، إنه عالم مُحزن.

تنهد بوارو وهزّ رأسه، فقالت الممرضة هوبكنز بذعر مفاجئ: ولكن ما كان عليّ أن أتحدث بهذا الشكل. ما كنت لأقبل انتشار كلمة مما قلته مهما كان الثمن؛ فلا علاقة لهذا بالقضية في نهاية الأمر. إن ماري كانت -حسب ما يعرفه العالم كله- ابنة جيرارد، ولا ينبغي أن تصدر أية إشارة إلى غير ذلك، فهذا سيشوّه سمعتها في أعين العالم بعدما ماتت. لقد تزوج أمها، وهذا يكفي.

قال بوارو: ولكن لعلك تعرفين من هو أبوها الحقيقي؟

قالت الممرضة بتردد: حسناً، ربما كنت أعرف، ولكن ربما كنت لا أعرف أيضاً. أي أنني لا أعرف شيئاً مؤكداً، لكن يمكنني التخمين. يقال إن للخطايا القديمة ظلالاً طويلة! ولكنني لست ممّن يتكلمون، ولن أقول كلمة أخرى.

انسحب بوارو من هذه المعمعة ببراعة، وشن هجومه على موضوع آخر: هناك شيء آخر، قضية حساسة، ولكنني واثق من أنني أستطيع الاعتماد على رأيك فيها.

رفعت الممرضة هوبكنز رأسها، وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها البسيط، فاستمر بوارو قائلاً: إنني أتحدث عن السيد روديريك ويلمان، فقد سمعتُ أنه انجذب إلى الآنسة ماري جيرارد.

- بل لقد افتُتن بها.

- حتى في وقت كان فيه خطيباً للآنسة كارليسل؟

- إن أردتَ رأيي فإنه لم يكن قط مولعاً حقاً بالآنسة كارليسل؛ ليس ما أسميه حباً حقيقياً.

قال بوارو: هل شجعَته ماري جيرارد في تودده لها؟

قالت الممرضة بحدّة: لقد تصرّفَت بأفضل ما يكون، ليس بوسع أحد القول إنها استدرجته.

- هل كانت تحبه؟

قالت بحدّة: لا، لم تكن تحبه.

- ولكنها أُعجبت به؟

- آه، نعم، أُعجبت به تماماً.

- وأحسب أن هذا الإعجاب كان يمكن أن يثمر مع الوقت، أليس كذلك؟

اعترفت الممرضة هوبكنز بذلك قائلة: ربما، ولكن لم يكن من شأن ماري أن تعمل شيئاً على استعجال. لقد أخبرَتْهُ أن ليس من حقه أن يتكلم معها على هذا النحو وهو خطيب للآنسة إلينور، وعندما جاء لرؤيتها في لندن كررت الشيء نفسه.

سأل بوارو بأسلوب من الصراحة المحببة: ما هو رأيك الشخصي بالسيد روديريك ويلمان؟

- إنه شاب لطيف تماماً رغم عصبيته، وأظن أنه سيصاب بعسر الهضم لاحقاً، فأولئك العصبيون غالباً ما يصابون بذلك.

- أكان يحب عمته؟

- أظن ذلك.

- هل جلس معها كثيراً عندما اشتدّ مرضها؟

- أتعني عندما تعرضت لتلك النوبة الثانية؟ في الليلة التي سبقت وفاتها يوم أن وصلا إلى هناك؟ لا أظنه دخل مجرد دخول إلى غرفتها.

- عجباً.

سارعت الممرضة إلى القول: هي لم تطلبه، ولم تكن لدينا بالطبع فكرة بأن النهاية قريبة إلى هذا الحد. هناك الكثير من الرجال هكذا، يحجمون عن دخول غرف المرضى، لا يملكون تغيير ذلك. وهذا لا يدل على تبلد في مشاعرهم، إلاّ أنهم لا يرغبون بإزعاج مشاعرهم.

أومأ بوارو متفهماً ثم قال: أأنت واثقة من أن السيد ويلمان لم يدخل غرفة عمته قبل وفاتها؟

- لم يدخل في أثناء مناوبتي أنا. وقد حلت الممرضة أوبرايان محلي في الساعة الثالثة صباحاً، وربما كانت قد أحضرته قبل وفاة العجوز، ولكن إن كان الأمر كذلك فإنها لم تخبرني به.

قال بوارو: ربما كان قد دخل الغرفة في أثناء غيابك؟

صاحت الممرضة هوبكنز: أنا لا أترك مرضاي بمفردهم يا سيد بوارو.

- أعتذر أشد الاعتذار، لم أقصد ذلك. قصدتُ أنك ربما اضطررت إلى غلي بعض الماء مثلاً، أو النزول إلى الطابق السفلي لأمر ضروري ما.

قالت الممرضة وقد هدأت: لقد نزلتُ بالفعل لتعبئة زجاجات الماء من جديد، وكنت أعرف أن في المطبخ إبريقاً على الموقد.

- وهل غبتِ طويلاً؟

- ربما خمس دقائق.

- آه، نعم، ربما كان السيد ويلمان قد أطل عليها قليلاً إذن، أليس كذلك؟

- لا بد أنه كان سريعاً جداً إن كان قد فعل ذلك.

تنهد بوارو وقال: كما تقولين، إن الرجال يحجمون كثيراً أمام المرض. النساء هن ملائكة العناية، ماذا نفعل بدونهن؟ وخاصة نساء من بنات مهنتكن... إنها رسالة نبيلة حقاً.

قالت الممرضة هوبكنز وقد احمرّ وجهها قليلاً: إنه لطف بالغ منك أن تقول ذلك. أنا لم أفكر في الأمر على هذا النحو شخصياً؛ إن في التمريض من العمل الشاق ما لا يدع مجالاً للتفكير بالجانب النبيل منه.

- أليس هناك شيء آخر يمكن أن تخبريني به عن ماري جيرارد؟

ساد شيء من الصمت الذي كان في محله قبل أن تجيب الممرضة هوبكنز: لا أعرف شيئاً.

- أأنت متأكدة تماماً؟

قالت الممرضة هوبكنز بشيء من عدم التماسك: أنت لا تفهمني؛ لقد كنت أحب ماري.

- وليس هناك شيء آخر يمكنك أن تخبريني به؟

- نعم، ليس هناك شيء، وهذا نهائي.

* * *

الفصل الرابع

جلس هيركيول بوارو وهو يبدو متواضعاً لا قيمة له في الحضرة الجليلة للسيدة بيشوب المتشحة بالسواد، إلاّ أن حلحلة السيدة بيشوب لم تكن بالأمر السهل؛ ذلك أنها -وهي السيدة ذات الأفكار والعادات المحافظة جداً- لم تكن ترتاح للأجانب أو توافق عليهم. وقد كان بوارو رجلاً لا مجال للشك في أجنبيته، لذلك كانت إجاباتها باردة، وقد رمقته بعدم استحسان وبارتياب، ولم يفلح تقديم الدكتور لورد له في تليين الموقف.

قالت السيدة بيشوب عندما غادر الدكتور لورد: أنا واثقة أن الدكتور لورد ذكي جداً وذو نوايا طيبة. لقد بقي سلفه، الدكتور رانسوم، سنوات طويلة هنا.

أي أنه كان بالإمكان الثقة في تصرف الدكتور رانسوم بأسلوب يلائم وضع المنطقة، أما الدكتور لورد -وهو مجرد شاب غير مسؤول- فهو مبتدئ أخذ مكان الدكتور رانسوم، ولا يملك إلاّ ميزة واحدة: الذكاء في مهنته. وبدا أن مجمل سلوك السيدة بيشوب يوحي بأن الذكاء ليس كافياً.

كان هيركيول بوارو مُقْنعاً، وكان مستقيماً مباشراً في طرحه، ولكنه لم يفلح في زحزحتها، فقد بقيت السيدة بيشوب باردة محايدة

شديدة الهدوء. قالت إن وفاة السيدة ويلمان كانت مؤسفة جداً، فقد كانت امرأة تحظى باحترام واسع في المنطقة. وقالت إن اعتقال الآنسة كارليسل كان «مُشيناً» ويُعتقد أنه نتيجة «لتلك الأساليب المتبعة حديثاً من قبل الشرطة». وكانت وجهة نظر السيدة بيشوب بخصوص وفاة ماري جيرارد شديدة الغموض، وكانت عبارة «لا أستطيع الجزم» هي أقصى ما أمكنها قوله.

قام هيركيول بوارو بلعب ورقته الأخيرة؛ فقد سرد -بشيء من الكبرياء الساذج- قصة زيارة قام بها إلى ساندرينغهام، وتحدث بإعجاب عن رقة وبساطة ولطف الأسرة المالكة. وبذلك فقد أفحم بوارو السيدة بيشوب التي كانت تتابع يومياً في النشرة الصادرة عن البلاط التحركات الدقيقة للأسرة المالكة؛ فإن كانت الأسرة المالكة قد طلبت السيد بوارو فإن ذلك يجعل الأمور تختلف تماماً. وسواء أكان أجنبياً أم غير أجنبي، فمن هي -إيما بيشوب- حتى تُحجم حيث تتقدم الأسرة المالكة؟

وهكذا سرعان ما انخرطت هي والسيد بوارو في حديث ممتع حول موضوع مثير فعلاً، فلا مجال للرضا بأقل من اختيار زوج مستقبلي مناسب للأميرة إليزابيث. وبعد أن استنزفا أخيراً كل المرشَّحين المحتملين باعتبار أن كل واحد منهم «لا يصلح تماماً» انقلب الحديث إلى موضوعات أقل إثارة.

قال بوارو بأسلوب وعظي: إن الزواج محفوف بالمخاطر والعثرات مع الأسف.

قالت السيدة بيشوب: صحيح تماماً، ولا سيما بوجود هذا الطلاق القذر.

قالت ذلك وكأنها تتحدث عن مرض مُعْدٍ كالجَرَب.

- أحسب أن السيدة ويلمان كانت حريصة قبل موتها -بلا شك- على أن تستقر ابنة أخيها بشكل جيد في حياتها، أليس كذلك؟

حنت السيدة بيشوب رأسها وقالت: نعم في الواقع. لقد كانت خطوبة الآنسة إلينور والسيد ويلمان مصدر ارتياح عظيم لها؛ كانت خطوة طالما تمنتها.

غامر بوارو قائلاً: ولكن هذه الخطبة ربما تمت جزئياً لإسعاد السيدة ويلمان؟

- آه، لا، ما كنتُ لأذهب إلى هذا الحد يا سيد بوارو. لقد كانت الآنسة إلينور دوماً مغرمة بالسيد روديريك، وكانت دوماً كطفلة صغيرة تروق لِمَن ينظر إليها. إن للآنسة إلينور طبيعة مخلصة ومحبة جداً.

تمتم بوارو: وهو؟

قالت السيدة بيشوب بإصرار: لقد كان السيد روديريك متعلقاً بالآنسة إلينور.

- ومع ذلك أحسب أن الخطبة قد انفسخت.

احمرّ وجه السيدة بيشوب وقالت: ذلك يا سيد بوارو بسبب أساليب الأفعى التي تعمل تحت التبن.

قال بوارو وهو يُظهر القدر المناسب من التأثر: حقاً؟

قالت السيدة بيشوب شارحة وقد تورد وجهها أكثر من ذي قبل: إن في هذا البلد -يا سيد بوارو- قدراً من الاحترام تنبغي المحافظة عليه عند الكلام عن الموتى، ولكن تلك الشابة كانت ماكرة في تعاملها.

نظر بوارو إليها متأملاً للحظات، ثم قال دون أية مواربة: إنك تدهشينني. لقد قُدِّم لي انطباع بأنها كانت فتاة شديدة البساطة والتواضع.

ارتجف ذقن السيدة بيشوب قليلاً وقالت: لقد كانت ماكرة يا سيد بوارو، وقد انخدع بها الناس. تلك الممرضة هوبكنز مثلاً. نعم، وسيدتي المسكينة أيضاً.

هز بوارو رأسه متعاطفاً، الأمر الذي شجع السيدة بيشوب فمضت قائلة: نعم، بالتأكيد. لقد كانت صحة المسكينة تتدهور، وقد شقّت تلك الشابة طريقها إلى موضع ثقة العجوز. كانت تعرف من أين تؤكَل الكتف. كانت تحوم حولها دائماً، تقرأ لها وتحضر لها باقات صغيرة من الورد، حتى باتت تقول: "ماري فعلت ذلك" و"ماري أحضرت الشيء الفلاني" و"أين ماري؟" طوال الوقت! ناهيك عن المال الذي صرفته على الفتاة؛ مدارس باهظة التكاليف وأماكن لتهذيبها في الخارج... والفتاة لا تعدو أن تكون ابنة العجوز جيرارد! ويمكنني أن أؤكد لك أنه لم يكن يحب ذلك، فقد اعتاد على التذمر من تصرفاتها الأرستقراطية الراقية. كانت فوق قَدْرها، تلك كانت حقيقتها.

هز بوارو رأسه هذه المرة وقال مشفقاً: يا إلهي!

- وبعدها جاءت لتقدم استعراضها أمام السيد ويلمان بتلك الطريقة! لقد كان أبسط من أن يرى حقيقتها، والآنسة إلينور بكل لطفها وبراءتها لم تكن لتدرك ما يجري. ولكن الرجال جميعهم سواء؛ يسهل وقوعهم بمعسول الكلام والوجوه الجميلة!

تنهد بوارو وسأل: أحسب أنه كان لديها معجبون من أبناء طبقتها، أليس كذلك؟

- طبعاً كان لديها. كان هناك تيد ابن روفوس بيغلاند، وهو شاب من ألطف ما يكون، ولكن كانت سيدتنا الجميلة أرقى كثيراً من أن ترتبط به! إنني لا أطيق مثل هذه العجرفة والتكبر.

- ألم يغضب من معاملتها له؟

- لقد غضب فعلاً، وقد اتهمها بعلاقة مع السيد رودي. أعرف ذلك معرفة اليقين، ولا ألوم الفتى على شعوره بالمرارة.

- ولا أنا. أنت تثيرين اهتمامي الشديد يا سيدة بيشوب؛ إن لدى بعض الناس موهبة عرض الشخصيات بوضوح وقوة بكلمات قليلة، وهي موهبة عظيمة. لقد أصبحت لديّ -أخيراً- صورة واضحة عن ماري جيرارد.

- تذكّر أنني لا أقول كلمة واحدة ضد الفتاة. ما كنتُ لأفعل مثل هذا الشيء وهي في قبرها، ولكن ما من شك في أنها قد سببت الكثير من المتاعب.

تمتم بوارو: إنني لأتساءل: أين كان ذلك سينتهي؟

- هذا ما أقوله. تأكد يا سيد بوارو بأن سيدتي العزيزة لو لم تمت في الوقت الذي ماتت فيه لكانت الصدمة شديدة عليها في ذلك الوقت، بل إنني أرى الآن أن وفاتها كانت نعمة على شكل كارثة. لا أدري كيف كانت ستنتهي الأمور.

قال بوارو بشيء من الإغراء: ماذا تعنين؟

قالت السيدة بيشوب بجدية: لقد صادفني مثل هذا مراراً، بل إن أختي كانت تعمل حيث حدث ذلك. مرة عندما مات الكولونيل العجوز راندولف وحرم امرأته ليعطي كل قرش معه لامرأة منحلّة

تعيش في إيستبورن، ومرة أخرى تركت السيدة العجوز داكرز ما عندها لعازف الأورغ في الكنيسة (وهو من أولئك الشباب ذوي الشعر الطويل) رغم أن لها أبناء وبنات متزوجين.

قال بوارو: أأفهم من هذا أنك تعنين أنه كان من شأن السيدة ويلمان أن تترك كل مالها لماري جيرارد؟

- ما كان ذلك ليدهشني. لا شك عندي أن ذلك هو ما كانت الفتاة تسعى إليه، ولو كنت تجرأتُ على قول كلمة لكانت السيدة ويلمان مستعدة لقطع رأسي، مع أنني أعمل معها منذ ما يقرب من عشرين عاماً. إنه عالَم ناكر للجميل يا سيد بوارو؛ تحاول القيام بواجبك فلا تلقى تقديراً لذلك.

تنهد بوارو وقال: ما أصحّ هذا مع الأسف!

- ولكن الشر لا ينجح دائماً.

- صحيح، فماري جيرارد ميتة.

قالت السيدة بيشوب بارتياح: لقد ذهبت للقاء ربها، ولا ينبغي لنا الحكم عليها.

قال بوارو: إن ظروف وفاتها تبدو عصيّة على التفسير.

- يا للشرطة وأفكارهم المبتدعة! أيمكن أن تُقدم سيدة شابة مهذبة أُحسنت تربيتها كالآنسة إلينور على تسميم أحد؟ وقد حاولوا جرّي أنا إلى هذا الأمر أيضاً، إذ نسبوا لي قولي إن سلوكها كان غريباً!

- ولكن ألم يكن غريباً؟

نفشت السيدة بيشوب صدرها وقالت: ولماذا لا يكون غريباً؟

إن الآنسة إلينور شابة ذات مشاعر رقيقة، وقد كانت ذاهبة لتُخرج أغراض عمتها، وهذه مهمة مؤلمة دوماً.

أومأ بوارو برأسه متعاطفاً ثم قال: لو أنك رافقتها لكان ذلك قد سهّل الأمور عليها كثيراً.

- لقد أردتُ مرافقتها يا سيد بوارو، ولكنها قاطعتني بحدة. الآنسة إلينور كانت دوماً فتاة شديدة الكبرياء والتحفظ، وكم أتمنى لو كنت قد ذهبت معها.

- ألم تفكري باللّحاق بها إلى البيت؟

حركت السيدة بيشوب رأسها إلى الخلف بجلال وقالت: إنني لا أذهب إلى مكان لستُ مطلوبة فيه يا سيد بوارو.

بدا بوارو مُحرَجاً وتمتم: وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت لديك دون شك أمور أخرى تنبغي متابعتها، أليس كذلك؟

- أذكر أنه كان يوماً دافئاً جداً، حاراً خانقاً.

تنهدت ثم أكملت: مشيت إلى المقبرة لوضع بعض الأزهار على قبر السيدة ويلمان، عربون احترام، وكان عليّ أن أرتاح هناك لفترة طويلة، فالحرارة كانت قد نالت مني تماماً. وقد عدت إلى البيت متأخرة على الغداء، وانزعجت أختي كثيراً عندما رأت ما فعله الحرّ بي؛ قالت إنه ما كان عليّ القيام بهذا الأمر في يوم كذلك اليوم.

نظر بوارو إليها بإعجاب وقال: أنا أحسدك يا سيدة بيشوب؛ فإنه لمن المفرح حقاً أن لا يكون لدى المرء ما يؤنّب نفسه بسببه بعد حادثة وفاة. أظن أن السيد ويلمان قد لام نفسه دون شك على

عدم الدخول لرؤية عمته في تلك الليلة، مع أنه لم يكن من الممكن طبعاً أن يعرف أنها ستموت بهذه السرعة.

- آه، ولكنك مخطئ تماماً يا سيد بوارو. بوسعي أن أؤكد لك ذلك يقيناً، فقد دخل السيد ويلمان فعلاً إلى غرفة عمته. وقد كنت أنا في الخارج عند استراحة الدرج تماماً، وكنت قد سمعتُ تلك الممرضة تنزل على الدرج وفكرت بأنه ربما كان من الأفضل أن أرى إن كانت سيدتي بحاجة إلى شيء، فأنت تعرف طبيعة الممرضات: يبقين دائماً في الطابق السفلي ليثرثرن مع الخادمات أو يرهقوهن بطلباتهن الكثيرة. وهذا لا يعني أن الممرضة هوبكنز كانت بمثل سوء الممرضة الإيرلندية الأخرى ذات الشعر الأحمر، إذ كانت هذه الأخيرة تثرثر دوماً وتفتعل المشكلات! ولكنني رأيتُ -كما قلت- أن أُطلّ لأرى إن كان كل شيء على ما يرام، وعندها رأيت السيد رودي ينسلّ إلى غرفة عمته. لا أدري إن كانت قد عرفته أم لا، ولكن المهم على أية حال أنه لا يملك سبباً للوم نفسه.

- هذا يسعدني. إنه ذو مزاج عصبي بعض الشيء.

- إن لديه أثراً قليلاً جداً من الوسوسة، وقد كان دوماً كذلك.

- سيدة بيشوب، من الواضح أنك امرأة ذات فهم عظيم. لقد غدا لديّ احترام عظيم لآرائك. ما هي برأيك الحقيقة فيما يخص وفاة ماري جيرارد؟

قالت السيدة بيشوب: أظنها واضحة تماماً. إن السبب هو إحدى قوارير الصلصة القذرة لدى محلات أبوت، فهم يحتفظون بها على الرفوف أشهراً طويلة. لقد مرضت ابنة عم لي وكادت تموت ذات

يوم بسبب المعلبات.

اعترض بوارو قائلاً: ولكن ماذا عن المورفين الذي عثروا عليه في الجثة؟

قالت السيدة بيشوب بجلال: لا أعرف شيئاً عن المورفين، ولكنني أعرف طبيعة الأطباء: اطلب منهم البحث عن أي شيء فتراهم يجدونه! إن صلصة السمك الفاسدة ليست سبباً جيداً بالنسبة لهم.

- أتظنين أن من الممكن أن تكون قد انتحرت؟

- من، هي؟ لا، أبداً. ألم تعزم أمرها على الزواج بالسيد رودي؟ من المؤكد أنها لم تنتحر.

* * *

الفصل الخامس

بما أن ذلك اليوم كان يوم أحد فقد وجد هيركيول بوارو الشاب تيد بيغلاند في مزرعة والده. ولم يجد صعوبة في حمل تيد بيغلاند على الحديث، فقد بدا وكأنه يرحب بهذه الفرصة كما لو كان ذلك مصدر ارتياح. قال متأملاً: أنت تحاول معرفة قاتل ماري إذن؟ إنه لغز كبير.

قال له بوارو: إذن أنت لا ترى أن الآنسة كارليسل هي التي قتلت ماري؟

عبس تيد بيغلاند عبوساً متحيراً يكاد يكون طفولياً، ثم قال ببطء: إن الآنسة إلينور سيدة ذات مقام رفيع وتهذيب، ولا يستطيع المرء تخيلها تقوم بشيء كهذا... بشيء عنيف إن كنتَ تفهم قصدي. أليس بعيداً عن الاحتمال أن تُقدِم شابة مهذبة على أمر كهذا؟

أومأ بوارو برأسه بطريقة تأملية ثم قال: نعم، إنه غير محتمَل. ولكن عندما يتعلق الأمر بالغيرة...

ثم سكت وهو يراقب الشاب الضخم الوسيم الأشقر أمامه. قال تيد بيغلاند: الغيرة؟ أعرف أن بعض الأمور تحدث لهذا السبب، ولكن ما يجعل المرء يفقد عقله وصوابه عادة هو الخمر مثلاً، أما الآنسة إلينور... شابة لطيفة هادئة كهذه!

قال بوارو: ولكن ماري جيرارد ماتت، وهي لم تمت موتاً طبيعياً. هل لديك أية فكرة؟ هل هناك أي شيء يمكن أن تخبرني به ويساعدني في العثور على قاتل ماري جيرارد؟

هز الشاب رأسه ثم قال: لا يبدو هذا حقاً، لا يبدو ممكناً أن يُقدم أحد على قتل ماري؛ لقد كانت... لقد كانت كالزهرة.

وفجأة، وللحظة غنية حافلة، استجدّ لدى بوارو مفهوم جديد للفتاة الميتة؛ ففي ذلك الصوت المتردد القروي البسيط عاشت الفتاة ماري وأزهرت من جديد؛ «لقد كانت كزهرة».

ساد فجأة إحساس حاد بالخسارة... بشيء رائع قد انكسر. وتتابعت في عقله عبارة تلو عبارة؛ عبارة بيتر لورد بأنها «كانت طفلة لطيفة»، وعبارة الممرضة هوبكنز: «كان بوسعها الذهاب للعمل في السينما في أي وقت»، وعبارة السيدة بيشوب السامة: «لا أطيق مثل هذه العجرفة والتكبر»، وأخيراً الآن، يأتي هذا الوصف الهادئ الذي يزري بآراء الآخرين: «لقد كانت كزهرة».

قال هيركيول بوارو: ولكن، ماذا إذن...

ثم فتح ذراعيه بإشارة حيرة أجنبية. أومأ تيد بيغلاند برأسه، وكانت عيناه تحتفظان بتلك النظرة التائهة الحَيْرى لحيوان يتألم، ثم قال: أعرف يا سيدي، أعرف أن ما تقوله صحيح. إنها لم تمت ميتة طبيعية، ولكنني كنتُ أتساءل...

ثم سكت، فقال بوارو: نعم؟

قال تيد بيغلاند متمهلاً: كنت أتساءل إن كان ما تعرضت له يمكن أن يكون حادثاً بشكل ما؟

- حادثاً؟ أي نوع من الحوادث؟

- أعرف يا سيدي، أعرف؛ لا يبدو هذا معقولاً. ولكنني أظل أفكر وأفكر، ويبدو لي أن الأمر كان بهذا الشكل. شيء لم يكن حدوثه مقصوداً، أو شيء كان كله خطأ. مجرد، مجرد حادث.

نظر إلى بوارو متوسلاً وقد أحرجه افتقاره إلى الفصاحة. بقي بوارو صامتاً بضع لحظات وبدا أنه يفكر، ثم قال أخيراً: من المثير أن يكون هذا شعورك.

قال تيد بيغلاند معترضاً: أظن أن هذا غير مفهوم لك يا سيدي، ولكنني لا أستطيع استنتاج أية ظروف وملابسات وتفسيرات. إنه مجرد شعور عندي.

- الشعور يكون مرشداً هاماً أحياناً. وآمل أن تعذرني إن كنت أثير مواضيع مؤلمة، ولكنك كنت تهتم كثيراً بماري جيرارد، أليس كذلك؟

تصاعد شيء من اللون الغامق إلى الوجه الحنطي، وقال صاحبه ببساطة: أحسب أن الجميع في هذه المنطقة يعلم بهذا الأمر.

- أكنت تريد الزواج بها؟

- نعم.

- ولكنها لم تكن راغبة؟

اسودَّ وجه تيد قليلاً، وقال وقد بدا عليه أثر لغضب مكبوت: إن الناس يقصدون مقاصد جيدة، ولكن عليهم أن لا يفسدوا حياة الآخرين بتدخلهم. ذلك التعليم والسفر إلى الخارج! لقد غيّر ماري. لا أقصد أنه أفسدها أو أنها كانت متعجرفة، فهي لم تكن كذلك، ولكنه... آه، لقد حيّرها الأمر ولم تعد تعرف أين هي. لقد كانت (ولنَقُلْها بصراحة) كانت أفضل من أن تكون لي، ولكنها -مع ذلك-

لم تكن جيدة بما يكفي لتكون لسيد حقيقي مثل السيد ويلمان.

قال بوارو وهو يراقبه: ألا تحب السيد ويلمان؟

قال تيد بيغلاند بعنف بسيط: ولماذا أحبه بالله عليك؟ لا بأس بالسيد ويلمان ولا أملك شيئاً ضده، ولكنه ليس ما أسميه أنا رجلاً؛ بوسعي أن أضربه فأقسمه نصفين! أحسب أنه ذكي، ولكن هذا لا يفيدك كثيراً إذا تعطلت سيارتك مثلاً. ربما كنتَ تعرف المبدأ الذي تعمل السيارة بموجبه، ولكن ذلك لن يمنعك من الوقوف عاجزاً كطفل عندما يتطلب الأمر سحب قطعة ثقيلة من السيارة وإصلاحها.

قال بوارو: أنت تعمل في مرأب، أليس كذلك؟

- بلى، مرأب هندرسن في أسفل الشارع.

- أكنت هناك في الصباح الذي حدث فيه ذلك؟

- نعم، كنت أفحص سيارة لرجل. كانت فيها علّة ما ولم أستطع تحديد تلك العلة، وقد قدتها قليلاً للتجربة. يبدو ذلك غريباً إذ أفكر به الآن. كان يوماً رائعاً وكانت هناك أزهار على الأسْيِجة. كانت ماري تحب تلك الأزهار، وكنا نخرج لقطفها معاً قبل أن تسافر إلى الخارج.

ومرة أخرى كان هناك ذلك العجب الطفولي الحائر على وجهه، أما هيركيول بوارو فقد بقي ساكتاً.

عاد تيد من سرحانه بجفلة وقال: أنا آسف يا سيدي، انسَ ما قلتُه عن السيد ويلمان. لقد كنتُ أشعر بالمرارة بسبب جريه خلف ماري. كان عليه أن يتركها وشأنها، فهي لم تكن من نوعيته حقاً.

- أتظنها كانت تهتم به؟

عبس تيد بيغلاند ثانية وقال: لا أظن أنها اهتمّت به حقاً. أم لعلها كانت تهتم؟ لا أستطيع الجزم.

سأل بوارو: أكان هناك أي رجل آخر في حياة ماري؟ أيّ رجل قابلَته في الخارج مثلاً؟

- لا أستطيع الجزم يا سيدي، فهي لم تُشر إلى أحد.

- هل لها أعداء... هنا في ميدنزفورد؟

- أتعني أحداً يحمل لها ضغينة؟ لا، لم يوجد من يعرفها جيداً، ولكنهم أحبوها جميعاً.

- هل أحبتها السيدة بيشوب، مدبرة المنزل في هَنتربيري؟

ضحك تيد فجأة وقال: آه، كان ذلك مجرد مناكفة! لم تكن تلك السيدة العجوز تحب تعلق السيدة ويلمان بماري كثيراً.

- أكانت ماري جيرارد سعيدة عندما تكون هنا؟ هل كانت تحب السيدة ويلمان كثيراً؟

- أظنها كانت ستسعد بما فيه الكفاية لو أن تلك الممرضة تركتها وشأنها، أعني الممرضة هوبكنز، فقد وضعت في رأسها فكرة كسب عيشها والسفر للتدرب على التدليك.

- ولكنها كانت تحب ماري مع ذلك؟

- آه، نعم، كانت تحبها، ولكنها من النوع الذي يعرف دوماً ما هو الأفضل للجميع!

قال بوارو بتمهل: إذا افترضنا أن الممرضة هوبكنز عرفت

شيئاً... شيئاً من شأنه أن يسيء إلى ماري، أتظن أن من شأنها أن تحتفظ بذلك الشيء لنفسها؟

نظر إليه تيد بيغلاند بفضول وقال: لم أفهم ما تعنيه تماماً يا سيدي.

- هل تظن أن من شأن الممرضة هوبكنز إذا علمت شيئاً يسيء إلى ماري أن تكتمه؟

- أشك أن تستطيع تلك المرأة كتمان أي شيء؛ فهي أكبر نَمّامة في القرية! ولكن لو كان لها أن تكتم أمر أي إنسان لكان ذلك هو ماري.

ثم أضاف والفضول يستبد به: بودّي لو أعرف لماذا تسأل ذلك؟

قال هيركيول بوارو: إن المرء يخرج بانطباعات عندما يتحدث مع الناس، وقد كانت الممرضة هوبكنز -من كل ما بدا منها- شديدة الصراحة والجرأة، ولكني كوَّنتُ انطباعاً قوياً جداً بأنها تُخفي شيئاً. وهو ليس شيئاً مهماً بالضرورة، فقد لا تكون له علاقة بالجريمة، ولكن ثمة شيء تعرفه ولم تقله. كما أنني كوّنتُ انطباعاً بأن هذا الشيء، كائناً ما كان، هو شيء مُضِرٌّ أو مسيء لشخصية ماري جيرارد.

هز تيد رأسه عجزاً.

تنهّد هيركيول بوارو وقال: حسناً، سأعرف ما هو في الوقت المناسب.

* * *

الفصل السادس

نظر بوارو باهتمام إلى الوجه الطويل الحساس لروديريك ويلمان. كانت أعصاب رودي في حالة يرثى لها؛ كان يعصر يديه وكانت عيناه محمرّتين وصوته أجش منزعجاً.

قال وهو ينظر إلى البطاقة في يده: أعرف اسمك بالطبع يا سيد بوارو، ولكنني لا أستطيع أن أدرك ما يظن الدكتور لورد أن باستطاعتك فعله في هذه المسألة. وعلى أية حال فما علاقته هو بالأمر؟ لقد كان يعنى بعمتي، ولكنه غريب تماماً فيما عدا ذلك. بل إنني وإلينور لم نلتقِ به إلاّ عندما ذهبنا إلى هناك في حزيران الماضي. من المؤكد أن متابعة مثل هذا الأمر هي من اختصاص سيدون.

- هذا صحيح من الناحية الفنية.

مضى رودي يتحدث بتعاسة: رغم أن سيدون لا يثير في نفسي أي شعور بالثقة؛ إنه كئيب متجهم جداً.

- هذه عادة من عادات المحامين.

قال رودي وقد انشرح قليلاً: ومع ذلك فقد أوجزنا القضية للسيد بولمر، ويُفترض أن يكون أفضل المحامين في البلد، أليس كذلك؟

- إن له سمعة في التسرية عن الآمال اليائسة.

تقبَّض رودي متفهماً ذلك، وقال بوارو: أرجو أن لا يزعجك أن أسعى لكي أكون ذا فائدة بالنسبة للآنسة إلينور كارليسل؟

- إنه لا يزعجني بالطبع، ولكن...

- ولكن ما الذي أستطيع فعله؟ أهذا ما تريد أن تسأل عنه؟

التمعت على وجه رودي القلِق ابتسامة سريعة، ابتسامة ساحرة فجأة بحيث جعلت بوارو يفهم سر الجاذبية الخفية للرجل. وقال رودي معتذراً: إن قول ذلك على هذا النحو يبدو وقحاً بعض الشيء، ولكن المسألة هي كذلك حقاً. لن أتحدث بشكل موارب: ما الذي تستطيع فعله يا سيد بوارو؟

- أستطيع البحث عن الحقيقة.

قال رودي بنبرة مرتابة بعض الشيء: نعم.

- وربما اكتشفتُ حقائق يمكن أن تساعد المتهمة.

تنهد رودي وقال: لو استطعت ذلك فقط!

مضى بوارو قائلاً: إن رغبتي جادة جداً في المساعدة، فهلاّ ساعدتني بأن تخبرني بالضبط عن رأيك في هذا الأمر؟

نهض رودي وأخذ يمشي بقلق جيئة وذهاباً، ثم قال: ما الذي يمكنني قوله؟ الأمر كله سخيف جداً، خيالي جداً! إن مجرد التفكير بأن إلينور، إلينور التي عرفتها منذ أن كنا طفلين، تقوم فعلاً بمثل هذا الأمر الميلودرامي في تسميم شخص هو أمر سخيف، أمر مضحك فعلاً بالطبع. ولكن كيف لنا أن نشرح ذلك لهيئة المحلَّفين؟

قال بوارو دون تأثر: أتعتبر قيام الآنسة كارليسل بمثل هذا الأمر مسألة مستحيلة تماماً؟

- تماماً؛ هذا لا يحتاج إلى تأكيد. إن إلينور مخلوقة رائعة، إنها متزنة وهادئة على نحو جميل. ليس في طبيعتها عنف. إنها صاحبة فكر، حسّاسة وخالية تماماً من تلك العواطف الهائجة الحيوانية، ولكن ضع اثنَي عشر مغفلاً في مقصورة هيئة المحلفين لترى ما الذي يمكن أن يصدقوه مما لا يعلمه إلاّ الله! لكن لنكن عقلانيين في نهاية الأمر، إنهم ليسوا هناك بهدف الحكم على الأشخاص، بل بهدف غربلة الشواهد والأدلة. الحقائق، الحقائق، الحقائق. والحقائق مؤسفة!

أومأ بوارو برأسه متأملاً وقال: أنت رجل ذو إحساس وذكاء يا سيد ويلمان. إن الحقائق تدين الآنسة كارليسل ومعرفتك بها تبرئها. ما الذي حدث حقاً إذن؟ ما الذي يمكن أن يكون حدث؟

مدّ رودي ذراعيه غيظاً وقال: هذا هو بالضبط مربط الفرس! لا أحسب أن الممرضة يمكن أن تكون قد فعلتها؟

- إنها لم تقترب من الشطائر قط. لقد أجريت تحريات دقيقة جداً، كما لا يمكن أن تكون قد سممت الشاي دون أن تسمم نفسها أيضاً. لقد تأكدتُ من ذلك تماماً، وفوق ذلك فلماذا عساها ترغب بقتل ماري جيرارد؟

صاح رودي: ولماذا يمكن أن يرغب أي امرئ بقتل ماري جيرارد؟

- يبدو هذا سؤالاً لا يمكن الإجابة عليه في هذه القضية. لم يرغب أحد بقتل ماري جيرارد (أضاف بعقله: باستثناء إلينور

كارليسل) ولذلك فإن الخطوة التالية منطقياً ستكون كما يبدو: ماري جيرارد لم تُقتَل! ولكن الأمر ليس كذلك مع الأسف؛ فلقد قُتلت!

ثم أضاف بشيء من الميلودرامية مستشهداً ببيت من الشعر: «ولكنها في قبرها، ويا لفرق ذلك بالنسبة لي!».

قال رودي: عفواً، ماذا قلت؟

شرح هيركيول بوارو قائلاً: إنه بيت للشاعر وردزورث، فأنا أقرأ له كثيراً. ألا تعبّر هذه الأبيات عما تشعر به؟

- أنا؟

بدا رودي متصلباً منزعجاً، فقال بوارو: أنا أعتذر، أعتذر بشدة. إنه لمن الصعب جداً أن يكون المرء رجل تحرٍ وصديقاً مخلصاً في الوقت نفسه. وكما تقولون في إنكلترا، فإن هناك أشياء لا يقولها المرء. ولكن رجل التحري مضطر لقولها مع الأسف؛ إذ ينبغي عليه أن يطرح أسئلة عن الشؤون الخاصة للناس وعن مشاعرهم.

قال رودي: من المؤكد أنه لا ضرورة لهذا كله.

قال بوارو بسرعة وتواضع: هل لي أن أفهم الموقف فقط؟ ومن ثَم سنترك الجانب الكريه من الموضوع ولا نشير إليه ثانية. من المعروف على نطاق واسع يا سيد ويلمان أنك... قد أُعجبتَ بماري جيرارد. هذا صحيح، أليس كذلك؟

نهض رودي ووقف قرب النافذة، ثم أخذ يعبث بواقية النافذة وقال: بلى.

- ووقعتَ في حبها؟

- أظن ذلك.

- آه، وأنت الآن كسير القلب بسبب وفاتها؟

- إنني... أحسب... أعني... حسناً يا سيد بوارو...

استدار ليبدو مخلوقاً مرتبكاً حساساً منزعجاً محاصراً. قال هيركيول بوارو: إن كان بوسعك فقط أن تخبرني، أن تريني بوضوح، فسوف ينتهي الأمر.

جلس رودي ويلمان على كرسي وأخذ يتكلم بشكل متقطع دون أن ينظر إلى صاحبه: إن شرح ذلك مسألة صعبة جداً. أيتوجب علينا الخوض في هذا الأمر؟

- لا يستطيع المرء دوماً الالتفاف وتجاوز مكروهات هذه الحياة يا سيد ويلمان. أنت تقول إنك تحسب أنك اهتممتَ بهذه الفتاة، فهل أنت غير واثق من ذلك إذن؟

- لا أدري. لقد كانت جميلة جداً، كحلم... هكذا تبدو لي الآن. حلم، ليست حقيقة واقعة! كل ذلك، رؤيتي لها في البداية وهيامي بها... كان نوعاً من الجنون! والآن انتهى كل شيء وذهب كما لو... كما لو أنه لم يحدث قط.

أومأ بوارو برأسه وقال: "نعم، إنني أفهم". ثم قال: أنت لم تكن في إنكلترا وقت وفاتها؟

- نعم، فقد سافرتُ في التاسع من تموز (يوليو) وعدتُ في الأول من آب (أغسطس). وقد تبعتني برقية إلينور من مكان إلى مكان، فسارعتُ بالعودة بمجرد سماع النبأ.

- لا بد أنها كانت صدمة شديدة بالنسبة لك، فقد أحببتَ الفتاة كثيراً؟

قال رودي وفي صوته مرارة وغيظ: لماذا تحدث للمرء مثل هذه الأمور دون أن يرغب بحدوثها؟ إنها تأتي عكس كل... كل توقعات المرء المنظمة عن الحياة!

- آه، ولكن هكذا هي الحياة؛ إنها لا تسمح لك بأن تخطط وترتب وتأمرها كما تشاء، لا تسمح لك بأن تتجنب العواطف وأن تعيش بعقلك وذهنك فقط. لا يمكنك القول: سأشعر بهذا القدر لا أكثر. إن الحياة يا سيد ويلمان، كائنة ما كانت صفاتها الأخرى، ليست عقلانية.

تمتم روديريك ويلمان قائلاً: هذا ما يبدو.

- صباح ربيعي، ووجه فتاة، وترى تسلسل الحياة المنظم المنطقي ينقلب كله.

تقبّض رودي فيما مضى بوارو قائلاً: وأحياناً يكون الأمر أكثر من ذلك قليلاً... مجرد وجه. ما الذي كنتَ تعرفه حقاً عن ماري جيرارد يا سيد ويلمان؟

قال رودي بحزن: ما الذي أعرفه؟ القليل جداً، أعرف ذلك الآن. أظنها كانت عذبة ولطيفة، ولكنني حقاً لا أعرف شيئاً، لا شيء أبداً. وأحسب أنني لذلك لا أفتقدها.

كان سخطه وأسلوبه العدائي قد ذهبا الآن، وتكلم بشكل طبيعي بسيط. وكان هيركيول بوارو (وهو الخبير في ذلك) قد اخترق دفاعات صاحبه، وبدا أن رودي شعر بشيء من الارتياح وهو يفضي بما يثقل كاهله. قال: كانت عذبة رقيقة، ليست على درجة عالية من الذكاء، وأظنها كانت حساسة ولطيفة. كان فيها تهذيب ورقيّ لا يتوقعه المرء من بنات طبقتها.

- أكانت من ذلك الطراز من الفتيات اللائي يثرنَ العداوات دون وعي منهن؟

هز رودي رأسه بقوة وقال: لا، لا؛ لا أستطيع تخيل أحد يكرهها... أعني يكرهها حقاً. أما المناكفة فأمر آخر.

قال بوارو بسرعة: المناكفة؟ فقد كانت هناك مناكفة برأيك؟

قال رودي شارداً: لا بد من وجود المناكفة... لتفسير تلك الرسالة.

قال بوارو بحدّة: أية رسالة؟

احمرّ وجه رودي وبدا منزعجاً وقال: آه، لا أهمية لذلك.

كرر بوارو: أية رسالة؟

- رسالة مُغْفَلة من التوقيع.

قال ذلك بشيء من التردد.

- متى جاءت؟ ولمن كُتبت؟

شرح رودي بشيء من التردد، فقال بوارو: هذا أمر مثير للاهتمام. هل أستطيع رؤية تلك الرسالة؟

- أخشى أن لا تستطيع ذلك؛ فالحقيقة أنني أحرقتها.

- لماذا فعلتَ ذلك يا سيد ويلمان؟

قال رودي بشيء من التصلب: بدا هذا تصرفاً طبيعياً في ذلك الوقت.

- ونتيجةً لتلك الرسالة ذهبتَ أنت والآنسة كارليسل مسرعَيْن إلى هَنتربيري؟

- لقد ذهبنا، نعم، ولكنني لا أعلم شيئاً عن «مسرعَيْن» هذه!

- ولكنكما شعرتما بشيء من عدم الارتياح، أليس كذلك؟ بل ربما بقليل من الخوف؟

قال رودي بتصلب أكبر: لا أُقرّ بذلك.

صاح هيركيول بوارو: ولكن المؤكد أن هذا طبيعي تماماً؛ فإرثكما الذي وُعدتما به كان في خطر! من المؤكد أن من الطبيعي أن تشعرا بعدم الارتياح لهذه المسألة، فالمال مسألة مهمة جداً.

- إنه ليس بالأهمية التي تتصورها.

- إن هذا القدر من النزاهة مثير للإعجاب!

احمرّ وجه رودي وقال: آه، كان المال مهماً بالنسبة لنا بالطبع ولم نكن نغفله كلياً، ولكن هدفنا الرئيسي كان... كان رؤية عمتي والتأكد من أنها على ما يرام.

- لقد ذهبتَ إلى هناك مع الآنسة كارليسل، ولم تكن عمتك قد كتبت وصية في ذلك الوقت، وسرعان ما تعرضت بعد ذلك لسكتة دماغية أخرى. وعندها تمنّت كتابة وصية، ولكن ربما كان من الملائم للآنسة كارليسل أن العجوز ماتت في تلك الليلة دون أن تستطيع كتابة وصية.

- ما الذي تُلمّح له؟

كان وجه رودي غاضباً، وقد أجابه بوارو بسرعة البرق: لقد أخبرتني يا سيد ويلمان -فيما يخص وفاة ماري جيرارد- أن الدافع الذي نُسب إلى إلينور كارليسل دافع سخيف وأنها لم تكن بالتأكيد من ذلك النوع من الناس، ولكننا نرى تفسيراً آخر الآن، فقد كان

لدى إلينور كارليسل سبب يدفعها إلى الخوف من حرمانها من الوصية لمصلحة طرف خارجي. لقد سبق وحذرَتها الرسالة من ذلك، وقد أكدَت هذه المخاوف التمتماتُ المتقطعة لعمتها. وفي الصالة في الطابق السفلي هناك حقيبة تحوي العديد من الأدوية والمستلزمات الطبية، ومن السهل أخذ أنبوبة مورفين منها. وبعد ذلك -كما فهمتُ- جلسَت وحدها في غرفة المريضة مع عمتها بينما كنتَ أنت والممرضتان تتناولون طعام العشاء.

صاح رودي: يا إلهي! يا سيد بوارو، ما الذي تُلمّح إليه الآن؟ أن إلينور قتلت العمة لاورا؟ من بين كل الأفكار السخيفة!

- ولكن ألا تعلم أن هناك من تقدم للحصول على إذن بتشريح جثة السيدة ويلمان؟

- نعم، أعرف. ولكنهم لن يجدوا شيئاً.

- وماذا لو وجدوا؟

قال رودي بتصميم: لن يجدوا.

هز بوارو رأسه وقال: لستُ واثقاً إلى هذه الدرجة، بالإضافة إلى أن هناك شخصاً واحداً يمكن أن يستفيد من وفاة السيدة ويلمان في تلك اللحظة.

جلس رودي وقد شحب وجهه وأخذ يرتعد قليلاً، ثم حدق إلى بوارو وقال: لقد حسبتك في طرفها.

- بغضّ النظر عن الطرف الذي يقف فيه المرء فإن عليه مواجهة الحقائق! أظن -يا سيد ويلمان- أنك قد فضّلتَ حتى الآن تجنب مواجهة الحقيقة المرة كلما أمكن ذلك.

- ولماذا يؤلم المرء نفسَه بالنظر إلى الجانب السيء من الأمور؟

رد بوارو بجِدّ وتجهم: لأن هذا ضروري.

وسكت لحظة ثم قال: دعنا نواجه احتمال اكتشاف أن وفاة عمتك كانت نتيجة لدس المورفين لها. ما الحل عندها؟

هز رودي رأسه بيأس وقال: لا أدري.

- ولكن ينبغي أن تحاول التفكير. مَنْذا يمكن أن يكون قد دسّه لها؟ ينبغي أن تعترف بأن لإلينور كارليسل أفضل فرصة للقيام بذلك؟

- ماذا عن الممرضتين؟

- كان بوسع أي منهما أن تقوم بذلك بالتأكيد، ولكن الممرضة هوبكنز كانت قلقة لاختفاء أنبوبة المورفين وقتها، وقد ذكرت ذلك صراحة. ولم تكن بها حاجة لفعل ذلك، فقد تم توقيع شهادة الوفاة، فلماذا تثير الانتباه إلى أنبوبة المورفين إن كانت مذنبة؟ إن من شأن هذه المسألة أن تجلب لها انتقادات بالإهمال حتى في وضعها البريء، وإذا كانت هي التي سممت السيدة ويلمان فمن الغباء جذب الانتباه إلى المورفين بالتأكيد. وفوق ذلك، ماذا تستفيد من وفاة السيدة ويلمان؟ لا شيء. والأمر نفسه ينطبق على الممرضة أوبرايان: كان بوسعها أن تدس المورفين وكان بوسعها أن تأخذ الأنبوبة من حقيبة الممرضة هوبكنز، ولكننا نواجه السؤال مرة أخرى: لماذا تفعل ذلك؟

هز رودي رأسه وقال: كل هذا صحيح تماماً.

- وماذا عنك؟

جفل رودي وقال: أنا؟

- بالتأكيد. كان بوسعك أن تأخذ المورفين، وكان بوسعك أن تدسّه للسيدة ويلمان؛ فقد كنتَ وحيداً معها لفترة قصيرة في تلك الليلة. ولكننا نعود إلى السؤال نفسه: لماذا تفعل ذلك؟ فلو أنها عاشت لتكتب وصية فمن المحتمَل على الأقل أن تذكرك فيها. وهكذا فليس أمامنا -مرة أخرى- دافع. شخصان فقط كان لديهما الدافع.

تهلل وجه رودي وقال: شخصان؟

- نعم؛ أحدهما إلينور كارليسل.

- والثاني؟

قال بوارو متمهّلاً: الثاني هو كاتب الرسالة المُغْفَلة من التوقيع.

بدا رودي غيرَ مصدق، فقال بوارو: لقد كتب أحدهم تلك الرسالة، كتبها شخص كره ماري جيرارد، أو أنه لم يحبها على الأقل. شخص كان «من جماعتكما» كما يقولون؛ أي أنه شخص لم يُرِد أن تستفيد ماري جيرارد من موت السيدة ويلمان. هل لديك أية فكرة مَن يمكن أن يكون كاتب تلك الرسالة يا سيد ويلمان؟

هز رودي رأسه وقال: ليست لدي أية فكرة أبداً. كانت رسالة شخص أمّي، كلها أخطاء في التهجئة، ورخيصة الشكل.

لوح بوارو بيده وقال: ليس في هذا أية دلالة؛ إذ ربما كتبها شخص مثقف اختار أن يخفي هذه الحقيقة. ولذلك تمنيت لو أنكما احتفظتما بتلك الرسالة، فأولئك الذين يحاولون الكتابة بأسلوب أمّي غير مثقف عادة ما يفضحون أنفسهم.

قال رودي متأملاً: لقد ظننا -أنا وإلينور- أن كاتبها قد يكون أحد الخدم.

- هل راودتكما أية فكرة عن أحد محدد منهم؟

- لا، لم تخطر لنا أية فكرة كهذه.

- أتظن أنها يمكن أن تكون السيدة بيشوب، مدبرة المنزل؟

بدا رودي مصدوماً وقال: آه، لا؛ إنها محترمة جداً ومترفعة، وهي تكتب رسائل جميلة منمَّقة ذات كلمات توحي بالثقافة. وفوق ذلك فإنني واثق أنها ما كانت لتُقْدم...

وفيما تردد قاطعه بوارو قائلاً: لكنها لم تكن تحب ماري جيرارد؟

- أحسب أن هذا صحيح، مع أنني لم ألاحظ شيئاً.

- ولكن ربما كنتَ لا تلاحظ الكثير يا سيد ويلمان، أليس كذلك؟

قال رودي ببطء: ألا تظن -يا سيد بوارو- أن عمتي ربما تناولت المورفين بنفسها؟

قال بوارو متمهلاً: إنها فكرة، نعم.

- لقد كانت تكره... تكره عجزها، وما أكثر ما كررت أنها تتمنى الموت.

- ولكنها لا يمكن أن تكون قد نهضت من فراشها ونزلت إلى الطابق السفلي فأخذت أنبوبة المورفين من حقيبة الممرضة، أليس كذلك؟

- صحيح، ولكن ربما جاءها أحدهم بالأنبوبة.

- من؟

- ربما واحدة من الممرضتين.

- لا، ليس الممرضتين؛ فمن شأنهما أن تعرفا جيداً خطورة ذلك على نفسيهما! الممرضتان آخر من يُشَكّ فيهما.

- شخص آخر إذن.

ثم جفل قليلاً وفتح فمه، لكنه أغلقه ثانية، فقال بوارو: لقد تذكرتَ شيئاً، أليس كذلك؟

قال رودي بارتياب: بلى، ولكن...

- إنك تتساءل إن كان عليكَ أن تخبرني؟

- نعم.

قال بوارو وقد تراقصت على زوايا فمه ابتسامة غريبة: متى قالته الآنسة كارليسل؟

سحب رودي نفَساً عميقاً وقال: يا إلهي، أنت رهيب! لقد كان ذلك في القطار الذي أقلّنا إلى هناك. كنا قد تلقّينا البرقية التي تقول إن العمة لاورا قد تعرضت لسكتة ثانية، وعبَّرت إلينور عن مقدار حزنها من أجل عمتها وكيف أن المسكينة العزيزة تكره المرض وأنها الآن ستكون أكثر عجزاً وأن ذلك سيكون جحيماً بالنسبة لها، ثم قالت إلينور: إن المرء يشعر فعلاً بأن الناس ينبغي أن يتم تحريرهم إن هم أرادوا ذلك حقاً.

- وأنت، ماذا قلت؟

- وافقتها الرأي.

تكلم بوارو بكل تجهم قائلاً: لقد رفضتَ قبل قليل -يا سيد ويلمان- إمكانية أن تكون الآنسة كارليسل قد قتلت عمتك من أجل الكسب المالي، فهل ترفض أيضاً إمكانية قتلها للسيدة ويلمان بدافع الشفقة؟

قال رودي: إنني... أنا... لا، لا أستطيع.

حنى هيركيول بوارو رأسه وقال: نعم، لقد ظننتُ، بل كنتُ واثقاً أنك ستقول ذلك.

* * *

الفصل السابع

في مكتب السيد سيدون تم استقبال هيركيول بوارو بحذر شديد، إن لم يكن بعدم ثقة. جلس السيد سيدون وهو ينقر بسبابته على ذقنه الحليق بعناية، وقد اتسم سلوكه بتجنب اتخاذ أي موقف، فيما أخذت عيناه الرماديتان الذكيتان تقيمان بوارو بتأمل.

قال السيد سيدون: إن اسمك مألوف بالنسبة لي طبعاً يا سيد بوارو، ولكنني حائر في فهم موقعك من هذه القضية.

قال هيركيول بوارو: إنني أعمل لمصلحة موكِّلتك يا سيدي.

- آه، حقاً؟ ومن الذي... كلّفك لتعمل بهذه الصفة؟

- إنني هنا بناء على طلب الدكتور لورد.

ارتفع حاجبا السيد سيدون عالياً وقال: حقاً! يبدو لي هذا أمراً شاذاً جداً، شاذاً جداً. لقد تم استدعاء الدكتور لورد -كما فهمت- كشاهد لمصلحة الادعاء العام.

رفع بوارو كتفيه بلامبالاة وقال: وهل لهذا أهمية؟

- إن ترتيبات الدفاع عن الآنسة كارليسل هي في أيدينا بشكل كامل، ولا أظن حقاً أننا بحاجة إلى أية مساعدة خارجية في هذه القضية.

سأل بوارو: أهذا لأن براءة موكلتك سيتم إثباتها بكل تلك السهولة؟

تقبض السيد سيدون، ثم أصبح غاضباً بأسلوب المحامين الجاف وقال: هذا سؤال غير مناسب إطلاقاً، غير مناسب إطلاقاً.

- إن القضية ضد موكلتك قضية قوية وصعبة جداً.

- أنا لا أرى كيف تعرف شيئاً عنها.

قال بوارو: رغم أنّ مَن استخدمني فعلاً هو الدكتور لورد، إلاّ أنني أحمل معي رسالة من السيد روديريك ويلمان.

ثم سلمه الرسالة مع انحناءة منه. قرأ السيد سيدون الأسطر القليلة في الرسالة ثم قال متذمراً: هذا يُكسب المسألة بعداً جديداً بالطبع. لقد جعل السيد ويلمان نفسه مسؤولاً عن الدفاع عن الآنسة كارليسل، ونحن نعمل بناء على طلبه.

ثم أضاف باشمئزاز واضح: إن مكتبنا لا يمارس إلاّ القليل من الـ... من القضايا الجنائية، ولكني شعرتُ أن من واجبي تجاه عميلتي الراحلة أن أتولى الدفاع عن ابنة أخيها. وقد أوجزنا القضية للسير إدوين بولمر، المستشار القانوني للتاج.

قال بوارو وقد أصبحت ابتسامته ساخرة فجأة: لن يتم البخل بشيء على القضية؛ كل شيء مناسب وصحيح!

قال السيد سيدون وهو ينظر من فوق نظارته: يا لكلامك يا سيد بوارو!

قاطع بوارو احتجاجه قائلاً: إن البلاغة والتوسل العاطفي لن ينقذا موكلتك، ستحتاج القضية إلى ما هو أكثر من ذلك.

قال السيد سيدون ببرود: وما الذي تنصح به؟

- الحقيقة موجودة أمامنا دائماً.

- هذا صحيح تماماً.

- ولكن هل ستساعدنا الحقيقة في هذه القضية؟

قال المحامي بحدة: هذه ملاحظة غير مناسبة مطلقاً مرة أخرى.

- هناك أسئلة أودّ بعض الأجوبة عليها.

قال السيد سيدون بحذر: لا أستطيع طبعاً أن أضمن لك الإجابة دون موافقة موكلتي.

- إنني أفهم ذلك طبعاً.

سكت قليلاً ثم قال: هل للآنسة إلينور كارليسل أي أعداء؟

أبدى السيد سيدون قليلاً من الدهشة وقال: ليس لها أي أعداء حسب علمي.

- هل سبق للسيدة الراحلة ويلمان أن كتبت وصية في أية فترة من حياتها؟

- أبداً. كانت تؤجل ذلك دوماً.

- هل كتبت إلينور كارليسل وصية؟

- نعم.

- مؤخراً؟ بعد وفاة عمتها؟

- نعم.

- لمن تركت ممتلكاتها؟

- هذا أمر سري وخاص يا سيد بوارو، ولا أستطيع إخبارك دون تخويل من موكلتي.

- سأضطر إلى مقابلة موكلتك إذن!

قال السيد سيدون بابتسامة باردة: أخشى أن لا يكون ذلك سهلاً.

نهض بوارو وأشار بيده قائلاً: كل شيء سهل بالنسبة لهيركيول بوارو.

* * *

الفصل الثامن

كان كبير المفتشين مارسدن وَدوداً، وقد قال لبوارو: حسناً يا سيد بوارو، أجئتَ لتعينني في واحدة من قضاياي؟

قال بوارو مستهجناً: لا، لا. إنه مجرد فضول لا أكثر.

- يسعدني أن أُشبع فضولك. أية قضية هي؟

- قضية إلينور كارليسل.

- آه، نعم؛ الفتاة التي سمّمت ماري جيرارد. ستتم محاكمتها في غضون أسبوعين. إنها قضية مثيرة، وقد قامت بقتل العجوز أيضاً بالمناسبة. لم يصل التقرير النهائي بعد ولكن لا يبدو في ذلك شك. بالمورفين، مادة للقتل البارد الفظيع. لم يرفّ لها جفن عندما اعتقلناها، ولم تَبُح بأي شيء على الإطلاق. ولكن لدينا ما يكفي من الأدلة ضدها، وسوف تنال عقابها.

- أتظن أنها القاتلة؟

أومأ مارسدن برأسه بالإيجاب، وهو الرجل الخبير، ثم قال: لا شك في ذلك. لقد وضعت السم في الشطيرة العليا في الطبق. إنها ذات شخصية باردة جريئة.

- أليست لديك شكوك؟ لا شكوك أبداً؟

- آه، أنا واثق تماماً، وإنه لجميل أن يشعر المرء بالثقة! إننا كغيرنا لا نحب الوقوع في الأخطاء، ونحن لا نسعى إلى الحصول على إدانة بأي ثمن كما يتصور البعض. أستطيع المضي هذه المرة بضمير مرتاح.

قال بوارو متمهلاً: فهمت.

نظر إليه ضابط سكوتلنديارد بفضول وقال: أهناك أي شيء في الطرف المقابل؟

هز بوارو رأسه ببطء وقال: ليس حتى الآن. كل شيء وجدته في هذه القضية حتى الآن يشير إلى أن إلينور كارليسل مذنبة.

قال المفتش مارسدن بثقة مبتهجة: إنها مذنبة بالتأكيد.

- أودّ رؤيتها.

ابتسم المفتش مارسدن بمحبة وقال: أنت تضع وزير الداخلية الجديد في جيبك، أليس كذلك؟ سيكون الأمر سهلاً تماماً.

* * *

الفصل التاسع

قال بيتر لورد: حسناً؟

قال هيركيول بوارو: لا، ليس الأمر بالحسن.

قال بيتر لورد بحزن: ألم تضع يدك على شيء؟

أجابه بوارو ببطء قائلاً: «لقد قَتلت إلينور كارليسل ماري جيرارد بسبب الغيرة»، «لقد قتلت إلينور كارليسل عمتها لترث أموالها»، «لقد قتلت إلينور كارليسل عمتها بدافع الشفقة»... لك أن تختار ما تشاء يا صديقي.

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟

- حقاً؟

بدا وجه لورد المنمش غاضباً وقال: ما هذا كله؟

- أتظن أن هذا ممكن؟

- ما الذي أظنه ممكناً؟

- أن إلينور كارليسل لم تكن قادرة على تحمل منظر تعاسة عمتها فساعدتها على وضع حد لحياتها؟

- هراء!

- أهو هراء حقاً؟ لقد قلت لي بنفسك إن العجوز قد طلبت منك مساعدتها في ذلك.

- لم تقصد ذلك جدياً؛ كانت تعرف أنني ما كنتُ لأفعل شيئاً من هذا.

- ومع ذلك فإن الفكرة كانت في عقلها، وربما كانت إلينور قد ساعدتها.

أخذ بيتر لورد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم قال أخيراً: لا يستطيع المرء أن ينكر إمكانية حدوث مثل هذا الأمر، ولكن إلينور شابة من النوع المتزن الواعي. لا أظن أن من شأنها أن تنجرف بالشفقة إلى حد تفقد معه رؤيتها للمخاطر، وقد كان من شأنها أن تدرك المخاطر بدقّة، إذ كانت معرَّضة لتهمة القتل في هذه الحالة.

- أنت لا تظن أن من شأنها فعل ذلك إذن؟

قال بيتر لورد ببطء: أحسب أن من شأن امرأة أن تفعل مثل هذا الأمر لزوجها، أو لطفلها، أو ربما لأمها. ولكن لا أظن أنها يمكن أن تفعله لعمتها، رغم أنها قد تكون مُحِبّة لهذه العمة. وأظن -على أية حال- أنها لن تفعله إلاّ إذا كان الشخص المَعنيّ يعاني عملياً من آلام لا تُحتمَل.

قال بوارو متأملاً: "ربما كنتَ على حق". ثم أضاف: أتحسب أن مشاعر روديريك ويلمان ربما تكون قد توترت إلى حد يغريه بالقيام بمثل هذا الأمر؟

أجاب بيتر لورد بازدراء: ما كان ليملك الشجاعة للقيام بذلك!

تمتم بوارو: لا أدري. إنك -بطريقة ما- تستخفّ بإمكانات ذلك الشاب يا عزيزي.

- آه، إنه ذكي ومثقف كما أظن.

- بالضبط، كما أن له سحراً أيضاً. نعم، لقد شعرتُ بذلك.

قال بيتر لورد باحتقار: "أحقاً؟ أنا لم أشعر بذلك مطلقاً"، ثم قال بجدية: اسمعني يا بوارو، أليس هناك أي شيء؟

- إن تحرياتي لا تبشر بخير حتى الآن؛ فهي تقود دوماً إلى المكان ذاته؛ فلا أحد يستفيد من موت ماري جيرارد، ولم يكره أحدٌ ماري جيرارد... باستثناء إلينور كارليسل. هناك سؤال واحد فقط ربما طرحناه على أنفسنا، إذ ربما استطعنا أن نسأل: هل كره أحدٌ إلينور كارليسل؟

هزّ الدكتور لورد رأسه ببطء وقال: لا أعرف لها عدوّاً. أتعني أن أحدهم ربما لفق لها الجريمة ليتهمها بها؟

أومأ بوارو موافقاً وقال: هذا تخمين مستبعَد جداً وليس هناك ما يدعمه، ربما باستثناء هذا الكمال نفسه، حيث تحيط بها التهمة من كل جانب.

ثم أخبر صاحبه عن مسألة الرسالة المغفلة من التوقيع وقال: أترى؟ إن هذا يمكن أن يجعل التهمة ضدها قوية جداً. لقد تم تحذيرها من أنها ربما استُبعِدت تماماً من وصية عمتها، وأن هذه الفتاة (وهي غريبة) ربما حصلت على المال كله؛ ولذلك فعندما طلبت عمتها بكلامها غير المفهوم إحضار المحامي لم تشأ إلينور أن تجازف وحرصت على موت العجوز في تلك الليلة!

صاح بيتر لورد: وماذا عن روديريك ويلمان؟ إنه يخسر هو الآخر!

هز بوارو رأسه بالنفي وقال: لا، لقد كان من مصلحته أن تكتب العجوز وصية. تذكّرْ أنها إن ماتت دون وصية فإنه لا يحصل على شيء، فقد كانت إلينور أقرب أقربائها.

- ولكنه كان سيتزوج إلينور.

- صحيح، ولكن تذكّرْ أن الخطوبة قد انفسخت بعد ذلك مباشرة، وأنه أظهر لها بوضوح بأنه يتمنى التحرر من هذا الأمر.

دمدم بيتر لورد وأمسك برأسه وقال: الأمر كله يعود إليها من جديد إذن، في كل مرة!

- نعم، ما لم...

سكت لحظة ثم قال: هناك شيء.

- ما هو؟

- شيء ما، قطعة صغيرة مفقودة في هذا اللغز، وأنا متأكد أنه شيء يخص ماري جيرارد. إنك -يا صديقي- تسمع الكثير من القيل والقال والفضائح هنا. ألم تسمع قط أي شيء ضدها؟

- ضد ماري جيرارد؟ أتقصد ما يتعلق بشخصيتها؟

- أي شيء. قصة ماضية عنها، فضيحة وقعت بها، تلميح لفضيحة، شكٌ في نزاهتها، إشاعة حاقدة تتعلق بها... أي شيء، أي شيء مهما كان. ولكن يجب أن يكون شيئاً يسيء إليها تحديداً.

قال بيتر لورد ببطء: آمل أن لا تكون عازماً على اقتراح هذا

الطريق: محاولة إثارة أمور حول فتاة مسالمة غدت ميتة لا تستطيع الدفاع عن نفسها؟ وأنا لا أظن أن بوسعك القيام بذلك على أية حال.

- أكانت تجسيداً للفضيلة الكاملة وذات حياة لا شائبة فيها إذن؟

- لقد كانت كذلك وفق ما أعرفه؛ لم أسمع بأي شيء آخر.

قال بوارو بلطف: ينبغي أن لا تظن أنني أريد إثارة فضائح من لاشيء. لا، فالأمر ليس كذلك مطلقاً. ولكن الممرضة الطيبة هوبكنز ليست بارعة في إخفاء مشاعرها؛ لقد كانت تحب ماري، وثمة شيء يتعلق بماري لا تريد الممرضة أن يعرفه أحد. أي أن هناك شيئاً ضد ماري تخشى الممرضة أن أكتشفه، وهي لا ترى أن لذلك الشيء أية علاقة بالجريمة. ولكنها مقتنعة أيضاً بأن إلينور كارليسل هي التي ارتكبت الجريمة، ومن الواضح أن تلك الحقيقة (أو ذلك الشيء) لا علاقة له بإلينور. ولكن من الضروري جداً أن أعرف كل شيء، فقد يكون هناك إجحاف ارتكبته ماري بحق شخص ثالث، وفي هذه الحالة ربما كان لذلك الشخص الثالث دافع ليتمنى موتها.

- ولكن من المؤكد أن تدرك الممرضة هوبكنز ذلك أيضاً في هذه الحالة.

- إن الممرضة هوبكنز امرأة ذكية تماماً ضمن حدودها، ولكن عقلها لا يكاد يضاهي عقلي أنا، وربما لا ترى هي ما يراه هيركيول بوارو!

قال بيتر لورد وهو يهز رأسه: آسف، إنني لا أعرف شيئاً.

قال بوارو وهو يتأمل: كما أن تيد بيغلاند لا يعرف أيضاً،

وهو الذي عاش هنا طوال حياته وحياة ماري. وكذلك حال السيدة بيشوب، فلو كانت تعرف شيئاً كريها عن الفتاة لما استطاعت إبقاءه لنفسها! حسناً، يبقى أمل واحد.

- وما هو؟

- سأرى الممرضة الأخرى اليوم، الممرضة أوبرايان.

قال بيتر لورد وهو يهز رأسه: إنها لا تعرف الكثير عن هذه المنطقة، فهي لم تمكث هنا إلاّ شهراً أو شهرين.

- أدرك ذلك، ولكننا سمعنا أن للممرضة هوبكنز لساناً طويلاً. وهي لم تثرثر في القرية حيث يمكن لمثل هذه الثرثرة أن تؤذي ماري جيرارد، ولكنني أشك في قدرتها على الإحجام عن التحدث لامرأة غريبة وزميلة مهنة -تلميحاً على الأقل- عن شيء كان يشغل تفكيرها! ربما كانت الممرضة أوبرايان تعرف شيئاً.

* * *

الفصل العاشر

رفعت الممرضة أوبرايان رأسها الأحمر وابتسمت عبر مائدة الشاي للرجل الضئيل الجالس قبالتها. فكرت قائلة لنفسها: يا له من مخلوق صغير غريب الشكل، وعيناه خضراوان كعيني قطة، ورغم ذلك كله فإن الدكتور لورد يقول إنه أذكى الأذكياء!

قال هيركيول بوارو: إنه لممّا يُسعد المرء أن يقابل شخصاً مثلك بكل هذه الصحة والحيوية. أنا متأكد أن مرضاك يشفون جميعاً.

قالت الممرضة أوبرايان: لست ممن يتجهّمون، ولا يموت الكثير من مرضاي تحت رعايتي والحمد لله.

- أما الأمر بالنسبة لحالة السيدة ويلمان فقد كان خلاصاً مريحاً لها بالطبع.

- آه، لقد كان كذلك. يا للمسكينة العزيزة!

ثم نظرت إلى بوارو بعينين حادتين ذكيتين وسألت: أعن هذا جئتَ لكي تحدثني؟ كأنني سمعتُ أنهم سيفتحون القبر لاستخراج جثتها.

- ألم تراودك أنت شخصياً شكوك في ذلك الحين؟

- مطلقاً، مع أنه كان بالإمكان أن أشكّ مما رأيته على وجه الدكتور لورد في ذلك الصباح، وإرساله لي إلى أماكن مختلفة لأحضر له أشياء لا يحتاجها! ولكنه وقّع شهادة الوفاة رغم كل ذلك.

بدأ بوارو يقول: كانت لديه أسبابه...

ولكنها اختطفت الكلمات من فمه ومضت قائلة: نعم، صحيح، وقد كان محقاً. فلا ينفع الطبيب أن يظن أشياء ويُحرج العائلة، وبعدها إذا ما تبين أنه مخطئ تكون تلك نهايته، إذ لن يرغب أحدٌ باستدعائه بعد ذلك. ينبغي على الطبيب أن يكون واثقاً.

- هناك فكرة مفادها أن السيدة ويلمان ربما انتحرت.

- هي؟ وهي تستلقي هناك عاجزة؟ إن كل ما كانت تستطيع فعله هو رفع يد واحدة من يديها!

- ألا يمكن أن يكون أحدٌ قد ساعدها؟

- آه، فهمت الآن ما تعنيه. الآنسة كارليسل أو السيد ويلمان، أو ربما ماري جيرارد؟

- كان ذلك ممكناً، أليس كذلك؟

نَفَت الممرضة بقوّة: ما كان أحد منهم ليجرؤ على ذلك.

قال بوارو متمهلاً: ربما. متى فقدت الممرضة هوبكنز أنبوبة المورفين؟

- في ذلك الصباح ذاته. قالت: "أنا واثقة أنها كانت معي هنا". كانت متأكدة جداً في البداية، ولكنك تعرف كيف تجري الأمور، فبعد فترة تختلط الأمور على عقل المرء، وفي النهاية تأكدت أنها تركتها في البيت.

تمتم بوارو: وحتى عندها لم تراودك شكوك؟

- لم تراودني أية شكوك قط! ومن المؤكد أنه لم يخطر لي للحظة واحدة أن الأمور لم تكن كما يجب. وحتى الآن فإنهم لا يملكون سوى شكوك فقط.

- أليس غريباً أن لا يثير فقدان الأنبوبة أية مشاعر من عدم الارتياح لديك أو لدى الممرضة هوبكنز؟

- ما كنتُ لأقول ذلك؛ فأنا أتذكر فعلاً أن الأمر خطر في ذهني... وفي ذهن الممرضة هوبكنز أيضاً كما أظن. كنا في مقهى وقتها، وقد قالت: "لا يمكن أن تكون قد ضاعت بطريقة أخرى، إلاّ أن أكون قد تركتها على رفّ الموقد فتدحرجت ووقعت في سلة المهملات، أليس كذلك؟". وقلتُ لها: "بالطبع، لا بدّ أن هذا هو ما حصل". ولم تعبّر أيّ واحدة منا عمّا كان يدور في خلدها أو عن الخوف الذي كان لديها.

سأل هيركيول بوارو: وماذا ترين الآن؟

- إذا وجدوا المورفين في جثتها فلن يتردد أحدٌ في استنتاج الشخص الذي أخذها وفيمَ استعملها... رغم أنني لن أصدق أنها أرسلَت العجوز في نفس الدرب حتى يثبت وجود المورفين في جثتها.

- هل أنت واثقة من أن إلينور كارليسل هي التي قتلت ماري جيرارد؟

- لا شك بذلك أبداً فيما أظن؛ فمَن غيرها لديه السبب والرغبة للقيام بذلك؟

- هذه هي المشكلة.

مضت الممرضة تقول بشكل درامي: ألم أكن حاضرة عندما كانت السيدة العجوز تحاول الكلام والآنسة إلينور تعدها بأن كل شيء سيتم بنزاهة ووفق رغبتها؟ ألم أرَ وجهها وهي تنظر خلف ماري وهي تنزل الدرج يوماً، وما كان فيه من كراهية سوداء؟ لقد كان القتل في عقلها في تلك اللحظة.

- إن كانت إلينور كارليسل قد قتلت السيدة ويلمان فلماذا قتلتها؟

- لماذا؟ من أجل المال طبعاً. مبلغ لا يقل عن مئتَي ألف جنيه. هذا ما حصلت عليه من ذلك، ولهذا أقدمت عليه... إن كانت قد فعلت ذلك. إنها فتاة جريئة ذكية ليس عندها خوف، ولديها الكثير من الذكاء.

- لو عاشت السيدة ويلمان لتكتب وصية فكيف كانت ستترك أموالها برأيك؟

قالت الممرضة أوبرايان: آه، هذا أمر لا يعود تقريره إليّ.

ولكنها أظهرت كل ما يوحي بأنها على وشك تقرير ذلك، ثم قالت: ولكن رأيي هو أن كل قرش تملكه العجوز كان سيؤول إلى ماري جيرارد.

- لماذا؟

بدا أن هذه الكلمة القصيرة قد أزعجت الممرضة أوبرايان، فقالت: لماذا؟ أتسأل لماذا؟ حسناً، إنني أقول إن هذا ما كان سيحدث.

- ربما قال بعض الناس إن ماري جيرارد قد لعبت أوراقها بكل ذكاء، وإنها تمكنت من أن تجعل لنفسها حظوة عند العجوز بحيث تنسيها روابط الدم والحب.

قالت الممرضة ببطء: ربما قالوا ذلك.

- أكانت ماري جيرارد فتاة ذكية ذات كيد؟

قالت الممرضة بشيء من التمهل أيضاً: لا أظن ذلك. كان كل ما فعلته طبيعياً تماماً بلا كيد أو تخطيط. لم تكن من ذلك النوع.

قال بوارو برقّة: أظن أنك امرأة كتومة جداً يا سيدتي.

- لست ممّن يتكلمون فيما لا يعنيهم.

مضى بوارو قائلاً وهو يراقبها عن كثب: لقد اتفقتما أنت والممرضة هوبكنز على أن هناك أموراً من الأفضل أن لا تنتشر بين الناس، أليس كذلك؟

- ماذا تعني بهذا القول؟

قال بوارو بسرعة: لا شيء يخص الجريمة... أو الجريمتين، إنما أعني القضية الأخرى.

قالت الممرضة أوبرايان وهي تومئ برأسها: ما الفائدة من إثارة الفضائح والقصص القديمة، وهي امرأة مُسنّة محترمة لا تدور حولها إشارة لأية فضيحة، وقد ماتت محترَمة يقدّرها الجميع.

أومأ بوارو برأسه موافِقاً، ثم قال بحذر: كما تقولين، لقد كانت السيدة ويلمان محترمة جداً في ميدنزفورد.

كان الحديث قد اتخذ منعطفاً غير متوقع، ولكن وجه بوارو

لم يُظهر أية دهشة أو استغراب.

مضت الممرضة قائلة: وهو أمر مضى منذ زمن بعيد أيضاً، والجميع ماتوا ونُسوا. إن لي -شخصياً- قلباً رقيقاً بخصوص قصص الحب الرومنسية، وأنا أقول (كما قلتُ دوماً) إن من الصعب على رجل له زوجة في مستشفى المجانين أن يرتبط كل حياته دون أن يكون هناك ما يحرره من قيده سوى موت زوجته.

تمتم بوارو وهو ما يزال على ذهوله: نعم، هذا صعب.

- هل أخبرتك الممرضة هوبكنز كيف تزامنت رسالتها مع رسالتي؟

قال بوارو صادقاً: لم تخبرني بذلك.

- لقد كانت مصادفة غريبة، ولكن هكذا تجري الأمور! تسمع اليوم باسم، ولا يمرّ يوم أو يومان حتى تلتقي به ثانية، وهكذا. وإلاّ فكيف يمكن أن أرى نفس الصورة تماماً فوق البيانو في نفس الوقت الذي تسمع فيه الممرضة هوبكنز كل شيء عن القصة من مدبرة منزل الطبيب؟

- هذا مثير جداً.

ثم سأل على سبيل التجربة: وهل عرفت ماري جيرارد بالأمر؟

- ومن يخبرها؟ أنا لم أخبرها، وكذلك هوبكنز. وما فائدة ذلك لها في نهاية الأمر؟

رفعت رأسها عالياً وحدقت إليه بثبات، فقال بوارو متنهداً: ما فائدة ذلك حقاً؟

* * *

الفصل الحادي عشر

إلينور كارليسل...

عبر الطاولة التي تفصل بينهما كان بوارو ينظر إليها متفحصاً. كانا بمفردهما معاً، وكان يراقبهما حارس من خلف جدار زجاجي.

لاحظ بوارو الوجه الحسّاس الذكي ذا الجبين الأبيض المستطيل، والتشكيل الرقيق للأذنين والأنف. كانت خطوط وجهها بديعة، مخلوقة حساسة ذات كبرياء، يبدو عليها كرم المحتد وضبط النفس، وشيء آخر... لعله العاطفة القوية.

قال: اسمي هيركيول بوارو. لقد أرسلني إليك الدكتور بيتر لورد، وهو يرى أن بوسعي أن أساعدك.

قالت إلينور كارليسل: بيتر لورد؟

كانت نبرتها نبرة ذكرى. ابتسمت ابتسامة خاطفة بقليل من الكآبة، ثم مضت تقول بشكل رسمي: هذا لطف منه، ولكن لا أظن أن هناك ما يمكن أن تفعله.

- هل يمكن أن تجيبي على أسئلتي؟

تنهدت وقالت: صدّقني، سيكون من الأفضل أن لا تطرحها. إنني في أيدٍ قديرة؛ لقد كان السيد سيدون لطيفاً جداً، وسوف يدافع

عني محامي دفاع شهيرٌ جداً.

قال بوارو: ولكنه ليس بمثل شهرتي!

قالت إلينور بشيء من السأم: إن له سمعة عظيمة.

- نعم، له سمعة في الدفاع عن المجرمين، أما أنا فلديّ سمعة عظيمة في إثبات براءة البريء.

رفعت عينيها أخيراً... عينين زرقاوين مليئتين بالحيوية. نظرت العينان إلى بوارو مباشرة، ثم قالت: هل تصدق أنني بريئة؟

- هل أنت بريئة؟

ابتسمت إلينور ابتسامة ساخرة صغيرة وقالت: أهذه عيِّنة من أسئلتك؟ إنه لمن السهل الإجابة بنعم، أليس كذلك؟

قال على نحو غير متوقع: أنت متعَبة جداً، أليس كذلك؟

اتسعت عيناها قليلاً وقالت: بلى، متعَبة أكثر من أي شيء آخر. كيف عرفت؟

- لقد عرفت.

- سأكون سعيدة عندما ينتهي الأمر.

نظر إليها بوارو صامتاً للحظات، ثم قال: لقد رأيتُ... ابن عمك، لنسمّه هكذا تجاوزاً، أعني السيد روديريك ويلمان.

تصاعد الدم ببطء إلى الوجه الأبيض ذي الكبرياء، وقد عرف وقتها بأن أحد أسئلته قد تمّت الإجابة عليه دون حاجة لطرحه.

قالت بأثر قليل لا يكاد يَبين من الرجفة في صوتها: هل رأيت رودي؟

- إنه يفعل كل ما بوسعه من أجلك.

- أعرف.

كان صوتها سريعاً وناعماً.

قال بوارو: أهو فقير أم غني؟

- رودي؟ ليس لديه الكثير من المال الخاص به.

- وهو مسرف؟

قالت بشكل أقرب إلى الشرود: كلانا لم نرَ أن لذلك أهمية؛ كنا نعرف أننا في يومٍ ما...

ثم توقفت، فقال بوارو بسرعة: كنتما تعتمدان على إرثكما؟ هذه مسألة مفهومة.

ثم مضى قائلاً: ربما سمعتِ بنتيجة تشريح جثة عمتك؛ لقد ماتت نتيجة التسمم بالمورفين.

قالت إلينور كارليسل ببرود: أنا لم أقتلها.

- هل ساعدتها على قتل نفسها؟

- هل ساعدت...؟ آه، فهمت. لا، لم أفعل.

- هل كنت تعلمين أن عمتك لم تكتب وصية؟

- لا، لم تكن لديّ فكرة عن ذلك.

كان صوتها محايداً الآن، رتيباً، وكان جوابها آلياً سئِماً.

قال بوارو: وأنت نفسك، هل كتبتِ وصية؟

- نعم.

- هل كتبتها في اليوم الذي تحدث معك الدكتور لورد عنها؟

- نعم.

ظهرت ثانية تلك الموجة السريعة من الاحمرار على وجهها.

- لمن تركت ثروتك يا آنسة كارليسل؟

قالت بهدوء: لقد تركت كل شيء لرودي، لروديريك ويلمان.

- وهل يعرف هو بذلك؟

قالت بسرعة: لا، بالتأكيد لا يعرف.

- ألم تناقشي ذلك معه؟

- لم أفعل بالطبع. كان من شأنه أن يُحرَج حرجاً بالغاً ويكره ما أفعله.

- مَن غيرك يعرف محتويات وصيتك؟

- السيد سيدون فقط... وموظفوه كما أظن.

- هل كتب السيد سيدون الوصية لك؟

- نعم. كتبتُ له في ذلك المساء نفسه، أعني في اليوم الذي حدّثني فيه الدكتور لورد عن الأمر.

- هل وضعتِ رسالتك في البريد بنفسك؟

- لا، بل ذهبَت في الصندوق من البيت مع باقي الرسائل.

- أأنت التي كتبتِ الرسالة ووضعتها في المغلف، وختمتها ووضعتِ عليها الطابع، ووضعتها في الصندوق، هكذا؟ ألم تتوقفي قليلاً لتفكري؟ لتقرئيها من جديد؟

قالت إلينور وهي تحدق إليه: لقد أعدتُ قراءتها، نعم. كنت قد ذهبت للبحث عن بعض الطوابع، وعندما عدتُ بالطوابع أعدتُ قراءة الرسالة لأتأكد من أنني كتبتها بوضوح.

- أكان معك أحد في الغرفة؟

- رودي فقط.

- أكان يعرف ما كنت تفعلينه؟

- لقد أخبرتك. لا.

- أيمكن أن يكون أحدٌ قد قرأ الرسالة عندما كنتِ خارج الغرفة؟

- لا أدري. أتعني أحد الخدم؟ أحسب أن ذلك ممكن إن توفرت لهم الفرصة للدخول وأنا خارج الغرفة.

- وقبل أن يدخلها السيد روديريك ويلمان؟

- نعم.

- وكان بوسعه هو أيضاً أن يقرأها، أليس كذلك؟

قالت إلينور بصوت واضح فيه ازدراء: يمكنني أن أؤكد لك يا سيد بوارو بأن «ابن عمي» كما أسميتَه لا يقرأ رسائل الآخرين.

- هذه هي الفكرة السائدة، أعرف ذلك. ولكنك ستُدهَشين لو علمت كم من الناس يقومون بما «لا ينبغي أن يُفعل».

رفعت إلينور كتفيها بلامبالاة، فقال بوارو بأسلوب عَرَضي: أكان ذلك هو اليوم الذي خطرت لك فيه لأول مرة فكرة قتل ماري جيرارد؟

وللمرة الثالثة اكتسح اللون الأحمر وجه إلينور كارليسل، وكان في هذه المرة أشبه بموجة حريق. قالت: هل أخبرك بيتر لورد بذلك؟

قال بوارو بلطف: لقد كان ذلك وقتها، أليس كذلك؟ عندما نظرتِ من خلال النافذة ورأيتِها تكتب وصيتها. وقتها خطر لك كم سيكون ذلك غريباً (وكم سيكون مناسباً) لو حدث وماتت ماري جيرارد.

قالت إلينور بصوت منخفض مخنوق: لقد عرف، لقد نظر إليّ وعرف.

- إن الدكتور لورد يعرف الكثير، فذلك الشاب ذو الوجه المنمَّش والشعر الأحمر ليس مغفلاً.

قالت إلينور بصوت منخفض: هل صحيح أنه أرسلك... لتساعدني؟

- هذا صحيح يا آنسة.

تنهدت وقالت: أنا لا أفهم. نعم، لا أفهم.

- اسمعي يا آنسة كارليسل؛ من الضروري أن تخبريني بما حدث بالضبط في ذلك اليوم الذي ماتت فيه ماري جيرارد: أين ذهبتِ، وماذا فعلتِ، والأكثر من ذلك أنني أريد أن أعرف حتى بماذا فكرتِ.

حدقت إليه، ثم ارتسمت على شفتيها ببطء ابتسامة صغيرة غريبة، وقالت: لا بد أنك رجل بسيط جداً. ألا تدرك كم هو سهل عليّ أن أكذب عليك؟

قال بوارو ببساطة: هذا لا يهم.

قالت بدهشة: لا يهم؟

- نعم، لأن الكذب -يا آنسة- يمكن أن يُخبر المستمع بقدر ما يمكن للحقيقة أن تخبره، وأحياناً فإن الكذب يُخبر أكثر! هيا الآن، ابدئي. لقد قابلتِ مدبرة المنزل، السيدة الطيبة بيشوب. وقد أرادت القدوم لمساعدتك ولكنك لم تسمحي لها. لماذا؟

- أردتُ أن أكون بمفردي.

- لماذا؟

- لماذا؟ لماذا؟ لأنني أردتُ أن أفكر.

- أردت أن تتخيلي... نعم. وبعدها، ما الذي فعلتِه بعدها؟

قالت إلينور بتصميم: اشتريت بعض الصلصة للشطائر.

- اشتريتِ قارورتَي صلصة؟

- نعم، قارورتين.

- ثم ذهبت إلى منزل هَنتربيري، ماذا فعلتِ هناك؟

صعدت إلى غرفة عمتي في الطابق العلوي وبدأت بفحص أشيائها.

- وماذا وجدتِ؟

قالت بتجهم: ماذا وجدت؟ ملابسَ وحليّاً وصوراً ورسائل قديمة.

- ألم تجدي أية أسرار؟

- أسرار؟ أنا لا أفهمك.

- لنستمرّ إذن. ماذا صنعت أيضاً؟

- نزلت إلى الصالة وبدأت بتقطيع الشطائر.

قال بوارو بلطف ونعومة: وفكرتِ... بماذا فكرت؟

أجابت وقد برقت عيناها الزرقاوان فجأة: فكرت باسمي؛ بإلينور صاحبة أكويتين.

- فهمت.

- هل فهمتَ حقاً؟

- بالطبع، فأنا أعرف القصة؛ لقد قامت إلينور بتخيير روزاموند الجميلةَ بين الخنجر وكأس السم، أليس كذلك؟ واختارت روزاموند السم.

لم تقل إلينور شيئاً، وغدت شاحبة تماماً. قال بوارو: ولكن ربما لم يكن هناك خيار في هذه المرة. استمرّي يا آنسة، ماذا حدث بعد ذلك؟

- وضعتُ الشطائر جاهزة على طبق ثم ذهبت إلى بيت البواب. كانت الممرضة هوبكنز وماري جيرارد هناك، فأخبرتهما بأن لديّ بعض الشطائر في البيت.

كان بوارو يراقبها. قال بهدوء: نعم، ثم عدتم جميعاً إلى البيت

معاً، أليس كذلك؟

- نعم، ثم... أكلنا الشطائر في غرفة جلوس الصباح.

قال بوارو بنفس النبرة الهادئة: نعم، نعم، وما زلتِ في الحلم. وبعدها...

- بعدها؟ تركتها... تقف قرب النافذة. خرجتُ إلى غرفة الأواني، وكان الأمر لا يزال كما قلتَ... في حلم. كانت الممرضة هناك تغسل الأطباق، وأعطيتها قارورة الصلصة.

- نعم، وماذا حدث بعدها؟ بماذا فكرتِ بعد ذلك؟

قالت إلينور كالحالمة: كانت هناك علامة على رسغ الممرضة. أشرتُ إليها فقالت إنها شوكة أصابتها من عريشة الورد قرب بيت البوّاب. الورود قرب بيت البواب... كنا قد تشاجرنا مرة أنا ورودي، منذ زمن طويل... «حروب الورود». كنت أنا أمثّل فريق لانكستر وكان هو يمثل فريق يورك. كان يحب الورود البيضاء، وقلت له إنها ليست حقيقية، حتى إنها بلا رائحة! إنني أحب الورود الحمراء، فهي كبيرة وقاتمة وذات وبر مخملي ناعم وفيها رائحة الصيف. تشاجرنا كأسخف ما تكون المشاجرات. لقد عاد المشهد كله إلى ذاكرتي هناك في غرفة الأواني، وانكسر شيء ما... الكراهية السوداء الكامنة في قلبي... تلاشت مع تذكري كيف كنا معاً ونحن أطفال. لم أعد أكره ماري بعد ذلك، لم أحب لها الموت.

توقفت، ثم عادت لتقول: ولكن لاحقاً، عندما عدنا إلى غرفة الجلوس الصباحي، كانت ماري تحتضر.

وتوقفت. كان بوارو يحدق إليها بكل انتباه، فتورّد وجهها وقالت: هل ستسألني مرة ثانية إن كنت قد قتلتُ ماري جيرارد؟

نهض بوارو واقفاً وقال بسرعة: لن أسألك شيئاً، فهناك أمور لا أريد معرفتها.

* * *

الفصل الثاني عشر

-١-

استقبل الدكتور لورد القطار في المحطة كما طُلب منه. نزل هيركيول بوارو من القطار وهو يبدو كأهل لندن بحذائه الجلدي المدبب، وتفحص بيتر لورد وجه بوارو بكل لهفة، ولكن بوارو لم يكن يُظهر شيئاً.

قال بيتر لورد: لقد فعلت ما بوسعي للحصول على أجوبة لأسئلتك. أولاً، غادرت ماري جيرارد المنطقة هنا إلى لندن في العاشر من تموز (يوليو). ثانياً، ليس عندي مدبرة منزل، فقط خادمتان سخيفتان تديران منزلي. أحسب أنك تعني السيدة سلاتري التي كانت مدبرة منزل سَلَفي الدكتور رانسوم، ويمكنني أن آخذك إليها صباح اليوم إن شئت، فقد رتبت الأمور بحيث تكون موجودة.

- نعم، قد يكون من الأفضل أن أراها بداية.

- ثم قلتَ إنك تريد الذهاب إلى هَنتربيري، وبوسعي الذهاب معك إلى هناك. بل إنني حائر بسبب عدم ذهابك إليه حتى الآن. لا أعرف لماذا لم تذهب إليه عندما كنتَ هنا في المرة الماضية، فقد كنتُ أحسب أن أول ما ينبغي فعله في أية قضية كهذه هو زيارة

المكان الذي تمت فيه الجريمة.

سأل بوارو وهو يميل برأسه قليلاً إلى الجانب: لماذا؟

- لماذا؟!

بدا بيتر لورد وكأنه حائر قليلاً لهذا السؤال وقال: أليس هذا هو الإجراء العادي المتّبَع؟

- إن المرء لا يمارس التحري وفقاً لكتاب دراسي، بل يستخدم ذكاءه الطبيعي.

- يمكنك أن تجد دليلاً ما هناك.

تنهد بوارو وقال: يبدو أنك تقرأ كثيراً من القصص البوليسية. إن شرطتكم في هذا البلد يستحقون الإعجاب، ولا أشكّ في أنهم قد فتشوا البيت والأراضي المحيطة به بكل دقة.

- فتّشوه بحثاً عن أدلة ضد إلينور كارليسل وليس عن أدلة لصالحها.

تنهد بوارو وقال: يا صديقي العزيز، إن الشرطة ليسوا وحوشاً مرعبين. لقد اعتُقلت إلينور كارليسل لأن الشرطة عثروا على أدلة تكفي لرفع قضية قوية ضدها، بل قضية قوية جداً. لذلك لم أرَ فائدة من البحث في مكان بحث فيه الشرطة.

اعترض بيتر لورد قائلاً: ولكنك تريد الآن الذهاب إلى هناك؟

أومأ بوارو برأسه وقال: نعم، لقد أصبح ذلك ضرورياً الآن لأنني أعرف الآن تماماً ما الذي أبحث عنه. ينبغي على المرء أن يفهم بخلايا دماغه قبل أن يستخدم عينيه.

- إذن فأنت ترى فعلاً إمكانية وجود شيء بقي هناك؟

قال بوارو بلطف: عندي فكرة صغيرة تقول إننا قد نجد شيئاً، نعم.

- شيئاً يثبت براءة إلينور؟

- آه، أنا لم أقل ذلك.

وقف بيتر لورد مشدوهاً وقال: لا أظنك تعني أنك ما تزال تراها مذنبة؟

قال بوارو بتجهم: ينبغي أن تنتظر -يا صديقي- قبل أن تحصل على جواب لذلك السؤال.

-٢-

تغدى بوارو مع الطبيب في غرفة مربعة مريحة ذات نافذة تطل على الحديقة. وقال لورد: هل حصلت على ما تريد من العجوز سلاتري؟

أومأ بوارو برأسه وقال: نعم.

- ما الذي كنت تريده منها؟

- الثرثرة! حديث عن عهود مضت. إن لبعض الجرائم جذوراً في الماضي، وأظن أن لهذه الجريمة مثل هذه الجذور.

قال بيتر لورد بانزعاج: أنا لا أفهم كلمة واحدة مما تقوله.

ابتسم بوارو وقال: إن هذه السمكة طازجة لذيذة.

قال لورد بنفاد صبر: لا شك أنها كذلك، لقد اصطدتها بنفسي قبل الإفطار هذا الصباح. اسمعني يا بوارو، هل لي أن أعرف شيئاً عما تريد فعله؟ لماذا تبقيني جاهلاً بكل شيء؟

هز بوارو رأسه وقال: لأنه لا يوجد ضوء حتى الآن. إنني أقف في كل مرة أمام الحقيقة القائلة إن أحداً لم يكن له أي سبب لقتل ماري جيرارد... باستثناء إلينور كارليسل.

- لا يمكنك الجزم بذلك، تذكّر أنها قضت بعض الوقت في الخارج.

- نعم، نعم، لقد أجريت تحرياتي.

- هل ذهبت إلى ألمانيا بنفسك؟

- بنفسي؟ لا.

ثم أضاف بضحكة خفيفة: إن لديّ جواسيسي!

- هل تستطيع الاعتماد على أناس آخرين؟

- بالتأكيد؛ فليس من شأني أنا أن أتراكض هنا وهناك لأقوم بمهمات هواة يمكن لأي واحد غيري أن يؤديها بشكل محترف مقابل مبلغ بسيط من المال. أؤكد لك -يا صديقي- أن لديّ الكثير من المهمات، ولديّ بعض المساعدين المفيدين... أحدهم لص سابق.

- ولأي شيء تستخدمه؟

- آخر مهمة استخدمته فيها كانت إجراء تفتيش دقيق جداً لشقة السيد ويلمان.

- وما الذي كان يبحث عنه؟

- يحبّ المرء دوماً أن يعرف ما هي الكذبات التي قيلت له.

- وهل كذب عليك ويلمان؟

- بالتأكيد.

- ومَن غيره كذب عليك؟

- الجميع كما أظن: الممرضة أوبرايان بدوافع رومنسية، والممرضة هوبكنز بعناد، والسيدة بيشوب بحقد، وأنت نفسك...

قاطعه بيتر لورد دون احتفاء قائلاً: يا إلهي! لا أحسبك تظن أنني كذبتُ عليك؟

اعترف بوارو قائلاً: ليس بعد.

عاد الدكتور لورد ليغرق في كرسيه قائلاً: أنت رجل شكّاك يا بوارو. حسناً، إذا انتهيت فهل لنا أن ننطلق إلى هَنتربيري؟ أمامي بعض المرضى الذين ينبغي رؤيتهم لاحقاً، وهناك العيادة.

- أنا تحت تصرفك يا صديقي.

انطلقا مشياً على الأقدام، ودخلا حدائق البيت عن طريق الممشى الخلفي، وعندما قطعا نصف الممشى لقيا شاباً طويلاً وسيماً يدفع عربة بستاني، فقام برفع قبعته للطبيب باحترام، فقال الطبيب: صباح الخير يا هورليك. هذا هورليك البستاني يا بوارو، كان يعمل هنا في ذلك الصباح.

قال هورليك: نعم يا سيدي، كنتُ هنا، وقد رأيت الآنسة إلينور في ذلك الصباح وتحدثتُ معها.

سأله بوارو: ماذا قالت لك؟

- قالت لي إن البيت سيباع، وقد فاجأني ذلك قليلاً يا سيدي، ولكن الآنسة إلينور قالت إنها ستتكلم مع الميجر سمرفيل من أجلي وإنه ربما أبقاني في العمل... إن لم يراني صغيراً على وظيفة كبير البستانيين، رغم أنني تدرّبت بشكل جيد على يد السيد ستيفنز هنا.

قال الدكتور لورد: هل بدت طبيعية كعادتها يا هورليك؟

- نعم يا سيدي، باستثناء بعض الانفعال الذي بدا عليها... كما لو كان في ذهنها شيء ما.

قال بوارو: هل كنت تعرف ماري جيرارد؟

- نعم يا سيدي، ولكن ليس بشكل جيد جداً.

قال بوارو: كيف كانت؟

بدا هورليك متحيراً وقال: أتعني شكلها يا سيدي؟

- لا، أقصد أيَّ نوع من الفتيات كانت؟

- حسناً، كانت من النوع الراقي جداً من الفتيات، كلام مهذب وغير ذلك. وأحسب أنها كانت معجبة بنفسها. لقد كانت السيدة العجوز ويلمان توليها عناية كبرى، وقد أغضب ذلك والدَها، جعله شديد الغضب.

قال بوارو: يبدو من كل ما سمعتُه أن ذلك العجوز لم يكن ذا مزاج هادئ؟

- نعم يا سيدي، لم يكن مزاجه هادئاً. كان يتذمر دائماً وكان دائم الغضب، ونادراً ما تسمع منه كلمة مهذبة.

قال بوارو: لقد كنتَ هنا في ذلك الصباح. أين كنتَ تعمل بالضبط؟

- في حديقة المطبخ غالباً يا سيدي.

- هل تستطيع رؤية البيت من هناك؟

- لا يا سيدي.

قال بيتر لورد: لو جاء أحدهم إلى البيت وصولاً إلى نافذة غرفة الأواني، أكنت ستراه؟

- لا يا سيدي، ما كنتُ لأراه.

قال بيتر لورد: متى ذهبت لتناول غدائك؟

- في الساعة الواحدة يا سيدي.

سأله لورد: ألم ترَ شيئاً... رجلاً يتجول في المكان، أو سيارة في الخارج، أو أي شيء من ذلك؟

ارتفع حاجبا الرجل بشيء من الدهشة وقال: خارج البوابة الخلفية يا سيدي؟ كانت هناك سيارتك لا غير.

صاح بيتر لورد: سيارتي أنا؟ لم تكن سيارتي! لقد كنت في اتجاه ويذنبيري في ذلك الصباح ولم أعد إلاّ بعد الثانية ظهراً.

بدا هورليك حائراً وقال بارتياب: لقد تأكدتُ أنها سيارتك يا سيدي.

قال لورد بسرعة: حسناً، لا يهم. طاب صباحك يا هورليك.

ثم تحركا هو وبوارو، وحدّق هورليك خلفهما لحظات ثم

تابع دفع عربته ببطء. قال بيتر لورد بهدوء (ولكن بانفعال شديد): وجدنا شيئاً في النهاية. سيارة مَن كانت تلك الواقفة هناك في ذلك الصباح؟

- من أي طراز سيارتك يا صديقي؟

- إنها سيارة فورد خضراء فاتحة، وهي سيارة يوجد منها الكثير بالطبع.

- وهل أنت واثق أنها لم تكن سيارتك؟ ألم تخطئ في تحديد اليوم؟

- أنا متأكد تماماً. لقد كنت في ويذنبيري، وعدتُ متأخراً فتناولت غداء سريعاً، ثم جاءتني المكالمة بخصوص ماري جيرارد فهرعت إليها.

قال بوارو بهدوء: إذن يبدو أننا وصلنا إلى شيء ملموس أخيراً.

- لقد كان أحدهم هنا في ذلك الصباح، شخص غير إلينور كارليسل وغير ماري جيرارد والممرضة هوبكنز.

- هذا مثير جداً. هيا، لنقُم بتحرياتنا. لنرَ مثلاً: إذا ما أراد رجل (أو امرأة) الاقتراب من البيت خفية دون أن يُرى فكيف يفعل ذلك؟

في منتصف الممشى تقريباً كان هناك ممر يتفرع عنه مخترقاً بعض الشجيرات. مشى الاثنان في هذا الممر، وفي أحد منحنياته أمسك بيتر لورد بذراع بوارو مشيراً إلى نافذة وقال: تلك هي نافذة غرفة الأواني حيث كانت إلينور تقطع الشطائر.

قال بوارو: ومن هنا بوسع أي امرئ أن يراها تقطعها. لقد كانت النافذة مفتوحة إن أسعفتني الذاكرة؟

- كانت مفتوحة على مصراعيها. تذكَّرْ أنه كان يوماً حاراً.

قال هيركيول بوارو متأملاً: إذا ما أراد أي واحد أن يراقب ما يجري دون أن يراه أحد فإن هذه النقطة ستكون مناسبة له.

بحث الرجلان حولهما، ثم قال بيتر لورد: هناك مكان هنا، خلف هذه الأغصان. بعض النباتات قد وُطئت هنا. لقد عادت فنمت الآن ولكن بوسع المرء أن يلاحظ ذلك بسهولة.

انضم إليه بوارو، ثم قال متأملاً: نعم، هذا مكان جيد، فهو مخفي عن الممر وهذه الفتحة بين الشجيرات تعطي المرء فرصة رؤية واضحة للنافذة. والآن، ما الذي فعله صاحبنا الذي وقف هنا؟ أتراه كان يدخن؟

انحنيا وأخذا يتفحصان التربة ويزيحان الأوراق والأغصان. وفجأة هتف هيركيول بوارو، فانتصب بيتر لورد وقال: ما الأمر؟

- علبة ثقاب يا صديقي، علبة ثقاب فارغة، وقد وُطئت بقوة حتى انغرست في الأرض. إنها رطبة ومهترئة.

ثم رفع العلبة بعناية وحرص ووضعها أخيراً على ورقة ملاحظات أخرجها من جيبه.

قال بيتر لورد: إنها أجنبية. يا إلهي، ثقاب ألماني!

- وقد عادت ماري جيرارد من ألمانيا مؤخراً.

قال بيتر لورد بنشوة: لقد حصلنا على شيء الآن؛ لا تستطيع نكران ذلك.

قال هيركيول بوارو ببطء: ربما.

- ولكن، تباً! من عساه يحمل ثقاباً أجنبياً هنا؟

- أعرف، أعرف.

ثم انتقلت عيناه الحائرتان إلى الفسحة بين الشجيرات والإطلالة على النافذة، وقال: إن الأمر ليس بالسهولة التي تظنها، هناك صعوبة واحدة كبرى. ألا تراها بنفسك؟

- ما هي؟ قل لي.

تنهد بوارو وقال: إن كنت لا تراها بنفسك... ولكن تعال، دعنا نستمر.

ثم مضيا إلى البيت، وفتح بيتر لورد الباب الخلفي بمفتاح، ثم تقدم صاحبه من خلال غرفة الغسيل إلى المطبخ، ومن هناك ذهبا عبر ممر كانت في أحد جوانبه غرفة تعليق الملابس وعلى جانبه الآخر غرفة الأواني. نظر الاثنان في غرفة الأواني.

كانت فيها الخزائن المعتادة ذات الأبواب الزجاجية التي تنزلق انزلاقاً والتي يُحتفَظ فيها بالكؤوس والفناجين والأواني الصينية، وكان هناك موقد غازي وإبريقان وعلبتان أسطوانيتان على الرف كُتب عليهما «شاي» و«سكر»، ومجلى، وبلاطة لتجفيف الأواني، وطشت غسيل، وأمام النافذة كانت هناك طاولة.

قال بيتر لورد: على هذه الطاولة قطعت إلينور الشطائر، وقد وُجدت قصاصة الورق الملصقة على أنبوبة المورفين في هذا الشق في الأرضية تحت المجلى.

قال بوارو متأملاً: الشرطة يفتّشون جيداً ولا يفوتهم الكثير.

قال بيتر لورد بعصبية: لا دليل على أن إلينور قد لمست تلك الأنبوبة! كما أقول لك، لقد كان شخص يراقبها من بين الشجيرات هناك، وعندما ذهبت إلى بيت البواب رأى فرصته فانسلّ داخلاً وفتح الأنبوبة وسحق بعض حبات المورفين لتصبح مسحوقاً، ثم وضعها في الشطيرة العليا. ولم يلاحظ أنه قد مزّق قطعة صغيرة من الورقة الملصقة على الأنبوبة وأنها تطايرت ودخلت ذلك الشق. ثم أسرع خارجاً وأدار محرك سيارته وانطلق ثانية.

تنهد بوارو وقال: أما زلت لا ترى؟ غريب كيف يمكن لرجل ذكي أن يتبلد ذهنه!

سأل بيتر لورد غاضباً: أتريد القول إنك لا تصدق أن أحداً وقف بين تلك الشجيرات ليراقب النافذة؟

- نعم، أنا أصدق ذلك.

- إذن فإن علينا أن نعرف من هو، كائناً من كان.

تمتم بوارو: لن نضطر إلى البحث بعيداً كما يخيّل لي.

- أتعني أنك تعرف؟

- لديّ فكرة قريبة جداً.

قال بيتر لورد بتمهل: إذن فإن عملاءك الذين قاموا بتحرياتهم في ألمانيا قد جاؤوك بشيء فعلاً.

قال بوارو وهو ينقر على جبينه: يا صديقي، الأمر كله هنا، في رأسي. هيا، دعنا نعاين البيت.

-٣-

وقفا أخيراً في الغرفة التي ماتت فيها ماري جيرارد.

كان في البيت جو غريب؛ بدا حياً بالذكريات والنُذُر. فتح بيتر لورد إحدى النوافذ وقال وهو يرتعد قليلاً: يشعر المر أن هذا المكان أشبه بالقبر.

- لو أن الجدران تتكلم! الأمر كله هنا، هنا في هذا البيت... بداية القصة كلها.

سكت قليلاً ثم قال بهدوء: هنا في هذه الغرفة ماتت ماري جيرارد.

- لقد وجدوها تجلس في ذلك الكرسي عند النافذة.

قال هيركيول بوارو متأملاً: فتاة صغيرة، جميلة، رومنسية. هل كانت تخطط وتكيد؟ هل كانت إنسانة متعالية متكبرة؟ هل كانت لطيفة عذبة لا تخطر لها أفكار الكيد، مجرد مخلوقة صغيرة تبدأ حياتها، فتاة كالزهرة؟

- كائناً ما كان شأنها فقد تمنى أحدهم موتها.

- لستُ واثقاً.

حدق بيتر لورد إليه وقال: ماذا تعني؟

هز بوارو رأسه وقال: لم يئن الأوان.

ثم استدار وقال: لقد عاينّا البيت كله ورأينا كل ما يمكن رؤيته. دعنا نذهب إلى بيت البوّاب.

وهناك أيضاً كان كل شيء مرتباً. كانت الغرف مُغبَرّة ولكنها مرتبة وخالية من الأمتعة الشخصية، ولم يمكث الرجلان إلاّ بضع دقائق. وفيما هما يخرجان إلى ضوء الشمس لمس بوارو أوراق وردة نمت على العريشة. كانت وردة حمراء قرمزية زكية الرائحة، ثم سأل قائلاً: هل تعرف اسم هذه الوردة يا صديقي؟

قال الطبيب بانزعاج: وما أهمية ذلك؟

- عندما رأيت إلينور كارليسل تكلمت معي عن الورود، ووقتها بدأت أرى... ليس ضوء النهار، بل تلك الومضات الخفيفة للضوء التي يراها المرء في القطار عندما يوشك على الخروج من نفق. هذا ليس ضوء النهار بقدر ما هو وعد بضوء النهار.

قال بيتر لورد بصوت أجش: ماذا أخبرَتك؟

- أخبرتني عن طفولتها، عن اللعب هنا في هذه الحديقة، وكيف كانت هي ورودريك على طرفَي نقيض. كانا عدوَّين، إذ كان يفضل وردة يورك البيضاء الباردة البسيطة الصارمة، وكانت هي -كما أخبرتني- تحب الورود الحمراء، وردة لانكستر الحمراء، الورود الحمراء ذات الرائحة واللون والعاطفة والدفء. وهذا -يا صديقي- هو الفرق بين إلينور كارليسل ورودريك ويلمان.

- وهل يفسر هذا شيئاً؟

- إنه يفسر إلينور كارليسل. شديدة العاطفة والكبرياء، التي أحبت بشكل يائس رجلاً لم يكن قادراً على حبها.

- لا أفهمك.

قال بوارو: ولكنني أفهمها، بل أفهمهما كليهما. والآن

يا صديقي، سنعود ثانية إلى تلك الفسحة الصغيرة بين الشجيرات.

ذهبا إلى هناك صامتين، وكان وجه بيتر لورد المنمش منزعجاً غاضباً. وعندما وصلا إلى تلك النقطة وقف بوارو دون حراك لبعض الوقت فيما راقبه بيتر لورد. ثم أصدر رجل التحري الضئيل زفرة غيظ وقال: إن الأمر شديد البساطة حقاً. ألا ترى الثغرة القاتلة في تفكيرك يا صديقي؟ فبمقتضى نظريتك جاء أحدهم (ويُفترَض أنه رجل عرف ماري جيرارد في ألمانيا) جاء إلى هنا مصمّماً على قتلها. ولكن انظر يا صديقي، انظر! استعمل العينين اللتين في رأسك طالما أن عينَي عقلك لا تسعفانك كما يبدو. ما الذي تراه من هنا: نافذة، أليس كذلك؟ وخلف تلك النافذة؟ فتاة، فتاة تقطع الشطائر. أي بتعبير آخر: إلينور كارليسل. ولكن فكر لحظة فيما يلي: ما الذي يمكن أن يعرّف رجلاً يراقب من هنا أن تلك الشطائر سيتم تقديمها لماري جيرارد؟ لم يكن أحد ليعرف ذلك باستثناء إلينور كارليسل نفسها، لا أحد! ولا حتى ماري جيرارد، ولا الممرضة هوبكنز. وما يترتب على ذلك هو: إن كان أي رجل وقف هنا يراقب، وإن كان قد ذهب بعد ذلك إلى تلك النافذة وتسلق إلى الداخل وعبث بالشطائر، فما الذي فكر به واعتقده؟ لقد ظن -دون شك- أن الشطائر ستأكلها إلينور كارليسل نفسها.

* * *

الفصل الثالث عشر

-١-

طرق بوارو باب بيت الممرضة هوبكنز، ففتحته له وفمها مليء بالكعك. قالت بحدّة: حسناً يا سيد بوارو، ما الذي تريده الآن؟

- هل لي أن أدخل؟

تراجعت الممرضة هوبكنز بشيء من التذمر بحيث استطاع اجتياز العتبة. وقد كانت الممرضة سخية بالشاي، وما هي إلاّ لحظات حتى كان بوارو يحدق بشيء من الذعر إلى كوب من الشاي الأسود كالحبر. قالت الممرضة: لقد صنعته لتوي، رائع وثقيل.

حرك بوارو الشاي بحذر ورشف رشفة بُطوليّة ثم قال: هل لديك أية فكرة عن سبب قدومي إليك؟

- لا يمكنني قول ذلك حتى تخبرني؛ لا أدّعي أنني أقرأ الأفكار.

- لقد جئتُ لأطلب منك الحقيقة.

نهضت الممرضة هوبكنز غاضبة وقالت: وما معنى هذا بالله عليك؟ لقد كنتُ دوماً امرأة صادقة، لست ممن يتسترون على أنفسهم

بأية طريقة. لقد تحدثت صراحة عن ضياع أنبوبة المورفين تلك في التحقيق في وقت كان من شأن الكثيرين أن يلزموا الصمت فيه، وكنت أعرف جيداً أنني سأُنتقَد بسبب إهمالي بتركي حقيبتي سائبة، رغم أن ذلك قد يحدث لأي شخص. وقد لاموني على ذلك... وتأكد أن هذا سيؤثر في حياتي المهنية. ولكني لم أتردد رغم ذلك، فقد كنت أعرف شيئاً ذا علاقة بالقضية ولذلك تكلمت. وسأكون شاكرة لك -يا سيد بوارو- إن أنت احتفظت لنفسك بأية تلميحات سخيفة! لا شيء يخص وفاة ماري جيرارد لم أكن فيه صريحة مستقيمة كضوء النهار، وإن كنتَ ترى خلاف ذلك فسأكون ممتنة لو أشرتَ إليه بالقلم العريض! إنني لم أُخفِ شيئاً على الإطلاق، وأنا مستعدة لأداء اليمين والوقوف أمام المحكمة وقول ذلك.

لم يحاول بوارو مقاطعتها. كان يعرف جيداً أسلوب التعامل مع امرأة غاضبة، لذلك سمح للممرضة هوبكنز بأن ترغي وتزبد، ثم تكلم بهدوء ولطف: أنا لم أُلمّح إلى أن لديك شيئاً بخصوص الجريمة لم تقوليه.

- ما الذي لمّحتَ إليه إذن بالله عليك؟

- لقد طلبتُ منك أن تقولي الحقيقة... ليس عن موت ماري جيرارد، بل عن حياتها.

- آه!

بدت الممرضة وقد فوجئت مؤقتاً، ثم قالت: هذا ما ترمي إليه إذن؟ ولكن لا علاقة لهذا بجريمة القتل.

- لم أقل إن له علاقة، بل قلت إنك كنت تخفين معلومات عنها.

- ولماذا لا أخفي إن كانت غير ذات علاقة بالجريمة؟

رفع بوارو كتفيه حيرة وقال: ولماذا تخفين؟

قالت الممرضة هوبكنز وقد احمرّ وجهها كثيراً: لأنها أصول الاحترام والحشمة العامة. لقد ماتوا جميعاً الآن، كل أصحاب الشأن. والمسألة ليست من شأن أحد غيرهم.

- ربما كانت كذلك لو كان ذلك مجرد تخمين من طرفك، ولكن إن كانت لديك معرفة فعلية فهذا مختلف.

قالت الممرضة بتمهل: لا أدري ماذا تعني بالضبط.

- سأساعدك. لقد سمعتُ تلميحات من الممرضة أوبرايان، وقد أجريت حديثاً طويلاً مع السيدة سلاتري التي تملك ذاكرة ممتازة للحوادث التي جرت قبل أكثر من عشرين عاماً. وسوف أخبرك تماماً بما عَلِمتُه: قبل أكثر من عشرين عاماً نشأت قصة حب بين شخصين، أحدهما السيدة ويلمان التي كانت أرملة منذ بضع سنين وكانت امرأة قادرة على الحب العميق، وكان الشخص الآخر هو السير لويس رايكروفت الذي كان مصاباً بمحنةِ زوجة مجنونة لا يُرجى شفاؤها. ولم يكن القانون في تلك الفترة يسمح بالراحة التي يوفرها الطلاق، وكان بإمكان السيدة رايكروفت التي كانت صحتها الجسمية ممتازة أن تعيش حتى تبلغ التسعين. وقد خمّن الناس وجود تلك العلاقة بين الشخصين كما أظن، ولكنهما كانا مُتكتِّمَين كلاهما وحريصين على المظاهر. ثم قُتل السير رايكروفت في أثناء الحرب.

قالت الممرضة هوبكنز: حسناً؟

- أظن أن طفلة قد وُلدت بعد مقتله، وأن تلك الطفلة كانت هي ماري.

قالت الممرضة: يبدو أنك تعرف كل شيء عن الموضوع!

- هذا ما أظنه، ولكن ربما كان لديك دليل محدد على أن الأمر كذلك.

جلست الممرضة هوبكنز ساكتة للحظات متجهّمة الوجه، ثم نهضت فجأة وعبرت إلى الطرف الآخر من الغرفة وفتحت دُرجاً فأخرجت منه مغلفاً، وأحضرته إلى بوارو قائلة: سأخبرك كيف جاء هذا إلى يدي. ولكن اعلم أنني كنت أشك أصلاً بسبب طريقة نظر السيدة ويلمان إلى الفتاة، ثم تتوّج ذلك بسماعي للشائعة. وقد أخبرني جيرارد العجوز عندما كان مريضاً بأن ماري لم تكن ابنته. وبعد موت ماري أكملت تنظيف بيت البواب فعثرت على هذه الرسالة في أحد الأدراج بين بعض أغراض العجوز.

قرأ بوارو العنوان المكتوب بحبر بهت لونه: «إلى ماري، لتُرسَل لها بعد وفاتي».

قال بوارو: هذه الكتابة قديمة العهد؟

شرحت الممرضة قائلة: لم يكن جيرارد من كتب هذه الرسالة، بل هي أمُّ ماري التي توفيت منذ أربعة عشر عاماً. كتبت هذه الرسالة للفتاة، ولكن العجوز احتفظ بها بين أغراضه، ولذلك لم ترَها قط... والحمد لله على ذلك! لقد كانت قادرة على أن ترفع رأسها حتى النهاية دون أن يكون لديها ما تشعر معه بالعار.

توقفت قليلاً ثم قالت: لقد كانت الرسالة مختومة، ولكنني سأعترف لك بأنني فتحتها حين وجدتها وقرأتها هناك في نفس اللحظة، وهو ما لا ينبغي لي أن أفعله. ولكن ماري كانت ميتة، وكنت أخمن إلى حد بعيد ما هي محتويات الرسالة، ولم أرَ أنها

تهمّ أحداً آخر. ومع ذلك لم أشأ أن أتلفها لأنني شعرت أن من غير الصحيح القيام بذلك. الأفضل أن تقرأها بنفسك.

سحب بوارو الورقة التي كُتبت بخط صغير وقرأ:

هذه هي الحقيقة، كتبتها هنا لتكون موجودة إذا ما وقعت الحاجة إليها. لقد كنتُ الخادمة الخاصة للسيدة ويلمان في هَنتربيري، وكانت طيبة جداً معي، وقد وقعتُ في ورطة فوقفَت إلى جانبي ثم أعادتني إلى خدمتها عندما انتهى كل شيء، ولكن الطفلة ماتت. وقد كانت سيدتي والسير لويس رايكروفت متحابين، ولكن لم يكن بوسعهما الزواج لأن له زوجة أصلاً، وزوجته المسكينة في مستشفى المجانين. وقد كان سيداً محترَماً ومخلصاً للسيدة ويلمان. ثم قُتل، وأخبرتني بعد مقتله مباشرة أنها ستلد طفلاً. وبعد ذلك سافرت إلى سكوتلندا وأخذتني معها. وقد وُلدت الطفلة هناك، في آردلوتشري. وكان بوب جيرارد (الذي غسل يديه مني ورماني عندما وقعتُ في ورطتي) قد عاد لمراسلتي ثانية، وكان الترتيب أن نتزوج ونعيش في بيت البواب وأن يظن أن الطفلة طفلتي. فإن عشنا ضمن البيت فسوف يبدو من الطبيعي أن تهتم السيدة ويلمان بالطفلة، وهي ستهتم بتعليمها وتهيئة فرص طيبة لها في الحياة. وقد رأت أن من الأفضل لماري أن لا تعرف الحقيقة. وقد أعطتنا السيدة ويلمان مبلغاً محترماً من المال، ولكن كان من شأني أن أساعدها حتى دون ذلك. وقد كنتُ سعيدة تماماً مع بوب، ولكنه لم يحب ماري قط. وقد أمسكتُ لساني ولم أقل شيئاً لأحد مطلقاً، ولكنني أظن أن من الحق إذا ما متُّ أن يُعرَف هذا بكل وضوح.

إليزا جيرارد (المولودة باسم إليزا رايلي)

سحب هيركيول بوارو نفَساً عميقاً وأعاد طيّ الرسالة.

قالت الممرضة هوبكنز بلهفة: ما الذي ستفعله بشأنها؟ لقد ماتوا جميعاً الآن وليس من الخير إثارة هذه الأمور. الجميع ينظرون إلى السيدة ويلمان باحترام في هذه المنطقة. إن هذه الفضيحة القديمة ستكون قاسية. والأمر نفسه ينطبق على ماري؛ كانت فتاة رقيقة، فلماذا يعرف أحدٌ أنها كانت لقيطة؟ دع الموتى يرقدون بسلام في قبورهم، هذا رأيي.

قال بوارو: على المرء أن يفكر بالأحياء.

- ولكن لا علاقة لهذا بجريمة القتل.

قال بوارو متجهماً: ربما كانت له علاقة كبرى بها.

ثم خرج من البيت تاركاً الممرضة تحدق خلفه فاغرة فمها.

-٢-

كان قد قطع مسافة لا بأس بها عندما أدرك وجود خطوات مترددة خلفه. توقف واستدار؛ كان ذلك هو البستاني الشاب هورليك. كان يبدو شديد الحرج وهو يعتصر أطراف قبعته بين يديه، وقال مغمغماً: اعذرني يا سيدي، هل لي بكلمة معك؟

- بالتأكيد. ما الأمر؟

اعتصر هورليك قبعته بشدّة أكثر، ثم قال وهو يبعد عينيه ويبدو في قمة تعاسته وحرجه: إنه بشأن تلك السيارة.

- السيارة التي كانت خارج البوابة الخلفية في ذلك الصباح؟

- نعم يا سيدي. لقد قال الدكتور لورد هذا الصباح إنها لم تكن سيارته، ولكنها كانت سيارته يا سيدي.

- هل تعرف ذلك معرفة اليقين؟

- نعم يا سيدي. بسبب الرقم يا سيدي. فقد كان «م س س ٢٠٢٢». لقد لاحظته بشكل محدد. إننا نعرف الرقم في القرية، أنا متأكد تماماً من ذلك يا سيدي.

قال بوارو بابتسامة خفيفة: ولكن الدكتور لورد يقول إنه كان في ويذنبيري في ذلك الصباح.

قال هورليك بائساً: نعم يا سيدي، لقد سمعته. ولكنها كانت سيارته يا سيدي، وأقسم على ذلك.

قال بوارو بلطف: شكراً لك يا هورليك، لقد فعلت الصواب بأن أخبرتني بالأمر.

* * *

الجزء الثالث

الفصل الأول

-١-

أكان الجو في المحكمة شديد الحرارة، أم كان شديد البرودة؟ لم تستطع إلينور كارليسل الجزم تماماً بذلك. كانت تشعر أحياناً وكأنها تحترق كما لو أصابتها الحمّى، وبعد ذلك مباشرة كانت ترتعد.

لم تكن قد سمعت نهاية خطاب وكيل الادّعاء العام، إذ كانت قد عادت إلى الماضي مستعرضة ببطء الأمر كله من جديد، منذ اليوم الذي وصلت به تلك الرسالة التعيسة إلى تلك اللحظة التي جاء فيها ضابط الشرطة ذو الوجه الناعم ليقول لها بطلاقة رهيبة: أنت إلينور كاثرين كارليسل. معي إذن باعتقالك بتهمة قتل ماري جيرارد بدسّ السم لها في السابع والعشرين من تموز الماضي، وينبغي أن أحذرك بأن أي شيء تقولينه سوف يدوَّن ويمكن أن يُستخدَم دليلاً في محاكمتك.

طلاقة رهيبة مرعبة. شعرت أنها قد عَلِقت في آلة تجري بكل انسيابية، آلة أُحسن تزييتها، لا إنسانية فيها، ولا عاطفة.

وها هي الآن تقف في القفص، وسط تحديق كل الناس،

بوجود مئات الأعين التي تلتمع شَرَهاً. أعضاء هيئة المحلَّفين هم فقط الذين لم ينظروا إليها، فقد جاهدوا لإبقاء عيونهم بعيدة عنها. وفكرت: ذلك لأنهم يعرفون ما سيقولونه قريباً.

-٢-

كان الدكتور لورد يدلي بشهادته. أهذا بيتر لورد؟ ذلك الطبيب المرح ذو الوجه المنمّش الذي كان لطيفاً ودوداً في هَنتربيري؟ إنه الآن متصلب جداً ومحافظ على مِهَنيته بحزم. جاءت إجاباته رتيبة: لقد استُدعي إلى هَنتربيري هاتفياً، وكان الوقت قد فات فلم يستطع اتخاذ أي إجراء، وقد توفيت ماري جيرارد بعد بضع دقائق من وصوله، وبرأيه فإن أعراض الوفاة تتناسب مع أعراض التسمم بالمورفين في أحد صيغه الأقل شيوعاً.

نهض السير إدوين بولمر ليستجوبه: لقد كنتَ الطبيب الدائم للسيدة الراحلة ويلمان، أليس كذلك؟

- بلى.

- خلال زياراتك لمنزل هَنتربيري في حزيران الماضي، هل أتيح لك أن ترى المتهمة وماري جيرارد معاً؟

- نعم، عدة مرات.

- كيف كان برأيك تصرف المتهمة مع ماري جيرارد؟

- لطيفاً جداً وطبيعياً.

قال السير إدوين بولمر بابتسامة ازدراء خفيفة: ألم ترَ أية علامات عن هذه «الكراهية الغيورة» التي سمعنا الكثير عنها؟

قال بيتر لورد بثبات وقد رفع فكّه: لم أرَ شيئاً من ذلك.

فكرت إلينور قائلة لنفسها: ولكنه رأى ذلك، رآه. لقد كذب من أجلي في هذا الأمر، فقد عرف.

بعد بيتر لورد جاء دور الطبيب الشرعي، وقد كانت شهادته أطول وأكثر تفصيلاً. قال إن الوفاة نتجت عن التسمم بالمورفين من نوع فودرويانت. وسُئل إن كان بوسعه شرح تلك المفردة فشرحها بكل سعادة. قال إن الموت نتيجة التسمم بالمورفين قد يتخذ صيغاً عديدة مختلفة، أكثرها شيوعاً تتّصف بفترة انفعال حادّة يتبعها نعاس وفقدان للحواس ويتقلص بؤبؤ العين. أما الصيغة الأخرى الأقل شيوعاً فقد أسماها الفرنسيون «فودرويانت»، وفي مثل هذه الحالة تسود حالة نوم عميق يتقطع لفترة قصيرة جداً نحواً من عشر دقائق، ويتسع بؤبؤ العين عادة.

-٣-

رُفعت الجلسة ثم عادت إلى الانعقاد ثانية، ومرت بضع ساعات من الشهادات الطبية المتخصصة. تحدث الدكتور ألان غراسيا المحلل البارز بحماسة وبكلمات فنية كثيرة عن محتويات المعدة: خبز، وصلصة سمك، وشاي، وأثر المورفين. ثم تبع ذلك المزيد من المفردات الفنية. وقد قُدِّرت الكمية التي تناولتها الفتاة الراحلة بنحو أربع قمحات من المورفين، ويمكن أن تكون الجرعة القاتلة مجرد قمحة واحدة.

نهض السير إدوين وقال وهو ما يزال هادئاً: أريد استيضاح الأمر تماماً. إنك لم تجد في المعدة إلاّ الخبز والزبدة وصلصة

السمك والشاي والمورفين. ألم تكن هناك أطعمة أخرى؟

- أبداً.

- أي أن الراحلة لم تتناول شيئاً سوى الشطائر والشاي لفترة طويلة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- هل كان هناك ما يُظهر الوسط المحدد الذي دُسَّ فيه المورفين؟

- لم أفهمك تماماً.

- سأوضح سؤالي: يمكن أن يكون المورفين قد وُضع في صلصة السمك، أو في الخبز، أو في الزبدة التي دُهن بها الخبز، أو في الشاي، أو في الحليب الذي أضيف إلى الشاي، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- ولكن لم يكن هناك دليل خاص على أن المورفين كان في صلصة السمك وليس في أي وسط آخر؟

- نعم.

- والحقيقة أن المورفين يمكن أن يكون قد أُخذ بشكل منفصل، أي ليس بأي وسط من الأوساط المذكورة؟ يمكن ببساطة أن يكون قد ازدُرد على شكل حبة؟

- هذا صحيح بالطبع.

جلس السير إدوين. وقام السير صاموئيل بإعادة استجواب الشاهد: ومع ذلك فأنت ترى أن تناول المورفين -بغض النظر عن

طريقة تناوله- قد تم في نفس وقت تناول الأطعمة والأشربة الأخرى، أليس كذلك؟

- بلى.

شكراً لك.

-٤-

أقسم المفتش بريل اليمين بطلاقة آلية. وقف هناك ثابتاً عسكري الهيئة يروي شهادته بسهولة المتمرّس: استُدعيت إلى المنزل. قالت المتهَمة: "لا بد أنها كانت صلصة سمك فاسدة". فتشنا الموقع، وجدنا قارورة واحدة من صلصة السمك غُسلت وكانت على بلاطة التنشيف قرب المجلى في غرفة الأواني، والأخرى مليئة لنصفها. ثم تابعنا البحث في غرفة الأواني.

- ماذا وجدتم؟

- في شق خلف الطاولة، وبين ألواح الأرضية وجدت نتفة ورق صغيرة.

حُوِّل الدليل إلى هيئة المحلفين. كانت قطعة ورق صغيرة ممزَّقة بحيث ظهرت عليها كلمات مبتورة في ثلاثة أسطر أحدها فوق الآخر؛ في السطر الأعلى كلمة «هايدرو»، وفي السطر الأوسط كلمة «مورفـ»، وفي السطر الأسفل عبارة «١/٢ غم».

- ماذا اعتبرتَ هذه القصاصة؟

- إنها نتفة تمزقت من ورقة مطبوعة كتلك التي تُلصَق على أنبوبة المورفين الزجاجية.

نهض وكيل الدفاع بارتياح من يملك الوقت كله، وقال: هل وجدت هذه القصاصة في شق في الأرضية؟

- نعم.

- وهي جزء من ملصق على أنبوبة مورفين؟

- نعم.

- هل وجدت بقية الملصق؟

- لا.

- ألم تجد أية أنبوبة زجاجية أو أية زجاجة يمكن أن يكون ذلك الملصق منزوعاً منها؟

- لم أجد.

- كيف كانت حالة قصاصة الورق هذه عندما وجدتها؟ أكانت نظيفة أم متسخة؟

- كانت جديدة تماماً.

- ماذا تعني بقولك «جديدة تماماً»؟

- كان عليها غبار سطحي من الأرضية، ولكنها كانت نظيفة تماماً فيما عدا ذلك.

- ألم يكن ممكناً أن تكون هناك منذ فترة طويلة؟

- لا أظن، كانت قد سقطت هناك قبل وقت قريب تماماً.

- يمكنك القول إذن أنها قد جاءت إلى هناك في نفس اليوم الذي وجدتها فيه وليس قبل ذلك؟

- نعم.

جلس السير إدوين وهو يبتسم.

الممرضة هوبكنز على منصة الشهادة، ووجهها أحمر يوحي بالاستقامة. فكرت إلينور بأن الممرضة هوبكنز ليست مخيفة مثل المفتش بريل. لقد كانت قسوة المفتش بريل هي التي تشلّ المرء، فقد كان بالتأكيد جزءاً من آلة ضخمة، أما الممرضة هوبكنز فلديها عواطف إنسانية وأهواء.

- هل اسمك هو جيسي هوبكنز؟

- نعم.

- أين كنت يوم الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) الماضي؟

- كنت في منزل هَنتربيري.

- هل تم طلبك إلى هناك؟

- نعم. كانت السيدة ويلمان قد تعرضت لسكتة، وهي الثانية. وذهبت لمساعدة الممرضة أوبرايان إلى أن يتم العثور على ممرضة أخرى.

- هل أخذت حقيبة صغيرة معك؟

- نعم.

- أخبري هيئة المحلفين ماذا كان فيها.

- أربطة وضمادات، وإبرة طبية، وبعض الأدوية، بما في ذلك أنبوبة من هايدروكلورايد المورفين.

- ولأي غرض كانت هناك؟

- كانت حالة أحد المرضى في القرية تتطلب حقنه بإبر المورفين صباحاً ومساء.

- ماذا كانت محتويات الأنبوبة؟

- كان فيها عشرون حبة، كل واحدة تحتوي على نصف قمحة من هايدروكلورايد المورفين.

- وماذا فعلتِ بحقيبتك؟

- تركتها في الصالة.

- وكان ذلك في ليلة الثامن والعشرين. متى سنحت لك الفرصة بعد ذلك للنظر في حقيبتك؟

- في صباح اليوم التالي، في نحو الساعة التاسعة بينما كنت أهم بمغادرة البيت.

- هل كان هناك شيء مفقود؟

- كانت أنبوبة المورفين مفقودة.

- هل ذكرتِ فقدانها لأحد؟

- تحدثتُ عنها للممرضة أوبرايان، المسؤولة عن المريضة.

- كانت تلك الحقيبة متروكة في الصالة حيث اعتاد الناس على المرور جيئة وذهاباً، أليس كذلك؟

- بلى.

سكت السير صاموئيل وكيل الادعاء العام قليلاً ثم قال: هل كنت تعرفين القتيلة ماري جيرارد معرفة حميمة؟

- نعم.

- ماذا كان رأيك بها؟

- كانت فتاة عذبة جداً وطيبة.

- أكانت ذات مزاج سعيد؟

- سعيد جداً.

- أكانت تعاني من أي مشكلات حسب علمك؟

- لا.

- هل كان لديها وقتَ وفاتها أي شيء يقلقها أو يجعلها حزينة بشأن مستقبلها؟

- أبداً.

- ألم يكن لديها إذن سبب يدعوها إلى التخلص من حياتها؟

- ليس لديها أي سبب إطلاقاً.

واستمر سرد القصة التعيسة. كيف رافقت الممرضة هوبكنز ماري إلى بيت البواب، وظهور إلينور، وسلوكها المنفعل، والدعوة إلى الشطائر، وتقديم الطبق إلى ماري أولاً، واقتراح إلينور بضرورة غسل كل شيء، واقتراحها الآخر بأن تصعد الممرضة هوبكنز معها إلى الطابق العلوي وتساعدها في ترتيب الملابس.

كان هناك الكثير من المقاطعات والاعتراضات من السير إدوين بولمر. وفكرت إلينور: نعم، الأمر كله صحيح، وهي تصدقه. إنها واثقة أنني فعلتها. كل كلمة تقولها صحيحة، وهذا هو الفظيع في الأمر. الكلام كله صحيح!

ومرة أخرى رأت -وهي تنظر عبر القاعة- وجه هيركيول بوارو ينظر إليها بتأمل، وبما يوشك أن يكون لطفاً. يراها على ضوء الكثير من المعرفة.

جيء بقصاصة الورق الصغيرة وقُدمت إلى الشاهدة: هل تعرفين ما هذه؟

- إنها قطعة من ملصَق.

- أيمكنك أن تقولي لهيئة المحلفين أي ملصق هو؟

- نعم، إنها قطعة من ملصق يلصق على أنبوبة المورفين، حبات من عيار نصف قمحة كتلك التي فقدتها.

- أأنت واثقة من ذلك؟

- واثقة طبعاً، فهي مأخوذة من أنبوبتي.

قال القاضي: هل عليها أية علامة خاصة يمكنك من خلالها التعرف على أنها من الأنبوبة التي فقدتها؟

- لا يا سيدي، ولكن لا بد أنها الأنبوبة نفسها.

- كل ما يمكنك قوله عملياً هو أنها مشابهة تماماً لملصق أنبوبتك، أليس كذلك؟

- نعم، هذا ما أعنيه.

ثم رُفعت الجلسة.

* * *

الفصل الثاني

كان ذلك يوماً آخر.

كان السير إدوين بولمر واقفاً على قدميه يستجوب، ولكنه لم يكن هادئاً أبداً الآن. قال بحدّة: بالنسبة لهذه الحقيبة التي سمعنا كثيراً عنها. في الثامن والعشرين من حزيران كانت قد تُركت في الصالة الرئيسية في هَنتربيري طوال الليل، أليس كذلك؟

قالت الممرضة هوبكنز موافقة: بلى.

- وكان هذا إجراء يتسم بالإهمال، أليس كذلك؟

احمرّ وجه الممرضة هوبكنز وقالت: نعم، أحسبه كذلك.

- هل أنت معتادة على ترك الأدوية الخطيرة ملقاة حيث يمكن لأيٍ كان أن يأخذها؟

- لا، لا بالطبع.

- آه، لست معتادة على ذلك، ولكنك فعلتها في هذه الحالة؟

- نعم.

- والحقيقة أنه كان بوسع أي امرئ في البيت أن يحصل على

ذلك المورفين إن أراد، أليس كذلك؟

- أظن ذلك.

- ليس في الأمر ظنٌ. أهذا صحيح أم لا؟

- حسناً، إنه صحيح.

- لم تكن الآنسة كارليسل وحدها من يمكنه الحصول على المورفين. كان ذلك بوسع أيٍ من الخدم، أو الدكتور لورد، أو السيد روديريك ويلمان، أو الممرضة أوبرايان، أو ماري جيرارد نفسها.

- أحسب ذلك، نعم.

- أهذا صحيح أم لا؟

- صحيح.

- أكان أحدٌ يعلم أنك تحتفظين بالمورفين في تلك الحقيبة؟

- لا أدري.

- حسناً، هل تحدثتِ لأحد عن ذلك؟

- لا.

- إذن فالحقيقة أن الآنسة كارليسل لم يكن بوسعها أن تعرف أنه كان هناك أي مورفين؟

- ربما نظرت لترى.

- ولكن هذا مستبعَد تماماً، أليس كذلك؟

- لا أدري.

- لقد كان هناك أناس من شأنهم أن يعرفوا عن وجود المورفين أكثر من الآنسة كارليسل. الدكتور لورد مثلاً، كان من شأنه أن يعرف. لقد كنتِ تعطين جرعات المورفين تلك بناء على أوامره، أليس كذلك؟

- بالطبع.

- وكانت ماري جيرارد تعرف أيضاً بوجوده لديك هناك، أليس كذلك؟

- بل هي لم تكن تعرف.

- لقد كانت تتردد كثيراً على بيتك، أليس كذلك؟

- ليس كثيراً.

- إنني أقول إنها كانت تتردد إلى هناك كثيراً، وإن من شأنها -من بين كل الناس في البيت- أن تخمن أكثر من غيرها بوجود المورفين في حقيبتك.

- لا أوافقك الرأي.

سكت السير إدوين لحظة، ثم قال: لقد أخبرتِ الممرضة أوبرايان في ذلك الصباح بأن المورفين قد فُقد؟

- نعم.

- هل تنكرين بأن ما قلته حقاً هو: «لقد تركتُ المورفين في البيت، وسيتعين علي أن أعود لإحضاره».

- لا، لم أقل ذلك.

- ألم تذكري بأن المورفين قد تُرك على رفّ الموقد في بيتك؟

- حسناً، عندما لم أستطع العثور عليه ظننتُ أن هذا ما حدث على الأرجح.

- الحقيقة أنك لم تعرفي حقاً ماذا فعلتِ به!

- بل أعرف؛ لقد وضعتُه في الحقيبة.

- لماذا ذكرتِ إذن صبيحة التاسع والعشرين من الشهر أنك قد تركته في البيت؟

- لأنني ظننتُ أنني ربما تركته.

- الواضح إذن أنك امرأة شديدة الإهمال.

- هذا ليس صحيحاً.

- إنك تُدلين بأقوال غير صحيحة أحياناً؟

- لا، فأنا حريصة جداً فيما أقوله.

- هل ذكرتِ ملاحظة حول وخزة من شجرة ورد في السابع والعشرين من تموز، يوم وفاة ماري جيرارد؟

- لا أرى ما هي علاقة ذلك بالأمر!

قال القاضي: هل لهذا صلة بالقضية يا سير إدوين؟

- نعم يا سيدي، إنه جزء رئيسي من الدفاع، وأنا أنوي إحضار شهود لإثبات أن ذلك القول كان كذبة.

ثم أكمل: أما زلتِ تقولين إنك وخزت رسغك بشجرة ورد في السابع والعشرين من تموز؟

- نعم.

بدا التحدي على الممرضة هوبكنز.

- متى وخزتِ نفسك؟

- قبل مغادرة بيت البواب والذهابِ إلى هَنتربيري صباح السابع والعشرين من تموز.

قال السير إدوين مشككاً: وأية شجرة ورد كانت تلك؟

- شجرة متسلقة خارج بيت البواب تماماً، ذات ورود قرمزية.

- أأنت واثقة من ذلك؟

- أنا واثقة تماماً.

سكت السير إدوين قليلاً ثم سأل: أتصرّين على القول إن المورفين كان في الحقيبة عندما جئتِ إلى هنتربيري في الثامن والعشرين من حزيران؟

- نعم، لقد كان معي.

- وإذا افترضنا أن الممرضة أوبرايان صعدت منصة الشهود وأقسمت على أنك قلتِ إنك ربما نسيتِهِ في البيت؟

- لقد كان في حقيبتي، أنا واثقة من ذلك.

تنهد السير إدوين وقال: ألم تشعري أبداً بعدم الارتياح بشأن اختفاء المورفين؟

- ليس عدم الارتياح.

- آه، لقد كنتِ مرتاحة تماماً إذن، رغم حقيقة اختفاء كمية ضخمة من الدواء الخطير؟

- لم أفكر وقتها أن أحداً قد أخذها.

- آه، إنك لم تستطيعي في تلك اللحظة أن تتذكري ما الذي فعلته بها؟

- أبداً، بل كانت في حقيبتي.

- عشرون حبة من عيار نصف قمحة، أي عشر قمحات من المورفين. إنها تكفي لقتل عدة أشخاص، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولكنك لم تشعري بعدم الارتياح، بل إنك لم تبلّغي عن فقدانها رسمياً؟

- لم أرَ في الأمر بأساً.

- أتنكرين أنه كان عليك في حالة فقدان المورفين بالطريقة التي فُقد فيها، وكصاحبة ضمير حي، أن تبلّغي عن الأمر رسمياً؟

قالت الممرضة هوبكنز وقد احمرّ وجهها بشدة: لكني لم أفعل.

- لقد كان هذا بالتأكيد مثالاً للإهمال الجرمي من طرفك. يبدو أنك لا تأخذين مسؤولياتك على محمل الجد. هل تهملين كثيراً في ترك مثل هذه الأدوية الخطيرة؟

- لم يحدث هذا من قبل.

استمر الأمر لدقائق على هذا المنوال، ووقعت الممرضة هوبكنز -وقد ارتبكت واحمرّ وجهها وأخذت تناقض نفسها- فريسة سهلة أمام مهارة السير إدوين.

- هل صحيح أنه في يوم الثلاثاء السادس من تموز (يوليو)

كتبت الفتاة الراحلة ماري جيرارد وصية؟

- نعم.

- لماذا فعلت ذلك؟

- لأنها رأت أنه الإجراء المناسب، وهكذا كان الأمر.

- أأنت متأكدة أن ذلك لم يكن بسبب كونها مكتئبة وغير واثقة من مستقبلها؟

- هراء.

- ولكن هذا يُظهر أن فكرة الموت كانت حاضرة في عقلها وأنها كانت قلقة لهذا الموضوع؟

- أبداً. لقد رأت فقط أنه الإجراء المناسب.

- أهذه هي الوصية؟ موقّعة من قِبَل ماري جيرارد وشهدت عليها إيميلي بيغز وروجر ويد مساعدا بائع الحلويات، وهي تترك كل شيء تملكه عند وفاتها لماري رايلي، شقيقة إليزا رايلي؟

- نعم.

تم تسليم الوصية لهيئة المحلفين.

- حسب معلوماتك، هل كان لدى ماري جيرارد أية ممتلكات تتركها؟

- ليس وقتَها، لم تكن تملك وقتها.

- ولكنها كانت ستملك عما قريب؟

- نعم.

- أليس حقيقة أن الآنسة كارليسل قد أعطت ماري جيرارد مبلغاً مُحترماً قدره ألفا جنيه؟

- بلى.

- أكان هناك ما يُجبر الآنسة كارليسل على فعل ذلك أم كان مجرد لفتة كريمة من طرفها؟

- لقد فعلت ذلك بمحض إرادتها الحرة، نعم.

- ولكن المؤكد أنها لو كانت تكره ماري جيرارد كما قيل لما كانت أعطتها بإرادتها الحرة مبلغاً ضخماً من المال.

- ربما نعم، وربما لا.

- ماذا تعنين بهذا الجواب؟

- لا أعني شيئاً.

- حسناً. والآن، هل سمعت أية شائعات محلية عن ماري جيرارد والسيد روديريك ويلمان؟

- كان يحبها كثيراً.

- هل لديك أي دليل على ذلك؟

- عرفت ذلك فقط، هذا كل ما لديّ.

- آه، إنك «عرفت ذلك فقط». أخشى أن لا يكون هذا مقنعاً بالنسبة لهيئة المحلفين. هل قلتِ في إحدى المناسبات إن ماري لن تكون لها أية علاقة به لأنه كان خاطباً للآنسة إلينور، وهي قالت له الشيء نفسه في لندن؟

- هذا ما قالته لي.

تولى السير صاموئيل أتينبري استجواب الشاهدة ثانية: عندما كانت ماري جيرارد تناقش معك صياغة هذه الوصية، هل أطلّت المتهمة عليكما من خلال النافذة؟

- نعم، أطلّت.

- ماذا قالت؟

- قالت: "إذن فأنت تكتبين وصيتك يا ماري؟ هذا غريب". ثم ضحكت، وضحكت، وضحكت!

ثم أكملت الشاهدة بلؤم: ورأيي أن الفكرة قد خطرت لها في تلك اللحظة، فكرة قتل الفتاة! لقد مارست القتل في قلبها في نفس تلك اللحظة.

تحدث القاضي بحدّة: التزمي بالإجابة عن الأسئلة التي توجَّه إليك. يُحذَف الجزء الأخير من الإجابة.

فكرت إلينور: كم هو غريب هذا؛ عندما ينطق أحدهم بما هو صحيح يحذفونه!

وأوشكت على الضحك بشكل هستيري.

-٢-

وقفت الممرضة أوبرايان على منصة الشهود.

- في صباح التاسع والعشرين من حزيران (يونيو)، هل قالت لك الممرضة هوبكنز شيئاً؟

- نعم؛ قالت إن أنبوبة مورفين قد فُقدت من حقيبتها.

- ماذا فعلتِ؟

- ساعدتها في البحث عنها.

- ولكنكما لم تستطيعا العثور عليها؟

- نعم.

- هل تُركت الحقيبة -حسب معلوماتك- في الصالة طوال الليل؟

- نعم.

- السيد ويلمان والمتهَمة كلاهما كانا يقيمان في المنزل وقت وفاة السيدة ويلمان، أي في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من حزيران؟

- نعم.

- هل لك أن تخبرينا عن حادث وقع في التاسع والعشرين من حزيران، أي في اليوم الذي أعقب وفاة السيدة ويلمان؟

- رأيت السيد روديريك ويلمان مع الآنسة ماري جيرارد. كان يخبرها بأنه يحبها، وقد حاول تقبيلها.

- أكان في ذلك الوقت خطيباً للمتهمة؟

- نعم.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- طلبَت منه ماري أن يخجل من نفسه، وهو الخاطب للآنسة إلينور.

- برأيك كيف كان شعور المتهمة نحو ماري جيرارد؟

- لقد كرهتها؛ كانت تنظر إليها من الخلف وكأنها ترغب في القضاء عليها.

قفز السير إدوين. وفكرت إلينور: لماذا يختصمون حول ذلك؟ ماذا يهم؟

بدأ السير إدوين بولمر استجوابه: أليس حقيقة أن الممرضة هوبكنز قالت إنها ظنت أنها تركت المورفين في البيت؟

- حسناً، لقد كانت الأمور على هذا النحو: بعد...

- أجيبي على سؤالي لطفاً. ألم تقل إنها ربما تركت المورفين في البيت؟

- بلى.

- ولم تكن قلقة حقاً وقتها بشأن ذلك؟

- ليس وقتها.

- لأنها ظنت أنها تركته في البيت، ولذلك فمن الطبيعي أنها لم تشعر بعدم الارتياح.

- لا يمكن أن تتخيل أن أحداً أخذه.

- بالضبط. ولم يبدأ خيالها بالعمل إلاّ بعد وفاة ماري جيرارد بسبب المورفين.

قاطعه القاضي: أظن أنك استعرضت هذه النقطة من قبل مع الشاهدة السابقة يا سير إدوين.

- هذا صحيح؛ حسناً. والآن بخصوص موقف المتهمة من

ماري جيرارد: ألم يحدث بينهما شجار في أي وقت؟

- لم يحدث أي شجار.

- أكانت الآنسة كارليسل دوماً لطيفة مع الفتاة؟

- نعم، ولكن المسألة في الطريقة التي كانت تنظر بها إليها.

- نعم، نعم، ولكننا لا نستطيع الحكم بناء على ذلك. أنت إيرلندية كما أظن، أليس كذلك؟

- بلى.

- وللإيرلنديين خيال خصب بعض الشيء، أليس كذلك؟

صاحت الممرضة أوبرايان بانفعال: كل كلمة قلتها لك هي الحقيقة.

-٣-

السيد أبوت على منصة الشهود. مرتبك وغير واثق من نفسه (رغم شعوره بشيء من الإثارة بسبب أهميته). كانت شهادته قصيرة: شراء قارورتين من صلصة السمك، وقد قالت المتهمة: "لقد حدثت العديد من حالات التسمم بصلصة السمك"، وقد بدت منفعلة غريبة الأطوار.

انتهت إفادته دون أن يستجوبه أيٌّ من الدفاع أو الادّعاء.

* * *

الفصل الثالث

-١-

الخطاب الافتتاحي للدفاع:

سادتي أعضاء هيئة المحلفين، إن بإمكاني -لو شئتُ- أن أثبت لكم عدم وجود قضية ضد المتهمة. وإن مسؤولية تقديم إثبات إنما تقع على عاتق الادعاء العام، وبرأيي (كما أنني واثق أنه رأيكم أيضاً) فإن الادعاء العام لم يُثبت حتى الآن شيئاً على الإطلاق. يؤكد المدعي العام أن إلينور كارليسل قد عمدت إلى تسميم ماري جيرارد بعد أن حصلت على المورفين (ذلك المورفين الذي كان لكل امرئ في البيت فرصة مساوية لاختلاسه، والذي تدور كثير من الشكوك حول مسألة وجوده في البيت أصلاً). وقد اعتمد المدعي العام هنا كلياً على توفر الفرصة، وقد سعى إلى إثبات وجود دافع، ولكنني أزعم أن هذا ما لم يستطع فعله؛ ذلك أنه لا يوجد -يا حضرات المحلفين- أي دافع! لقد تكلم الادعاء العام عن فسخ خطبة. تخيلوا... فسخ خطبة! إن كان فسخ خطبة سبباً للقتل فلماذا لا نرى جرائم قتل ترتكب كل يوم؟ ولتنتبهوا إلى أن هذه الخطبة لم تكن مسألة عواطف جارفة، بل كانت خطبة تمت بشكل رئيسي لأسباب عائلية. لقد نشأت الآنسة كارليسل والسيد ويلمان معاً وكانا محبين لبعضهما على الدوام،

وتحوّلا تدريجياً إلى تعلق أكثر دفئاً، ولكنني سأُثبت لكم أنها كانت -في أحسن حالاتها- علاقة فاترة جداً.

(آه يا رودي... رودي. علاقة فاترة؟)

وبعد ذلك فإن هذه الخطبة قد فُسخت، ولكن ليس من طرف السيد ويلمان بل من طرف المتهَمة. وإنني أقول لكم إن الخطبة بين إلينور كارليسل وروديريك ويلمان قد تمت بشكل رئيسي لإسعاد السيدة ويلمان العجوز، وعندما ماتت أدرك كلا الطرفين بأن مشاعرهما لم تكن قوية بما يكفي لتبرير دخولهما قفص الزوجية، ولكنهما بقيا صديقين. وأيضاً فإن إلينور كارليسل التي ورثت ثروة عمتها كانت تخطط -بكل طيبة طبيعتها- لمنح ماري جيرارد مبلغاً كبيراً من المال. وهي الفتاة التي تقف الآنسة كارليسل الآن متهمة بتسميمها!

الأمر الوحيد الذي يقف ضد إلينور كارليسل هو الظروف التي حدث بها التسميم. لقد قال الادعاء العام عملياً: إن أحداً باستثناء إلينور كارليسل لم يكن بوسعه قتل ماري جيرارد، ولذلك اضطر للبحث عن دافع ممكن. ولكن -كما قلتُ لكم- لم يستطع الادعاء العثور على أي دافع لأنه لم يكن هناك دافع.

والآن، هل صحيح أن أحداً غير إلينور كارليسل لم يكن بوسعه قتل ماري جيرارد؟ لا، ليس هذا صحيحاً؛ فهناك إمكانية إقدام ماري جيرارد على الانتحار، وهناك إمكانية عبث أحدهم بالشطائر عندما كانت إلينور كارليسل خارج البيت في بيت البواب. وهناك احتمال ثالث: إن أحد القوانين الجوهرية للأدلة يقضي بأنه إذا أمكن إثبات وجود نظرية بديلة تكون ممكنة ومنسجمة مع الدليل فإن المتهَم ينبغي أن يُبرأ. وإنني أعتزم أن أثبت لكم وجود شخص آخر لم تكن

لديه فقط فرصة مساوية لتسميم ماري جيرارد، بل كان له أيضاً دافع أقوى بكثير لفعل ذلك. إنني أعتزم استدعاء شهود لأثبت لكم وجود شخص آخر كان بوسعه الوصول إلى المورفين، وكان يملك دافعاً قوياً جداً لقتل ماري جيرارد، وأستطيع أن أثبت أن ذلك الشخص كانت له فرصة مساوية للقيام بذلك. إنني أقول إنه ما من هيئة محلفين في العالم يمكن لها أن تدين هذه المرأة بالقتل في وقت لا يوجد فيه دليل ضدها إلاّ توفر الفرصة، وفي وقت يمكن فيه الإثبات لهذه الهيئة بأن هناك دليلاً ضد شخص آخر لا يقتصر على توفر الفرصة، بل على وجود دافع طاغٍ. وسأستدعي أيضاً شهوداً لأثبت إقدام أحد الشهود على الإدلاء بشهادة زور متعمَّدة في هذه المحكمة. ولكنني سأطلب من المتَهَمة قبل ذلك أن تخبركم هي بقصتها، وأن تروا بأنفسكم كيف أن التهم الموجهة إليها لا أساس لها أبداً.

-٢-

كانت قد أدت اليمين، وكانت تجيب على أسئلة السير إدوين بصوت منخفض، فانحنى القاضي إلى الأمام وطلب منها التحدث بصوت أعلى.

كان السير إدوين يتحدث بأسلوب لطيف مشجع... كل الأسئلة التي تدربت على إجاباتها.

- هل كنت تحبين السيد روديريك ويلمان؟

- أحبه جداً. لقد كان كأخ لي، لقد كنت أنظر له دوماً كذلك. الخطبة؟ انسقنا إليها. من المريح الزواج بشخص عرفه المرء طوال حياته.

- ألم تكن ما يمكن تسميته بعلاقة حب جارف؟

- ليس كذلك، ولكن كان كل واحد منا يعرف الآخر جيداً.

- أكان بينكما شيء من توتر المشاعربعد وفاة السيدة ويلمان؟

- نعم، كان هناك شيء من ذلك.

- كيف تفسرين ذلك؟

- أظن أنه كان جزئياً بسبب المال.

- المال؟

- نعم؛ لقد شعر روديريك بعدم الارتياح. رأى أن الناس ربما ظنوا أنه يتزوجني لذلك السبب.

- ألم تُفسخ الخطبة بسبب ماري جيرارد؟

- أظن أن روديريك قد انبهر بها بعض الشيء، ولكن لا أعتقد أنه كان جاداً في ذلك.

- هل كنتِ ستنزعجين لو كان الأمر جدياً؟

- آه، لا. كان من شأني أن أراه أمراً غير مناسب، هذا كل ما في الأمر.

- والآن يا آنسة كارليسل، هل أخذت أنبوبة مورفين من حقيبة الممرضة هوبكنز يوم الثامن والعشرين من حزيران؟

- لا.

- هل كان بحوزتك مورفين في أي وقت؟

- أبداً.

- هل كنت تعلمين بأن عمتك لم تكتب وصية؟

- لا، لقد دهشت كثيراً لذلك.

- هل ظننتِ أنها كانت تحاول إيصال رسالة لك في ليلة الثامن والعشرين من حزيران عندما ماتت؟

- فهمتُ أنها لم تكن قد وضعت بنداً يخص ماري جيرارد، وأنها متلهفة على وضع مثل هذا البند.

- وبغية تنفيذ رغباتها كنتِ أنت مستعدة لمنح الفتاة مبلغاً من المال، أليس كذلك؟

- بلى. لقد أردت تنفيذ رغبة العمة لاورا، وكنتُ ممتنة للّطف الذي أبدته ماري لعمتي.

- هل جئتِ يوم السادس والعشرين من حزيران من لندن إلى ميدنزفورد وأقمت في فندق كينغز آرمز؟

- نعم.

- ماذا كان هدفك من الحضور؟

- كنتُ قد تلقيت عرضاً لشراء البيت، وقد أراد الرجل الذي اشتراه أن يستلمه بأسرع ما يمكن. وكان عليّ ترتيب الأغراض الشخصية لعمتي وتسوية الأمور بشكل عام.

- هل اشتريت بعض المؤن في طريقك إلى هَنتربيري يوم السابع والعشرين من تموز؟

- نعم. رأيت أن تناول غداء خفيف في البيت أفضل من الاضطرار للعودة إلى القرية لتناول الغداء.

- هل ذهبتِ بعدها إلى البيت وهل رتبتِ أغراض عمتك؟

- نعم.

- وبعد ذلك؟

- نزلتُ إلى غرفة الأواني وقطعتُ بعض الشطائر، ثم ذهبت إلى بيت البواب ودعوت ممرضة المقاطعة وماري جيرارد للقدوم إلى البيت.

- لماذا فعلتِ ذلك؟

- أردتُ أن أوفر عليهما مسيرة متعبة في ذلك الجو الحار إلى القرية ومنها إلى البيت ثانية.

- كان ذلك في الحقيقة تصرفاً طبيعياً ولطيفاً من طرفك. هل قبلتا الدعوة؟

- نعم. وقد مشتا معي إلى البيت.

- أين كانت الشطائر التي قطعتها؟

- تركتها في طبق في غرفة الأواني.

- أكانت النافذة مفتوحة؟

- نعم.

- أكان بوسع أيٍ كان أن يدخل إلى غرفة الأواني في أثناء غيابك؟

- بالتأكيد.

- لو أن أحدهم لاحظك من الخارج وأنت تقطعين الشطائر، فما الذي كان سيظن؟

- أحسب أنه سيظن أنني أحضِّر غداء خفيفاً.

- وما كان بوسعه أن يعرف أن أحداً سيشاركك في هذا الغداء، أليس كذلك؟

- بلى؛ لم يخطر ببالي أن أدعو المرأتين إلاّ عندما شاهدت كمية الطعام الذي أحضرته.

- ولذلك فإذا ما دخل أحدهم إلى البيت خلال غيابك ووضع المورفين في إحدى الشطائر فإنه كان يحاول بذلك تسميمك أنت؟

- نعم، هذا صحيح.

- ماذا حدث عندما وصلتم جميعاً إلى البيت؟

- ذهبنا إلى غرفة الجلوس الصباحي، وأحضرتُ الشطائر وقدمت منها للمرأتين.

- هل شربتِ شيئاً معهما؟

- شربتُ ماء. كان على الطاولة عصير، ولكن الممرضة هوبكنز وماري فضلتا الشاي. وذهبت الممرضة هوبكنز إلى غرفة الأواني وأعدّت الشاي، ثم أحضرته على صينية وقامت ماري بصبه.

- هل شربتِ منه؟

- لا.

- ولكن ماري جيرارد والممرضة هوبكنز شربتا منه، أليس كذلك؟

- بلى.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- ذهبت الممرضة هوبكنز وأطفأت موقد الغاز.

- وتركتك بمفردك مع ماري جيرارد؟

- نعم.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد بضع دقائق حملتُ صينية الشاي وطبق الشطائر وأخذتهما إلى غرفة الأواني. وكانت الممرضة هناك، وغسلناهما معاً.

- هل كانت الممرضة هوبكنز قد رفعت أكمامها وقتها؟

- نعم، فقد كانت تغسل الأطباق وكنت أنا أقوم بتنشيفها.

- هل أبديتِ لها ملاحظة ما بشأن وجود خدش في رسغها؟

- سألتها إن كانت قد تعرضت إلى وخزة.

- وبماذا أجابت؟

- قالت: إنها شوكة من شجرة الورد خارج بيت البواب، سأخرجها فوراً.

- وكيف كان سلوكها وقتها؟

- أظنها كانت تشعر بالحرّ، فقد كانت تتعرق وكان وجهها ذا لون غريب.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- صعدنا إلى الطابق العلوي، وساعدتني بترتيب حاجيات عمتي.

- كم انقضى من الوقت عندما نزلتما ثانية؟

- لا بد أن ذلك كان بعد نحو ساعة.

- وأين كانت ماري جيرارد؟

- كانت جالسة في غرفة جلوس الصباح. كانت تتنفس بشكل غريب جداً وهي في حالة إغماء، وقمت بطلب الطبيب هاتفياً بناء على طلب الممرضة هوبكنز، وقد وصل قبل وفاتها بقليل.

نصب السير إدوين كتفيه بشكل درامي وقال: آنسة كارليسل، هل قتلتِ ماري جيرارد؟

- لا.

-٣-

السير صاموئيل أتينبري. الآن صارت تحت رحمة عدو؛ لم يعد هناك لطف، ولم يعد ثمة أسئلة تعرف إجاباتها! ولكنه بدأ بشكل هادئ تماماً: لقد كنتِ -كما أخبرتنا- مخطوبة بقصد الزواج من السيد روديريك ويلمان؟

- نعم.

- وكنتِ تحبينه؟

- جداً.

- لقد كنت مغرمة جداً بروديريك ويلمان وشعرتِ بغيرة شديدة من حبه لماري جيرارد؟

- لا.

قال السير صاموئيل متوعداً: أتحداك أن تنكري أنك قد خططتِ عامدة للتخلص من هذه الفتاة على أمل أن يعود روديريك إليك.

- لم أفعل بالتأكيد.

واستمرت الأسئلة. كان الأمر أشبه بحلم، حلم سيء، كابوس. سؤال بعد سؤال، أسئلة فظيعة، جارحة، بعضها كانت مستعدة لها وبعضها أخذها على حين غرة. دائماً تحاول تذكّر دورها. لا مفرّ لها أبداً ولو لمرة واحدة، لا مجال لتقول: نعم، لقد كرهتها. نعم، لقد أردت لها أن تموت. نعم، كنت أفكر بموتها طوال الوقت وأنا أقطع الشطائر!

يجب أن تبقى هادئة وباردة وتجيب بأقل قدر من الكلمات ومن العاطفة، أن تقاتل، تقاتل في كل بوصة من الطريق.

انتهى الأمر الآن. كان الرجل الرهيب يجلس، وكان صوت السير إدوين اللطيف المتملق يسألها بضعة أسئلة إضافية. أسئلة سهلة مفرحة لمحو أية انطباعات سيئة يمكن أن تكون قد صدرت عنها بسبب استجوابها.

ثم عادت ثانية إلى قفص الاتهام، تنظر إلى هيئة المحلفين وتتساءل.

-٤-

رودي، رودي يقف هناك، يرمش قليلاً بعينيه ويكره الأمر كله. رودي، يبدو -نوعاً ما-وكأنه ليس حقيقياً تماماً.

ولكن أي شيء لم يعد حقيقياً. كل شيء يدور بطريقة شيطانية؛ الأسود أبيض، والقمة قعر، والشرق غرب، وأنا لست إلينور كارليسل، أنا «المتهَمة». وسواء أشنقوني أم أطلقوني فلا شيء

سيعود أبداً كما كان. لو كان هناك فقط شيء ما، مجرد شيء واحد عاقل يتمسك به المرء! ربما وجه بيتر لورد بنمشه وسَمْته الغريب الذي يوحي بأنه على حاله المعتاد.

أين وصل السير إدوين الآن؟

- هل لك أن تخبرنا كيف كانت مشاعر الآنسة كارليسل نحوك؟

أجاب رودي بصوته الدقيق: أظنها كانت شديدة التعلق بي، ولكنه لم يكن بالتأكيد حباً جارفاً بالنسبة لي.

- أكنت تعتبر خطوبتكما مُرضية؟

- آه، مُرضية تماماً. كنا نتفق في الكثير من الأشياء.

- هل لك أن تخبر هيئة المحلفين يا سيد ويلمان: لماذا فُسِخَت تلك الخطوبة بالضبط؟

- أظن أن وفاة السيدة ويلمان جعلتنا نتوقف قليلاً لمراجعة النفس بشيء من الصدمة. لم تَرُق لي فكرة الزواج بامرأة غنية وأنا شخصياً مفلس، وقد تم عملياً فسخ الخطوبة باتفاق الطرفين. وقد أحسسنا كلانا بشيء من الارتياح.

- والآن، هل لك أن تخبرنا عن علاقتك بماري جيرارد؟

- لقد رأيتها جميلة جداً.

- أكنت تحبها؟

- قليلاً.

- متى كانت آخر مرة رأيتها فيها؟

- دعني أتذكر. لا بد أن ذلك كان في الخامس أو السادس من تموز.

قال السير إدوين وفي صوته لمسة حدّة: أظنِ أنك رأيتها بعد ذلك.

- لا، لقد سافرتُ إلى الخارج، إلى البندقية ودالماتيا.

- متى عدتَ إلى إنكلترا؟

- عندما استلمتُ برقية. دعني أتذكر... لا بد أن ذلك كان في الأول من آب (أغسطس).

- ولكني أظن أنك كنتَ عملياً في إنكلترا في السابع والعشرين من تموز (يوليو).

- لا.

- هيا يا سيد ويلمان، تذكَّرْ أنك أقسمتَ اليمين. أليس حقيقة أن جواز سفرك يُظهر أنك قد عدتَ إلى إنكلترا في الخامس والعشرين من تموز وغادرتها ثانية في ليلة السابع والعشرين منه؟

كان صوت السير إدوين يحمل في طياته نبرة تهديد خفي. عبست إلينور كارليسل وعادت فجأة إلى الواقع؛ لماذا كان السير إدوين يرهب شاهده الخاص؟

كان روديريك قد غدا شاحباً بعض الشيء. سكت لحظات ثم قال بشيء من الجهد: حسناً. نعم، هذا صحيح.

- هل ذهبت ورأيت هذه الفتاة، ماري جيرارد، في لندن في الخامس والعشرين من تموز في محل سكناها؟

- نعم، ذهبت.

- هل طلبتَ منها الزواج بك؟

- نـ... نعم.

- وماذا كان جوابها؟

- لقد رفضت.

- هل أنت غني يا سيد ويلمان؟

- لا.

- ألستَ غارقاً في الديون إلى حد ما؟

- وما شأنك أنت بذلك؟

- ألم تكن تعرف حقيقة أن الآنسة كارليسل قد تركت كل أموالها لك في حال وفاتها؟

- هذه أول مرة أسمع فيها بذلك.

- هل كنت في ميدنزفورد صباح السابع والعشرين من تموز؟

- لا، لم أكن.

جلس السير إدوين، وقام وكيل الادعاء العام.

- لقد قلتَ إن المتهمة لم تكن تحبك بعمق؟

- هذا ما قلته.

- هل أنت ذو فروسية وشهامة يا سيد ويلمان؟

- لا أدري ما الذي تعنيه.

- إذا كانت سيدة تحبك بعمق ولم تكن أنت تحبها، فهل تشعر أن من واجبك إخفاء هذه الحقيقة؟

- لا بالتأكيد.

- أين كانت دراستك يا سيد ويلمان؟

- في إيتون.

قال السير صاموئيل بابتسامة هادئة: هذا كل شيء.

-٥-

ألفريد جيمس ورغريف.

- أأنت زارع ورود، وتعيش في إيمزورث في بيركس؟

- نعم.

- هل ذهبت يوم العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) إلى ميدنزفورد وتفحصت شجرة ورد تنمو خارج بيت البواب في هَنتربيري؟

- نعم.

- هل لك أن تصف لنا تلك الشجرة؟

- إنها شجرة ورد متسلقة، اسمها اللاتيني زيفيرين دروهين. وهي تحمل وروداً قرمزية عطرة الرائحة، وليس لها أشواك.

- هل يكون من المستحيل -إذن- أن يتلقى أحدٌ وخزة من شجرة ورد كهذه؟

- هذا مستحيل تماماً؛ فهي شجرة لا شوك لها.

لا استجواب للشاهد.

-٦-

- أنت جيمس آرثر ليتلديل، وأنت صيدلاني مؤهَّل وتعمل لدى شركة جينكنز آند هيل لبيع الأدوية بالجملة؟

- نعم.

- هل لك أن تخبرني ما هي قصاصة الورق هذه؟

تم تسليم القصاصة له.

- إنها مِزقة من أحد الملصقات التي نلصقها على زجاجات الدواء.

- أي نوع من الملصقات هو؟

- إنه الملصق الذي نضعه على أنابيب لحبوب يتم حلّها لتُعطى عن طريق الإبرة.

- وهل في هذه القصاصة ما يكفيك لكي تجزم يقيناً بطبيعة الدواء الذي أُلصق عليه هذا الملصق؟

- نعم؛ بوسعي القول بكل تأكيد إن الأنبوبة المَعْنيّة كانت تحوي حبوب هايدروكلورايد الأبومورفين عيار واحد من عشرين.

- أليست هايدروكلورايد المورفين؟

- لا، لا يمكن أن تكون كذلك.

- لماذا؟

- لقد تبين بعد أن فحصتُ القصاصة بعدستي المكبِّرة أن حرف الميم الظاهر في الطرف الأيمن لكلمة «مورفـ» مسبوق بجزء صغير من حرف الواو، مما يدلّ على أن الكلمة الأصلية هي «أبومورفين» وليس «مورفين»، وأيضاً فإن عبارة «١/٢ غم» مطبوعة باللون الأزرق، وهكذا استنتجت أنها كانت عبارة «١/٢٠ غم» وقد تم قطع الصفر بشكل متعمَّد أو غير متعمَّد، لأنني أعرف أن أنبوبة المورفين من العيار «١/٢ غم» يطبع عليها العيار باللون الأحمر.

- من فضلك، دع هيئة المحلفين تفحص القصاصة بالعدسة المكبِّرة. هل لديك هنا ملصقات توضح ما تعنيه؟

سلم الرجل الملصقات لهيئة المحلفين، فيما تابع السير إدوين: لقد قلتَ إن هذه القصاصة مأخوذة من أنبوبة هايدروكلورايد الأبومورفين؟ ما هو هايدروكلورايد الأبومورفين بالضبط؟

- إنه من مشتقّات المورفين، ويتم تحضيره بتسخين المورفين مع محلول حامض هايدروكلوريدي في أنابيب مختومة، حيث يفقد جُزَيء المورفين جُزَيئاً واحداً من الماء.

- وما هي خصائص الأبومورفين؟

قال السيد ليتلديل بهدوء: الأبومورفين هو أسرع وأقوى محفِّز معروف للتقيّؤ، ويعطي مفعوله خلال بضع دقائق.

- ولذلك فلو ابتلع أحدٌ جرعةً قاتلة من المورفين ثم حقن نفسه بجرعة من الأبومورفين خلال بضع دقائق، فماذا تكون النتيجة؟

- سيحدث تقيؤ بشكل فوري تقريباً، وسيتم خروج المورفين من الجسم.

- ولذلك إذا ما قُدِّر لشخصين أن يشتركا في تناول نفس الشطائر أو الشرب من نفس إبريق الشاي، ثم قام أحدهما بحقن نفسه بجرعة من الأبومورفين، فماذا ستكون النتيجة (إذا افترضنا أن الطعام أو الشراب كان يحتوي على المورفين)؟

- سيتم تقيؤ الطعام أو الشراب مع المورفين من قِبَل الشخص الذي حُقن بالأبومورفين.

- ولن يعاني ذلك الشخص من نتائج مَرَضية؟

- نعم.

سادت حركة انفعال في المحكمة، وطلب القاضي التزام الهدوء والنظام.

-٧-

- أأنت أميليا ماري سيدلي، وسكنك المعتاد في ١٧ شارع تشارلز في بونامبا، أوكلاند، نيوزلندا؟

- نعم.

- هل تعرفين امرأة تدعى السيدة دريبر؟

- نعم، لقد عرفتها لأكثر من عشرين عاماً.

- أتعرفين اسمها قبل الزواج؟

- نعم، فقد حضرتُ زواجها. كان اسمها ماري رايلي.

- أهي من مواطني نيوزلندا؟

- لا، بل جاءت إلى هناك من إنكلترا.

- أكنت موجودة في المحكمة منذ بداية هذه المداولات؟

- نعم.

- هل رأيت ماري رايلي (أو دريبر) هذه في المحكمة؟

- نعم.

- أين رأيتها؟

- تدلي بشهادتها على هذه المنصة.

- تحت أي اسم؟

- جيسي هوبكنز.

- وهل أنت متأكدة تماماً من أن جيسي هوبكنز هذه هي المرأة التي تعرفينها باسم ماري رايلي أو دريبر؟

- لا شك في ذلك أبداً.

حدث شيء من الفوضى في آخر قاعة المحكمة.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها ماري دريبر... قبل هذا اليوم؟

- منذ خمس سنوات، فقد غادرت إلى إنكلترا.

قال السير إدوين بانحناءة: تفضل واستجوب الشاهدة.

نهض السير صاموئيل بوجه حائر قليلاً وبدأ قائلاً: أقول يا سيدة

سيدلي، ربما كنت مخطئة؟

- لستُ مخطئة.

- ربما اختلط عليك الأمر بسبب تشابه بالمصادفة.

- إنني أعرف ماري دريبر معرفة جيدة.

- إن الممرضة هوبكنز ممرضة المقاطعة القانونية.

- لقد كانت ماري دريبر ممرضة مستشفى قبل زواجها.

- هل تدركين أنك تتهمين شاهد الادعاء بشهادة الزور؟

- إنني أفهم ما أقوله تماماً.

-٨-

إدوارد جون مارشال، لقد عشتَ لبضع سنين في أوكلاند في نيوزلندا، وتسكن الآن في ١٤ شارع رين في ديتفورد؟

- هذا صحيح.

- هل تعرف ماري دريبر؟

- لقد عرفتها لسنوات طويلة في نيوزلندا.

- هل رأيتها اليوم في المحكمة؟

- نعم رأيتها، وقد أسمت نفسها هوبكنز، ولكنها كانت السيدة دريبر دون شك.

رفع القاضي رأسه، ثم تكلم بصوت ناعم واضح نفّاذ: أظن أن من المُحبَّذ أن يُعاد استدعاء الشاهدة جيسي هوبكنز.

لحظة صمت، ثم همهمات.

- سعادة القاضي، لقد غادرت جيسي هوبكنز المحكمة منذ بضع دقائق.

-٩-

- هيركيول بوارو.

صعد هيركيول بوارو المنصة وأقسم اليمين، ثم فتل شاربه وانتظر ورأسه مائل قليلاً. أعطى اسمه وعنوانه ومهنته.

- سيد بوارو، هل تعرف هذه الوثيقة؟

- بالتأكيد.

- كيف جاءت إلى حوزتك أصلاً؟

- لقد أعطتها لي ممرضة المقاطعة، الممرضة هوبكنز.

قال السير إدوين: بعد إذنك يا سيادة القاضي، سأقرأ هذه الوثيقة بصوت عالٍ، ثم يمكن بعد ذلك إعطاؤها لهيئة المحلفين.

* * *

الفصل الرابع

-١-

الخطاب الختامي للدفاع:

السادة المحلفين. إن المسؤولية الآن تقع على عاتقكم؛ إن عليكم أنتم الآن أن تقرروا إخراج إلينور كارليسل من هذه المحكمة حرة، فإن كنتم قد اقتنعتم -بعد الأدلة التي سمعتموها- بأن إلينور كارليسل قد سمّمت ماري جيرارد فإن من واجبكم عندها أن تعلنوا إدانتها. ولكن إن بدا لكم أن هناك دلائل لا تقل قوة (إن لم تكن أقوى) ضد شخص آخر، فإن من واجبكم عندئذ أن تطلقوا سراح المتهمة دون مزيد من العناء.

لا شك أنكم أدركتم الآن بأن حقائق القضية تختلف تمام الاختلاف عمّا بدت عليه في البداية. وبالأمس، وبعد الدلائل الدراميّة التي قدمها السيد هيركيول بوارو، استدعيتُ شهوداً آخرين ليثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك بأن الفتاة ماري جيرارد كانت الابنة غير الشرعية للاورا ويلمان. ولئن كان ذلك صحيحاً فإن ما يترتب عليه -كما سيخبركم سيادة القاضي دون شك- هو أن أقرب أقرباء السيدة ويلمان لم تكن ابنة أخيها إلينور كارليسل، بل ابنتها غير الشرعية التي

حملت اسم ماري جيرارد. ولذلك فإن ماري جيرارد ترثُ عند وفاة السيدة ويلمان ثروة طائلة. إن هذا -أيها السادة- هو لبّ المشكلة. لقد ورثت ماري جيرارد مبلغاً يقرب من مئتَي ألف جنيه، ولكنها شخصياً لم تكن تعرف هذه الحقيقة، كما لم تكن تعرف الهوية الحقيقية للمرأة هوبكنز. وربما حسبتم -أيها السادة- أن ماري رايلي (أو دريبر) ربما كان لها سبب مشروع تماماً يدفعها لتغيير اسمها إلى هوبكنز، ولكن إن كان الأمر كذلك فلماذا لم تتقدم لذكر ذلك السبب؟

إن كل ما نعرفه بالفعل هو التالي: بتحريض من الممرضة هوبكنز قامت ماري جيرارد بكتابة وصية تترك فيها كل ما تملكه إلى «ماري رايلي شقيقة إليزا رايلي». ونحن نعرف أن الممرضة هوبكنز -بسبب مهنتها- تستطيع الوصول إلى المورفين والأبومورفين، وكانت تعرف خصائصهما حق المعرفة. وفوق ذلك فقد ثبت أن الممرضة هوبكنز لم تكن تقول الحقيقة عندما قالت إن رسغها قد وُخِز بشوكة من وردة لا شوكَ لها. فلماذا كذبت إن لم تكن قد أرادت بكذبها أن تُقدّم تفسيراً مرتجَلاً للعلامة التي خلّفتها الإبرة لتوّها؟ تذكروا أيضاً أن المتهمة قد ذكرت -وقد أقسمت اليمين- أن الممرضة هوبكنز كانت تبدو مريضة عندما جاءتها إلى غرفة الأواني وأن وجهها كان ممتقعاً، وهو أمر مفهوم تماماً إن كانت قد أصيبت لتوّها بغثيان وتقيؤ شديدين.

وأخيراً فإنني أودّ التأكيد على نقطة أخرى: لو كانت السيدة ويلمان قد عاشت لفترة أربعة وعشرين ساعة أخرى لكانت قد كتبت وصية، وكان من شأن تلك الوصية على الأرجح أن تنصّ على منح ماري جيرارد مبلغاً مناسباً، ولكن لم تكن لتترك لها كل الثروة طالما أن السيدة ويلمان كانت ترى أن ابنتها غير المعترَف بها ستكون أسعد حالاً إن هي بقيت على جهلها بحقيقة أصلها.

إنه ليس من شأني أن أُصدر أحكاماً على الأدلة التي تدين شخصاً آخر إلاّ لكي أوضح أن هذا الشخص الآخر قد توفرت له فرص مساوية ودافع أقوى بكثير لارتكاب جريمة القتل. فإذا ما نظرنا إلى القضية من هذا المنظور -أيها السادة- فإن القضية ضد إلينور كارليسل تنتفي تماماً.

-٢-

من تلخيص قاضي محكمة العدل العليا للقضية:

ينبغي أن تكونوا مقتنعين كلياً بأن هذه المرأة قد دَسَّت في الحقيقة جرعة خطيرة من المورفين لماري جيرارد في السابع والعشرين من تموز، فإن كنتم غير مقتنعين فإن عليكم تبرئة السجينة.

لقد قال الادعاء العام إن الشخص الوحيد الذي توفرت له الفرصة لدسّ السم لماري جيرارد هو المتهَمة، وقد سعى الدفاع ليثبت وجود بدائل أخرى. هناك نظرية إقدام ماري جيرارد على الانتحار، ولكن الدليل الوحيد الذي يدعم تلك النظرية هو حقيقة أن ماري جيرارد قد كتبت وصية قبل وفاتها بوقت قصير، ولا وجود لأدنى دليل على أنها كانت كئيبة أو تعيسة أو تعيش حالة ذهنية يمكن أن تقودها إلى الانتحار. كما تمت الإشارة أيضاً إلى أن المورفين يمكن أن يكون قد وُضع في الشطائر بواسطة شخص دخل غرفة الأواني خلال وجود إلينور كارليسل في بيت البواب، وفي هذه الحالة فإن المقصود بالسم كان إلينور كارليسل وكانت وفاة ماري جيرارد مجرد غلطة. البديل الثالث الذي طرحه الدفاع هو أن شخصاً آخر قد توفرت له فرصة مساوية لدس المورفين، وأن السم في هذه الحالة قد تم دسه في الشاي وليس في الشطائر. ودعماً لهذه النظرية

قام الدفاع باستدعاء الشاهد ليتلديل الذي أقسم على أن القصاصة التي وُجدت في غرفة الأواني كانت جزءاً من ملصق لأنبوبة تحتوي على حبوب هايدروكلورايد الأبومورفين، وهو مُحَفِّز شديد للتقيؤ. وقد قُدِّمت لكم عيّنتان من كلا الملصقين المختلفين. وبرأيي فإن إدارة الشرطة مُدانة بإهمال فاضح إذ لم تتفحص القصاصة الأصلية بشكل أكثر دقة وقفزت متسرّعة إلى القول إن القصاصة جزء من ملصق لأنبوبة مورفين. وقد ذكرت الشاهدة هوبكنز أنها تعرضت لوخزة من شجرة ورد عند بيت البواب. وقد فحص الشاهد ورغريف تلك الشجرة فلم يجد لها أشواكاً. وعليكم أن تقرروا ما الذي سبّب تلك العلامة على رسغ الممرضة هوبكنز ولماذا كذبت بشأن ذلك.

فإن كان الادعاء العام قد أقنعكم بأن المتهَمة قد ارتكبت الجريمة دون غيرها، فإن عليكم إذن أن تعلنوا إدانة المتهمة. وإن كانت النظرية البديلة التي أوردها الدفاع ممكنة ومنسجمة مع الأدلة المتوفرة فيجب تبرئة المتهمة. إنني أطلب منكم أن تفكروا بالحكم بشجاعة واجتهاد دون الأخذ إلاّ بالأدلة التي وضعت أمامكم.

-٣-

أُعيدَت إلينور إلى المحكمة، ودخل المحلَّفون تباعاً.

- السادة أعضاء هيئة المحلفين، هل اتفقتم على حُكمكم؟

- نعم.

- انظروا إلى السجينة هنا وقولوا إن كانت مذنبة أم غير مذنبة.

- غير مذنبة.

* * *

الفصل الخامس

كانوا قد أخرجوها من باب جانبي. كانت مدركة لوجود وجوه ترحب بها؛ فهذا هو رودي ورجل التحري ذو الشارب الضخم، ولكن التفاتها كان نحو بيتر لورد وكلامها كان موجَّهاً له: أريد الابتعاد من هنا.

كانت معه الآن في سيارته الأنيقة التي انطلقت بسرعة خارج لندن. لم يكن قد قال لها شيئاً، وكانت قد جلست وسط نعمة الصمت. كل دقيقة تأخذها أبعد فأبعد. حياة جديدة... هذا هو ما أرادته، حياة جديدة.

ثم قالت فجأة: أريد... أريد الذهاب إلى مكان هادئ، مكان لا توجد فيه أية وجوه.

قال بيتر لورد بهدوء: لقد تمّ ترتيب ذلك كله. أنت ذاهبة إلى مصحة للنقاهة، مكان هادئ وحدائق رائعة. لن يزعجك أحد أو يصل إليك أحد.

قالت وهي تتنهد: نعم، هذا ما أريده.

رأت أن كونه طبيباً هو الذي جعله يفهم. لقد عرف، ولم يضايقها. كم كان الوجود معه هنا هادئاً، وهي تبتعد عن الأمر كله

وتخرج من لندن إلى مكان آمن. أرادت أن تنسى، أن تنسى كل شيء. لم يعد شيء من ذلك الأمر حقيقياً الآن. لقد مضى كله، تلاشى وانتهى، الحياة القديمة والعواطف القديمة. كانت مخلوقة جديدة، غريبة، ضعيفة، مخلوقة بدائية تبدأ طريقها كله من جديد، غريبة جداً وخائفة جداً. ولكن كان من المريح أن تكون مع بيتر لورد. كانا خارج لندن الآن يعبران الضواحي، وقالت أخيراً: لقد كان ذلك كله منك، كله منك.

قال بيتر لورد: بل كان من هيركيول بوارو. إن هذا الرجل أشبه بساحر!

ولكن إلينور هزت رأسها بالنفي وقالت بعناد: بل كنت أنت؛ أنت الذي أمسكتَ به وجعلته يقوم بذلك.

- لقد جعلته يقوم بذلك فعلاً.

- هل كنتَ تعرف أنني لم أفعلها، أم أنك لم تكن واثقاً؟

قال بيتر ببساطة: لم أكن واثقاً تماماً.

- لذلك كدتُ أقول «مذنبة» في بداية المحاكمة؛ ذلك أنني فكرت في ذلك، فكرت في ذلك عندما ضحكتُ خارج بيت الممرضة في ذلك اليوم.

- نعم، عرفتُ ذلك.

قالت متعجبة: يبدو الأمر غريباً جداً الآن، كشيء من الهوَس. في ذلك اليوم الذي اشتريت به الصلصة وقطعت الشطائر كنت أتخيل مع نفسي وأقول: سأمزج السمّ بهذه الصلصة، وعندما تأكلها ستموت، وعندها سيعود رودي إليّ.

قال بيتر لورد: إن ممّا يساعد بعض الناس أن يتخيلوا مثل هذه التخيلات مع أنفسهم. ليس هذا بالأمر السيء حقاً، فبذلك تُخرجين الأمر من نفسك في الخيال؛ تماماً كما يُخرج المرء بعض الفضلات عن طريق التعرّق.

- نعم، هذا صحيح. لأن الأمر ذهب فجأة! أعني الحقد عليها، فعندما ذكرت تلك المرأة شجرة الورد قرب بيت البواب عاد الأمر كله ليصبح، ليصبح طبيعياً من جديد.

ثم قالت وهي ترتعد: وبعد ذلك، عندما عدنا إلى غرفة الجلوس الصباحي ورأيتها... فكرتُ وقتها: هل يوجد فرق كبير بين التفكير بالقتل والإقدام على القتل؟

- كل فروقات الدنيا.

- ولكن هل الفرق حقيقي؟

- بالطبع؛ إن التفكير بالقتل لا يؤذي أحداً حقاً. إن للناس أفكاراً سخيفة حول هذا الأمر، فهم يظنون أن التفكير بالقتل يعادل التخطيط للقتل! وهو ليس كذلك. إذا ما فكرت بالقتل لفترة طويلة فإنك تتخلصين فجأة من سواد قلبك وتشعرين أن الأمر كله سخيف.

صاحت إلينور: آه، إنك حقاً شخص مُريح.

قال بيتر لورد بشيء من الارتباك: أبداً، بل هذا هو المنطق.

قالت إلينور وقد اغرورقت عيناها بالدموع فجأة: كنتُ في المحكمة أنظر إليك بين حين وآخر، وقد منحني ذلك الشجاعة. فقد بدوتَ... بدوت عادياً جداً.

ثم ضحكت وقالت: هذه وقاحة.

- إنني أفهم ذلك، فعندما تكونين وسط كابوس تصبح رؤية شيء عادي هي الأمل الوحيد.

ولأول مرة منذ أن ركبَت السيارة أدارت رأسها ونظرت إليه. لم يؤلمها مرأى وجهه كما كان مرأى وجه رودي يؤلمها دوماً، لم يسبب لها وخزة حادة من الألم والسعادة معاً، بل جعلها تشعر بالدفء والراحة. فكّرت: ما ألطف وجهه! لطيف ومضحك، ومريح أيضاً، نعم.

ومضت بهما السيارة. وصلا أخيراً إلى بوابة وراءها ممر يلتفّ صعوداً حتى يصل إلى بيت أبيض هادئ على طرف تلة. قال: ستكونين بأمان تماماً هنا، لن يزعجك أحد.

وبلا تفكير وضعت يدها على ذراعه وقالت: هل... هل ستأتي لرؤيتي؟

- بالطبع.

- كثيراً؟

قال بيتر لورد: بقدر ما تريدين.

قالت: أرجوك أن تأتي كثيراً .

* * *

الفصل السادس

قال هيركيول بوارو: أرأيت يا صديقي كيف أن الكذبات التي يقولها الناس تكون مفيدة بقدر الحقائق تماماً؟

قال بيتر لورد: هل كذب الجميع عليك؟

أومأ هيركيول بوارو برأسه وقال: نعم، لسبب أو لآخر. الشخص الوحيد الذي كانت الحقيقة التزاماً عليه وكان حسّاساً شديد الاستقامة بشأنها... ذلك الشخص هو الشخص الذي حيرني أكثر من الجميع.

تمتم بيتر لورد: إلينور نفسها!

- بالضبط. لقد أشارت الدلائل إليها باعتبارها الطرف المذنب، وهي نفسها -بضميرها الحساس شديد التحرز- لم تفعل شيئاً لتبديد تلك الفرضية. وهي إذ اتهمَت نفسها بالنية إن لم يكن بالفعل قد اقتربت كثيراً من التخلي عن معركة قذرة كريهة، وأوشكت على أن تقول في المحكمة إنها مذنبة بجريمة لم ترتكبها.

أطلق بيتر لورد زفرة غيظ وقال: أمر لا يُصدَّق.

هز بوارو رأسه وقال: أبداً؛ لقد أدانت نفسها لأنها حكمت على نفسها وفقاً لمعايير أعلى مما تعتمده الطبيعة البشرية العادية.

قال بيتر لورد متأملاً: نعم، إنها كذلك.

- منذ اللحظة التي بدأتُ بها تحرياتي كان هناك احتمال قوي بأن تكون إلينور كارليسل مذنبة فعلاً بالجريمة التي اتُّهِمَت بها، ولكنني قمتُ بالتزاماتي تجاهك واكتشفت أن بالإمكان الخروج بأدلة قوية تدين شخصاً آخر.

- الممرضة هوبكنز؟

- ليس في البداية. كان روديريك ويلمان هو الشخص الذي جذب انتباهي في بداية الأمر، وفي حالته أيضاً بدأ الأمرَ بكذبة. فقد أخبرني أنه غادر إنكلترا في التاسع من تموز وعاد في الأول من آب، ولكن الممرضة هوبكنز ذكرت عرَضاً أن ماري جيرارد قد صدّت محاولات روديريك ويلمان للتقرب منها في ميدنزفورد «ومرة ثانية عندما رأته في لندن». وقد أخبرتَني أنت أن ماري جيرارد قد ذهبت إلى لندن في العاشر من تموز، أي بعد يوم من مغادرة روديريك ويلمان إنكلترا.

إذن متى حدثت مقابلة بين ماري جيرارد وروديريك ويلمان في لندن؟ كلّفت صديقي اللص أن يقوم بعمله، وبفحص جواز سفر ويلمان اكتشفتُ أنه كان في إنكلترا ما بين الخامس والعشرين والسابع والعشرين من تموز، وقد كذب بشأن ذلك عامداً.

لقد كانت هناك دوماً في ذهني تلك الفترة التي تُرِكت فيها الشطائر على طبق في غرفة الأواني حين ذهبَت إلينور إلى بيت البواب، ولكنني أدركت منذ البداية أن مَن كان مقصوداً كضحية في هذه الحالة هو إلينور وليس ماري. هل كان لدى روديريك ويلمان أي دافع لقتل إلينور كارليسل؟ نعم، وكان دافعاً قوياً جداً، فقد كتبت

وصية تركت له فيها كل ثروتها، وببعض الاستجواب الماهر اكتشفتُ أن روديريك ويلمان كان بوسعه الاطلاع على تلك الحقيقة.

قال بيتر لورد: ولماذا قررت أنه بريء إذن؟

- بسبب كذبة أخرى، وكانت كذبة سخيفة غبية لا يؤبَه لها أيضاً. فقد قالت الممرضة هوبكنز إن رسغها قد وُخِز بشوكة من شجرة ورد، وقد ذهبتُ ورأيت شجرة الورد ولم يكن لها أشواك. وهكذا فمن الواضح أن الممرضة هوبكنز قد كذبت، وكانت الكذبة سخيفة جداً ولا هدف منها في الظاهر إلى الحد الذي جعلني أركّز انتباهي عليها. فبدأت أتساءل بشأن الممرضة هوبكنز. كانت قد بدت لي -حتى ذلك الحين- شاهدة موثوقة تماماً، منسجمة المنطق في كل كلامها مع تحيّز قوي ضد المتهَمة ناتج بشكل طبيعي تماماً عن حبها للفتاة القتيلة. ولكن، بعد أن أخذت في الحسبان تلك الكذبة الصغيرة السخيفة، أخذتُ أفكر بالممرضة هوبكنز وبأدلتها بكل دقة وحرص، وأدركت شيئاً لم أكن من الذكاء بحيث أراه من قبل. فقد كانت الممرضة هوبكنز تعرف عن ماري جيرارد شيئاً كانت حريصة جداً على أن يُعرَف.

قال بيتر لورد بدهشة: لقد ظننت الأمر عكس ذلك تماماً؟

- ظاهرياً نعم. لقد قامت بأداء دور رائع لشخص يعرف شيئاً ولا يريد البوح به! ولكنني عندما فكرت بالأمر ملياً أدركتُ أن كل كلمة قالتها في هذا الموضوع قد قيلت وفي ذهنها الأثر العكسي تماماً، وقد أكد حديثي مع الممرضة الأخرى هذا الاعتقاد، فقد استخدمتها هوبكنز بكل ذكاء دون أن تدرك الممرضة أوبرايان ذلك.

أصبح واضحاً عندها أن لدى الممرضة هوبكنز لعبة خاصة

تلعبها. قابلتُ بين الكذبتين، كذبتها وكذبة روديريك ويلمان. هل كانت أي من الكذبتين تتحمل تفسيراً بريئاً؟ في حالة روديريك أجبتُ فوراً: نعم؛ فروديريك ويلمان مخلوق حساس جداً، والاعتراف بأنه لم يستطع الثبات على خططه في البقاء في الخارج وأنه اضطر للتسلل عائداً ليحوم حول فتاة لا تريد أية علاقة معه، إن مثل هذا الاعتراف سيكون جارحاً جداً لكبريائه. وبما أنه لم يكن هناك أي سؤال عن اقترابه من مسرح الجريمة أو عن معرفته بها أصلاً فقد قام بتبنّي الخط الذي لا يحتاج أية مقاومة، وتجنّبَ الجوانب الكريهة (وهي صفة بارزة لديه) وذلك بتجاهل تلك الزيارة السريعة إلى إنكلترا، والقول ببساطة إنه عاد يوم الأول من آب عندما وصله نبأ الجريمة.

والآن، فيما يخص الممرضة هوبكنز، هل يمكن أن يكون هناك تفسير بريء لكذبتها؟ كلما كنت أفكر في هذا الأمر كلما بدا لي غريباً أكثر تماماً. لماذا تجد الممرضة هوبكنز ضرورة للكذب بسبب علامة على رسغها؟ ماذا كانت أهمية تلك العلامة؟ بدأت أطرح على نفسي أسئلة معينة: لِمَن كان المورفين الذي سُرق؟ للممرضة هوبكنز. من الذي كان بوسعه أن يعطي ذلك المورفين للسيدة ويلمان؟ الممرضة هوبكنز. نعم، ولكن لماذا إثارة الانتباه إلى اختفاء المورفين؟ لا يمكن أن يكون هناك إلاّ جواب واحد إن كانت الممرضة هوبكنز مذنبة: وهو أن جريمة القتل الثانية (جريمة ماري جيرارد) كانت قد خُططت أساساً وتم اختيار كبش فداء لها، ولكن ينبغي أن يَظهر أن كبش الفداء هذا قد توفرت له فرصة الحصول على المورفين.

وقد تراكمت أمور أخرى لتناسب هذه النظرية؛ كالرسالة المغفلة من التوقيع التي استلمتها إلينور. كان هدف الرسالة إثارة

مشاعر سيئة بين إلينور وماري جيرارد، ولا شك أن الفكرة كانت تفترض مجيء إلينور واعتراضها على ما تتمتع به ماري من نفوذ على السيدة ويلمان. أما وقوع روديريك ويلمان في حب جارف لماري فقد كان بالطبع تطوراً غير متوقَّع أبداً، ولكنه كان تطوراً استطاعت هوبكنز أن ترى أهميته بسرعة، فهنا قد توفر دافع مثالي لكبش الفداء، إلينور.

ولكن ما هو سبب كلا الجريمتين؟ ما هو الدافع الذي يمكن أن يكون لدى الممرضة هوبكنز لتقتل ماري جيرارد؟ بدأتُ أرى بصيص ضوء، بصيصاً كان شديد الخفوت في البداية. فقد كان للممرضة هوبكنز تأثير كبير على ماري، وإحدى الطرق التي استخدمت بها ذلك التأثير هو إغراء الفتاة بكتابة وصية. ولكن الوصية لم تكن تفيد الممرضة هوبكنز بل تفيد خالةً لماري عاشت في نيوزيلندا. ثم تذكرتُ ملاحظة قالها لي مصادَفةً أحدُ الناس في القرية، وهي أن تلك الخالة كانت ممرضة مستشفى.

لم يعد بصيص الضوء عندها بمثل ذلك الخفوت؛ كان نمط الجريمة وهيكلها العام قد بدأ يتضح. وكانت الخطوة التالية سهلة، فقد زرتُ الممرضة هوبكنز مرة أخرى. وقد قام كل واحد منا على حدة بتمثيل المسرحية الكوميدية بشكل رائع، وفي النهاية سمحَت لنفسها بأن تقتنع بإخباري بما كانت تهدف لقوله طوال الوقت، إلاّ أنها ربما قالته في وقت أبكر قليلاً مما كانت تريد! ولكنها وجدت الفرصة رائعة بحيث لم تستطع المقاومة، فالحقيقة في نهاية المطاف لا بد أن تُعرَف يوماً ما. وهكذا، وبتردد أتقنَتْ تمثيله، أخرجت لي الرسالة. وعندها لم يعد الأمر مجرد تخمين يا صديقي، بل أصبحتُ أعرف! لقد فضحتها الرسالة.

عبس بيتر لورد وقال: كيف؟

- يا عزيزي! لقد كان عنوان الرسالة كالتالي: « إلى ماري، لتُرسَل لها بعد وفاتي». ولكن فحوى مضمون الرسالة قد أوضح تماماً أن ماري ينبغي أن لا تعرف الحقيقة، كما أن كلمة «تُرسَل» (وليس تُعطى) على المغلَّف كانت تَشي بالكثير. إن تلك الرسالة لم تكن مكتوبة لماري جيرارد، بل لماري أخرى. لقد كتبت إليزا رايلي الحقيقة لأختها ماري رايلي في نيوزيلندا.

إن الممرضة هوبكنز لم تجد تلك الرسالة في بيت البواب بعد وفاة ماري جيرارد، بل كانت تحتفظ بها في حوزتها منذ سنوات طويلة. لقد تلقتها في نيوزيلندا حيث أُرسلت لها بعد وفاة أختها.

توقف بوارو قليلاً ثم تابع يقول: وبمجرد أن رأيت الحقيقة بعينَي عقلي صارت البقية سهلة، فقد مكّنَت سرعة السفر جواً شاهداً يعرف ماري دريبر جيداً في نيوزيلندا من الوصول إلى المحكمة بسرعة.

قال بيتر لورد: وماذا لو حدث وكنتَ مخطئاً وكانت الممرضة هوبكنز وماري دريبر شخصيتين مختلفتين تماماً؟

قال هيركيول بوارو ببرود: أنا لا أخطئ أبداً.

ضحك بيتر لورد فيما مضى بوارو يقول: إننا نعرف الآن -يا صديقي- شيئاً عن هذه المرأة، ماري رايلي أو دريبر. لقد كانت شرطة نيوزيلندا عاجزة عن الحصول على أدلة كافية لإدانتها، ولكنهم كانوا يراقبونها منذ زمن طويل عندما غادرت البلاد فجأة. كانت لديها مريضة عجوز تركت لها (للممرضة العزيزة رايلي) مبلغاً لا بأس به كإرث، وقد كان موت المريضة لغزاً بالنسبة للطبيب الذي يقوم على

علاجها. وقد قام زوج ماري دريبر بالتأمين على حياته بمبلغ ضخم لصالحها، وكانت وفاته مفاجئة ولا تفسير لها. ولكن من سوء حظها فإنه بعد أن كتب شيكاً لشركة التأمين نسي أن يرسله بالبريد! كما تُعزا إليها عدة وفيات أخرى. من المؤكد أنها امرأة لا وازع لديها ولا يعرف الندم طريقه إلى قلبها.

بوسع المرء أن يتخيل أن رسالة أختها قد أوحت لعقلها الداهية باحتمالات واعدة، وعندما ضاقت بها نيوزيلندا واشتدت الرقابة عليها انتقلت إلى هذا البلد وتابعت ممارسة مهنتها باسم هوبكنز (وهو اسم زميلة سابقة لها في المستشفى توفيت في الخارج). اختارت منطقة ميدنزفورد هدفاً لها، وربما كانت قد فكرت طبعاً بشكل ما من أشكال الابتزاز. ولكن السيدة ويلمان العجوز لم تكن من النساء اللاتي يخضعن للابتزاز، ولم تحاول الممرضة رايلي أو هوبكنز -عن ذكاء- ممارسة شيء من ذلك. ولا شك أنها قامت ببعض التحريات واكتشفت أن السيدة ويلمان كانت امرأة واسعة الثراء، وربما كانت كلمةٌ صدرت بالمصادفة من السيدة ويلمان قد كشفت حقيقة أنها لم تكتب وصية.

وهكذا، ففي تلك الليلة عندما روت الممرضة أوبرايان لزميلتها أن السيدة ويلمان تطلب محاميها لم تتردد هوبكنز أبداً، إذ ينبغي أن تموت السيدة ويلمان دون وصية بحيث ترث ابنتها غير الشرعية كل أموالها. وكانت هوبكنز قد صادقت ماري جيرارد منذ البداية واكتسبت نفوذاً كبيراً على الفتاة. كل ما كان عليها أن تفعله الآن هو أن تقنع الفتاة بكتابة وصية تترك بها أموالها لأخت والدتها، وقد قامت بالإيحاء لها بصيغة تلك الوصية بكل حرص، إذ لم يكن هناك ذكر للقرابة، بل مجرد «ماري رايلي، أخت الراحلة إليزا رايلي».

وبمجرد أن وُقِّعت تلك الوصية كان مصير ماري جيرارد قد تحدّد، إذ لم يعد على المرأة إلاّ انتظار الفرصة المناسبة. وأظن أنها كانت قد خططت أصلاً طريقة الجريمة باستخدام الأبومورفين لضمان تبرئة نفسها، وربما كانت تنوي إحضار إلينور وماري إلى بيتها، ولكن عندما ذهبت إلينور إلى بيت البوّاب ودعتهما إلى زيارتها في البيت لتناول الشطائر أدركت على الفور أن فرصة مثالية قد ظهرت، فقد كانت الظروف مرتبة بحيث تصبح إدانة إلينور مؤكدة.

قال بيتر لورد ببطء: لولاك أنت لما ثبتت براءتها.

سارع هيركيول بوارو إلى القول: لا يا صديقي، بل عليها أن تشكرك أنت على إنقاذ حياتها.

- أنا؟ إنني لم أفعل شيئاً. لقد حاولت...

ثم سكت. ابتسم بوارو قليلاً وقال: نعم. لقد حاولتَ جاهداً، أليس كذلك؟ لقد كنت نافد الصبر لأنك لم ترَ أنني أنجح في تحقيقاتي، وقد كنتَ خائفاً أيضاً أن تكون الفتاة مذنبة فعلاً في نهاية الأمر. وهكذا -وبوقاحة بالغة- أقدمت أنت أيضاً على الكذب عليّ! ولكنك لم تكن ذكياً جداً في ذلك يا صديقي. أنصحك مستقبلاً بأن تبقى ضمن نطاق أمراضك وتترك أعمال التحري لغيرك.

احمرّ وجه بيتر لورد وقال: أكنت تعرف... طول الوقت؟

قال بوارو بحدّة: لقد قدتني من يدي إلى فسحة بين الشجيرات، وساعدتني في العثور على علبة ثقاب ألمانية كنتَ قد وضعتَها هناك لتوّك. هذه حيلة صبيانية!

دمدم بيتر لورد قائلاً: لا تذهب بعيداً في التركيز على الأمر!

- لقد تحدثتَ مع البستاني وقُدته لكي يشاهد سيارتك هناك في الطريق، ثم جفلتَ وتظاهرتَ بأنها لم تكن سيارتك، ثم نظرتَ إليّ بإمعان لتتأكد من أنني أدركتُ أن شخصاً غريباً ما كان هناك في ذلك الصباح.

- لقد كنتُ مغفلاً كاملاً.

- ماذا كنتَ تفعل في هَنتربيري في ذلك الصباح؟

احمرّ وجه بيتر لورد وقال: كان ذلك مجرد غباء مني. كنت قد... قد سمعتُ أنها جاءت من لندن، فذهبت إلى البيت لعلي أراها. لم أكن أريد الحديث معها. لقد... لقد أردت رؤيتها فقط. ومن بين الشجيرات في الممر رأيتها في غرفة الأواني تقطع الخبز والزبدة.

- استمر يا صديقي.

- آه، ليس هناك ما يقال. تسللت فقط بين الشجيرات وبقيت أراقبها هناك حتى ذهبَتْ.

قال بوارو بلطف: هل وقعتَ في حب إلينور كارليسل من أول مرة رأيتها فيها؟

ساد صمتٌ طويل، ثم قال الطبيب: أظن ذلك.

ثم أضاف قائلاً: آه، حسناً. أظن أنها ستعيش مع روديريك ويلمان بسعادة وهناء.

- يا صديقي العزيز، إنك لا تظن شيئاً من ذلك!

- لماذا؟ ستغفر له مسألة ماري جيرارد، فهي لم تكن إلاّ فتنة وقتية شعر بها.

قال هيركيول بوارو: الأمر يغوص أبعد من ذلك بكثير. إن هناك أحياناً هوَّة بين الماضي والمستقبل، وعندما يكون المرء قد مشى في الوادي المحاذي للموت ثم خرج منه إلى ضوء النهار... فعندها تبدأ حياة جديدة يا صديقي، ولا يعود الماضي مفيداً.

انتظر لحظات ثم مضى قائلاً: حياة جديدة... هذا هو ما تبدؤه إلينور كارليسل الآن، وأنت الذي أعطاها هذه الفرصة الجديدة.

- لا.

- بل نعم؛ لقد كان تصميمك وإصرارك العنيد هو الذي أجبرني على تولي ما طلبتَه مني. اعترف الآن، لقد اتجهَتْ إليك أنت بامتنانها، أليس كذلك؟

قال بيتر لورد بتمهل: بلى، إنها ممتنة جداً. لقد طلبت مني أن أذهب لرؤيتها كثيراً.

- نعم، إنها بحاجة إليك.

قال بيتر لورد بحدة: ليس بقدر ما تحتاجه هو.

هز هيركيول بوارو رأسه بالنفي وقال: إنها لم تكن بحاجة لروديريك ويلمان قط. لقد أحبته، نعم، بتعاسة، بل بيأس أيضاً.

قال بيتر لورد بصوت أجش وهو عابس الوجه: إنها لن تحبني بهذا الشكل أبداً.

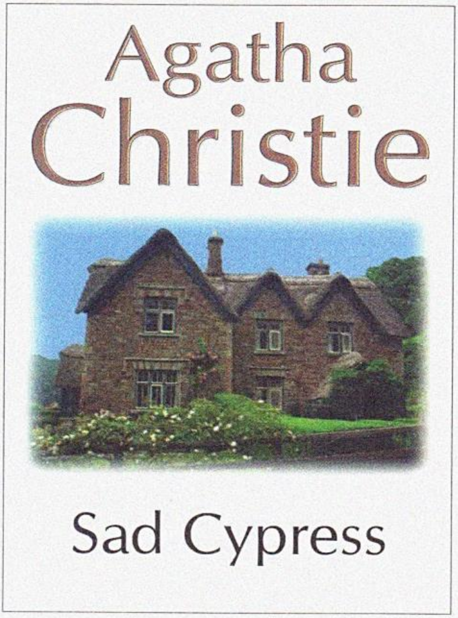
قال هيركيول بوارو برقّة: ربما، ولكنها تحتاجك -يا صديقي- لأنها لا تستطيع بدء دنيا جديدة إلاّ معك أنت.

لم يقل بيتر لورد شيئاً.

كان صوت بوارو شديد اللطف وهو يقول: ألا تستطيع تقبُّل الحقائق؟ لقد أحبت روديريك ويلمان. وماذا في ذلك؟ أما معك فإنها يمكن أن تكون سعيدة.

* * *

-تمت-



السَّرْوُ الحَزين

وقفت الشابة الجميلة، إلينور كارليسل، أمام هيئة المحلَّفين متَّهَمةً بقتل غريمتها ماري جيرارد.

كان موقفها حَرِجاً، فهي وحدَها امتلكت الدافع والفرصة لارتكاب الجريمة.

شخص واحد في قاعة المحكمة افترض أن إلينور بريئة حتى يثبت العكس، وكان هو الحاجز الوحيد الذي يفصلها عن المشنقة.

كان ذلك الشخص هو هيركيول بوارو.

POIROT هيركيول بوارو

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

Agatha Christie



٣٥ رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2729-3
9782195727294

US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً